نبوغ مغربي زمن الطفولة
زوايا نظر في كتاب
"طفولة قلم" للأستاذ عباس الجراري

إهـــــــداء

إلى عميد الأدب المغربي وأستاذ الأجيال

الدكتور عباس الجراري

تحايا خُطّت بأقلام من أزمنة متعددة

نبوغٌ مغربيٌّ زمن الطفولة
زوايا نظر في كتاب
"طفولة قلم" للأستاذ عباس الجراري

تنسيق وتقديم: د. محمد احميدة

منشورات النادي الجراري -104-

الكتاب	:	**نبوغ مغربي زمن الطفولة** **زوايا نظر في كتاب "طفولة قلم"** **للأستاذ عباس الجراري**
المؤلف	:	كتاب جماعي
تنسيق وتقديم	:	**د. محمد احميدة**
الناشر	:	منشورات النادي الجراري **-104-**
صورة الغلاف	:	عباس الجراري...**(1954) الصِّبا . . . والأمل المنشود**
رقم الإيداع القانوني	:	**2021MO3051**
ردمك	:	**978-9920-558-04-4**
الطبعة الأولى	:	يوليوز **2021**
الطبع	:	**Edition Dar Assalam**

عباس الجراري زمن الطفولة (1946)

مع والده المرحوم عبد الله الجراري، قدوته والمثال.

تقديم

د. محمد احميدة*

قلة من الكتاب يحتفظون بكتاباتهم الأولى، والقلة من هذا القليل يعمد إلى نشرها أو نشر البعض منها.

الأستاذ عباس الجراري، من هؤلاء الذين احتفظوا بكتاباتهم التي سطروها في المراحل الأولى من مسيرتهم العلمية. والراجح أن ما تضمنه كتاب «طفولة قلم»، لا يعدو أن يكون قُلّ من كُثر، وأن نصوصاً أخرى قد حجبت عن النشر.

لم يتبرَّأ الأستاذ الجراري من طفولة قلمه، وارتأى أن يشرك المتتبعين لإنتاجه الأدبي والفكري، بل المهتمين بالثقافة المغربية بشكل عام، في تلمس تلك الذبذبات الأولى التي خطتها ريشته الطفولية، فسطّرتها مقالة وخطبة وبحثاً وشعراً وكلمات.

اختار الكشف عن هذه الكتابات الأولى والنادي الجراري يحتفل بالذكرى التسعين لتأسيسه، ويصدر كتاب «طفولة قلم» إلى جانب مجموعة من العناوين، بلغت ثمانية عشر عنواناً، من بينها السيرة الذاتية للكاتب، في جزئها الأول الذي حمل عنوان «رحيق العمر، موجز سيرتي الذاتية: النشأة والمشروع؛ وطي هذا «الرحيق»» يجد القارىء عناصر مكملة، تسعف في تأمل ما خطّه قلم الطفولة.

ما الذي يمكن أن تضيفه كتابات طفولية، لمفكر تعرّف عليه المثقفون داخل المغرب وخارجه، من خلال محاضراته الجامعية، ومشاركاته المتعددة في الندوات العلمية، والمؤتمرات الدولية، ومن خلال ما صنّفه من مؤلفات على مدى عقود من الزمن، في حقول معرفية متعددة ؟

كثير من كبار المفكرين والأدباء، من العرب وغير العرب، تبرّؤوا من كتاباتهم الأولى، ولم يرغبوا في نشرها، وندم البعض على انفلات ارتعاشات القلم الأولى من بين الأصابع !

---

* أستاذ جامعي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة (سابقا).

لا يولد المفكر أو الأديب مكتملاً، وبسط الكتابات الأولى أمام القارىء والباحث، يسمح برصد جوانب متعددة من حياة الكتابة عبر المسار الزمني للكاتب.

وحينما نشر الأستاذ عباس الجراري قسماً من كتاباته الأولى، وضع بذلك بين يد المهتمين متناً يسمح برصد طبيعة الاهتمامات الفكرية والأدبية التي انجذب إليها في مراحله العمرية الأولى، ورسم صُوى لتطوره الفكري عبر مختف المراحل التي تسجلها هذه الكتابات، التي تكشف في نفس الآن عن جانب من طبيعة اهتمامات الساحة الثقافية خلال فترة زمنية محددة، تؤطرها تواريخ هذه الكتابات، كما يتيح هذا الرصيد الطفولي رسم الخط البياني لتطور لغة الكاتب وأساليبه التعبيرية، وغير هذا مما تبوح به النصوص، أو ما يمكن أن تبوح به بعد إعمال النظر في خباياها.

ظلت كتابات «طفولة قلم»، طي النص المخطوط أو الغميس من المنشور في الجرائد، ضمن الربائد الجرارية زمناً ليس بالقصير، حتى التحق بالنادي الجراري باحث شاب من مدينة تطوان، الدكتور سي محمد أملح، الشغوف بالبحث في تراثنا المغربي بشكل عام، مع ولع خاص بالبحث في التراث الأدبي لمدينة الرباط وأعلامها.

وجد هذا الباحث التطواني الجاد بغيته فيما تتيحه مجالس النادي الجراري من حوار ونقاش، وما يقدم بين يدي أعضائه وضيوفه من عروض ومحاضرات، فكانت الفرصة سانحة للأستاذ أملح للمشاركة، وقدم في إحدى الجلسات بتاريخ 11 أكتوبر 2019، عرضاً، تناول من خلاله الحديث عن الكتابات الأولى للأستاذ عباس الجراري، تأسيساً على متن محدد في أربع مقالات، وقف عليها بعد بحث وتنقيب، منشورة في مجلة «هنا كل شيء[1]» التي كان يديرها الفقيه محمد بن عبد الله كوثر الروداني.

[1] مجلة كانت تصدر بمدينة الدار البيضاء، في بداية سنوات الخمسين من القرن العشرين.

كانت البداية بأربع مقالات، وتطلع صاحب هذا العرض لتوسيع الموضوع، حينما انتهى إلى علمه وجود كتابات أخر، سطرت بالقلم الجراري زمن الطفولة. تأكد الأمر بعد الاطلاع على عناوين النصوص المخطوطة للأستاذ الجراري، كما يبين عنها موقعه الاليكتروني، ليطالعه ذلك المتن الذي يحمل عنوان «عباسيات» أو «طفولة قلم». وبتطلع الباحث خاطب الدكتور سي محمد أملح الأستاذ عباس الجراري، مبدياً رغبته في الاشتغال بهذه الكتابات الأولى، «فأمدنا بمجموعة من كتاباته المختلفة والمتنوعة، المخطوطة والمنشورة، ولما طالعناها تزاحم في نفسنا شعور الإعجاب بمضامينها والرغبة في وضعها في متناول القراء، خاصة الشغوفين بشخصية عباس الجراري وإنتاجه العلمي والأدبي والفكري»[1].

والحق أن الدكتور سي محمد أملح، قد بذل مجهوداً محموداً في إعداد المادة وتنسيقها، وإخراج بعضها من النسخ الخطي إلى المرقون، ليضع لكل ذلك تقديماً، شفعه بما يمكن اعتباره مدخلاً يضيئ جوانب من المتن المجموع طي كتاب «طفولة قلم».

وبهذا المجهود العلمي، يكون الأستاذ أملح قد وضع بين أيدي الباحثين، نصاً جديداً من كتابات الأستاذ عباس الجراري، يرتبط ببدايات مسار الكتابة الجرارية، ويقدم معطيات ترسم ملامح من الحياة الثقافية المغربية لمرحلة تاريخية محددة.

ولما استوى النص، وخرج إلى دائرة التلقي الواسع، بدا لي أن إفساح المجال لقراءات الغير لهذا المتن، سيفتح زوايا نظر، متعددة بتعدد المداخل التي تتيحها نصوص، من زمن مشى فيه العباس إلى الكتابة "بإيقاع طفولي"، ارتضى نشرها وقد غدا صاحب مدرسة في البحث الأكاديمي وعميدها.

هذه الرغبة في الانصات إلى آراء الغير، دفعتني إلى مخاطبة نخبة من الباحثين والأساتذة الجامعيين، ممن لهم اهتمام بأدبنا المغربي في شموليته، وسمحت ظروفهم بالمشاركة؛ وقد رحبوا جميعاً، مشكورين. وقد حرصت أن تكون

---

[1] طفولة قلم، عباس الجراري، جمع وإعداد وتقديم: د. سي محمد أملح، ص، 6، منشورات النادي الجراري، رقم: 102، (الرباط، 2020).

هذه القراءات جامعة لأكثر من جيل، جيل الأساتذة الجامعيين الذين تمرسوا بالتقاليد الأكاديمية تدريساً وبحثاً وتأطيراً، وجيل تخرج على يد هؤلاء، شكلوا فريقاً من الباحثين الشباب، توسمنا في بعضهم ملامح النجابة والطموح العلمي والغيرة على الثقافة المغربية، ورغبتهم في إكمال المسير على درب الدراسات المغربية، بل إن بعضهم غدا أستاذاً في الجامعة مساعداً في التدريس، مشاركاً في ندواتها الأكاديمية وعضواً في مختبراتها العلمية. نحونا هذا النحو استلهاماً لفلسفة «النادي الجراري» المؤسَّسة، في جانب منها، على تشجيع الكفاءات العلمية الشابة، تتوسل إلى هذا المبتغى بطرق شتَّى، بدءًا من «جائزة عبد الله الجراري» التي تخصص للباحثين الشباب، وانتهاء بنشر بعض إصدارتهم ضمن منشورات النادي الجراري، أو خارجها. فجاء هذا الكتاب جامعاً للأساتذة وصنيعتهم؛ ولاشك أنه أمر يشعر بالاعتزاز حينما يغدو الطالب زميلاً لأستاذه ومصاقباً له، ومن ثم حمل هذا السِّفر سمة «الطفولة» من خلال نصوصه، تداولتها بالقراءة والتحليل، أقلام من مراحل عُمرية مختلفة.

حينما خاطبت المشاركين في هذا الكتاب، لم أشفع ذلك بتقديم محاور محددة، بل تركت المجال أمامهم مفتوحاً، ليبحث كلٌّ عن المدخل الذي يرتضيه، ويسعف في القبض على المبتغى. فتعددت زوايا التناول، مما أضفى على هذه القراءات، طابع التنوع في مستويات متعددة، ووضعت المتلقي أمام نص آخر، تشكل من قراءات لنصوص قلم طفولي غدا صاحبه مفكرا متميزاً في الساحة الثقافية المغربية والعربية؛ ومن خلال هذا التشكّل يتولد سؤال آخر: كيف قرأ هؤلاء الباحثون تلك النصوص «العباسية»[1] ؟

تعددت زوايا النظر إلى هذا المتن الجراري، الذي يرسم معالم الخطوات الأولى للعباس في عالم الكتابة. رصد البعض في تلك النصوص الطفولية، إرهاصات نبوغ، وبدت للغير، حُبلى بصَبابة تهيم بكل ما هو مغربي، حددتها نظرة أخرى في

[1] المقصود بلفظ «العباسية» في هذا السياق، هو ذلك المعنى الذي يشير في التداول المغربي إلى البواكير الأولى.

ذلك الاهتمام بالأدب المغربي والقلم في بداية الطريق. وخلصت إحدى القراءات إلى تصنيف هذه النصوص باعتبارها نموذجاً لكتابات الشباب زمن الحماية، حتى إذا انتقلنا إلى تأويل آخر بسط أمامنا رؤية ترى في المتن الجراري الطفولي، صورة لكاتب متعدد، خاض في قضايا مختلفة، ومواضيع متعددة، وهو تنوع رصدت قراءة مغايرة، طيّه وعياً استباقياً بقضايا الاصلاح وتحدياته.

ولم تكن نصوص «طفولة قلم» شحيحة على المتلقي الدارس، بل بسطت أمامه مداخل سمحت بكتابة نص على نص، ونوعت زوايا النظر التي التفت بعضها إلى تأمل ما احتوته تلك الكتابات من قضايا أدبية ونقدية محددة، بدءًا بالعتبات النصية، والتفاتاً إلى الارهاصات الشعرية الأولى، فالنظر في الأسلوب والبناء المنهجي، مما يسمح برصد بعض خصائص الكتابة الجرارية، زمن طفولتها.

وتشعرك قراءة هذا الكتاب، أن بعض الأقلام، لو أفسح لها المجال، ومنحت من الزمن فسحة أكبر، لفتَّقت الكثير مما لم تبح به. فالمتن غني، ويستبطن خصوبة ذات شُعب؛ بيد أن الزمن كان قيداً للبعض، ألجم قلمه، وكان بالإمكان أن يطول النَّفَس بقدر اتساع مسافة الزمن الممنوح.

والحق أن كتاب: «نبوغٌ مغربيٌّ زمن الطفولة»، ما كان ليستوي بالشكل الذي نضعه اليوم بين يدي القاريء، لولا جهود هؤلاء الأساتذة الباحثين التي تجسدت في هذه القراءات المنجزة. ولا يجوز في هذا المقام الإمساك عن شكر من بهم تم تكوين هذا السِّفر؛ وما خُطّ بالقلم على قلم، يستدعي إطلاق اللسان بالثناء - وإن قصرت العبارة- على كل من انتقى زاوية نظر، ليشرك الغير في التأمل واجتناء ثمره. ومن كرم سجايا المشاركين ونبل أخلاقهم العلمية، اجتهادهم للإلتزام بالزمن المحدد للتوصل بمشاركاتهم، رغم الظروف غير المسعفة - والزمن زمن وباء كورونا- والتزامات التدريس والإشراف ومناقشات الأطاريح، تطوق الأعناق؛ فلهم منِّي خالص الشكر والعرفان، رغم أن مناشيء الشكر تضيق وأنا أسعى إلى انتقاء ما يسعف في هذا المقام. أشفع كل ذلك بالتنويه بروح التعاون الذي أظهرته الأستاذة الدكتورة ربيعة بنويس، من خلال حسن تواصلها العلمي، خلال ترتيبي لخطوات

هذا العمل، آملاً أن تكون زوايا النظر التي انتخبت، قد فتحت آفاقاً قرائية أخرى، ويكون متن هذا السِّفر حافزاً لقراءات أُخَر.... سلمت الأيادي التي خطت ما أسس لتأملات تلوح في الأفق.

****

د. جميلة حيدة

- أستاذة جامعية، كلية الآداب، جامعة محمد الأول، وجدة.
- عضو مختبر الأدب والبناء الحضاري، كلية الآداب، وجدة.
- عضو مختبر صناعة الثقافة والاتصال بالمغرب، كلية الآداب، وجدة.
- عضو مختبر الديداكتيك واللغات والوسائط، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- عضو فريق البحث في الأدب المغربي، كلية اللغات والآداب والفنون، القنيطرة.
- عضو اللجنة العلمية لمجلة كلية الدراسات الاسلامية والعربية، دبي، الامارات العربية المتحدة.
- أشرفت وتشرف على عدة أبحاث وأطاريح جامعية.
- شاركت في ندوات ولقاءات علمية وأيام دراسية منها:

1- ندوة علمية في موضوع: الشعر العربي المعاصر في المغرب: مفاهيم وقضايا، بكلية الآداب، وجدة.

2- ندوة دولية في موضوع: الهجرة في الأدب العربي، تنظيم مختبر الأدب العام والمقارن بكلية الآداب بوجدة، ومختبر الأبعاد اللغوية والمعرفية والمخيالية في العالم العربي بجامعة رين، 2، فرنسا.

3- يوم دراسي في موضوع: إشكالات الخطاب المغربي المعاصر، تنظيم: مجموعة البحث في تراث شمال افريقيا بكلية الآداب، وجدة.

4- يوم دراسي حول « مفهوم المنهج » تنظيم: مجموعة البحث في النقد والأدب، كلية الآداب، وجدة.

- الأعمال المنشورة:

أ- <u>الكتب</u>:

1- مصادر الأدب العربي بالمغرب: دراسة في المنهج، 2011.

2- التأريخ للأدب العربي بالمغرب: دراسة في المنهج، 2011.

3- النقد العربي المعاصر: المفهوم والمرجعيات، **2012.**

ب- ضمن كتاب جماعي:

- على خطى الرائي، سعيد يقطين وتجديد الفكر النقدي العربي الحديث، دار خطوط للنشر والتوزيع، الأردن، عمان، **2021.**

- تكريم بصيغة المؤنث، منشورات كلية الآداب، وجدة، **2020.**

- الشفاهية وهجرة المعنى: أسئلة المنهج والإبلاغ في قراءة سعيد يقطين للتراث، دار خطوط النشر والتوزيع، الأردن، عمان، **2021.**

- الأدب المغربي الحديث والمعاصر: أسئلة وقضايا، كلية الآداب بالقنيطرة والنادي الجراري بالرباط، منشورات النادي الجراري، رقم: **93**، صدر ضمن برنامج تخليد الذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراري **(1930-2020)**، الرباط، **2020.**

- بالإضافة إلى العديد من الدراسات المنشورة في المجلات:

مجلة المناهل، ضفاف (مغربية)، مجلة كلية الآداب بوجدة.

- لها أعمال قيد الطبع:

- النقد المغربي المعاصر.

- النقد المغربي والمناهج الحديثة.

***

طفولة قلم.. بوادر الاهتمام بالأدب المغربي وأعلامه

د. جميلة حيدة

برز الدكتور عباس الجراري في عالم الكتابة في مختلف الميادين والمجالات، وأسهم بشكل كبير في النهوض بالحياة الفكرية والأدبية والثقافية بالمغرب. كما قام بمجهود جبار في إحياء التراث الأدبي المغربي والتعريف برجالاته، وما قدموه من أعمال ظلت حبيسة الرفوف بالمكتبات العامة والخاصة. ولم يقتصر اهتمام الأستاذ الجراري بالقديم بل شمل الحديث والمعاصر.

وغير خاف أن ما كتبه الأستاذ الجراري من كتب يعد بالعشرات منه ما أفرد للدراسات الأدبية المغربية والتراث الشعبي، خاصة الملحون، ومنه ما خصص للأدب العربي والفكر الإسلامي بعامة. وسنركز على ما له صلة بالأدب المغربي ورجالاته، انطلاقا من كتاب : " طفولة قلم "، وهو كتاب يستمد قيمته، أساسا، من كونه يمثل بواكير كتابات الدكتور عباس الجراري، ويكشف عن جوانب من تكوينه المعرفي والظروف التي أسهمت في ذلك منذ أن كان تلميذا ثم طالبا جامعيا قبيل نهاية الحماية وبداية الاستقلال[1]، فقد ضم الكتاب عدة كتابات تشعبت موضوعاتها وتباينت، إذ شملت ما هو فكري ومعرفي وما هو سياسي واجتماعي وما هو لغوي وأدبي... وهذا ما لاحظه الدكتور سي محمد أملح الذي سهر على جمع وإعداد وتقديم هذا الكتاب، حيث لخص ذلك بقوله : " ولتشعب موضوعات هذه الكتابات، واختلاف طبيعتها بين المخطوطة وبين المطبوعة المنشورة في مجلات وجرائد

[1]. وتشمل الفترة الممتدة ما بين 1954 و1961، فأول مقالة كتبت بتاريخ 15 يونيو 1954، وكتبت آخر مقالة بتاريخ 16 أبريل 1961.

متباينة، فقد صادفنا مشكلة في ترتيبها وفق نسق يسهل على القارئ مطالعتها واستكمال بناء الواجهة العلمية لكاتبها..."[1].

والمتتبع لما تضمنه كتاب " طفولة قلم " من كتابات في موضوعات متنوعة أنجزها الأستاذ عباس الجراري في السنوات المبكرة من حياته، سيلاحظ ما عرفته هذه الكتابات من تطور مهم سواء تعلق الأمر بالمضامين أم بالشكل والمبنى، خاصة كتاباته في المرحلة الجامعية التي خضعت للتكوين الجامعي الذي حدد له مجال الاشتغال في نطاق ما يفرضه التخصص في الأدب العربي بعامة. ولعل هذا الأمر هو الذي جعل الموضوعات المعالجة منصبة أساسا على ما له صلة بالشرق العربي، وإن حرص في جل الكتابات ذات الموضوعات العامة، على تضمينها إشارات إلى ما هو مغربي صرف، كالإشارات التي وردت في مقالتيه: " البرج العاجي ضروري للأديب "، و"الأدب والارتزاق ".

أما المقالات التي خصصها للأدب المغربي وتوقف فيها عند بعض أعلامه ورجالاته وظواهره وقضاياه، فمعدودة لا تتجاوز ثلاث مقالات نشرت بالجرائد المغربية سأكتفي بالتوقف عندها وهي :

- رجالاتنا المنسيون.
- الترجمة الذاتية.
- هل لنا أدب مغربي[2].

---

[1]. د. عباس الجراري، طفولة قلم، جمع وإعداد وتقديم د. سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري، رقم 102، ص، 7.

[2]. هناك بحث أكاديمي أنجزه الأستاذ عباس الجراري بجامعة القاهرة بعنوان : " ابن حبوس شاعر الخلافة المهدية "، ينظر : طفولة قلم، ص. 245.

1ــ رجالاتنا المنسيون :

لا شك أن الأستاذ عباس الجراري وفي سنه المبكر، لاحظ ما لحق بأعلام مغاربة، في مختلف المجالات المعرفية، من إهمال وتهميش، رغم ما قدموه من خدمات جليلة للفكر والأدب والثقافة المغربية بعامة بشقيها المدرسي والشعبي، يقول : " لا أريد أن أتحدث عن رعاية الأحياء من الأدباء والعلماء وما لهم على الدولة من تقدير وتشجيع (...) وإنما الذي أريد أن أتحدث عنه هو رعاية أفذاذ في الفكر والثقافة، عاشوا حياتهم يغذون الأرواح ويحيون النفوس وماتوا دون أن نعرف لهم حقا في التمجيد والتكريم "[1].

مثل هذه الملاحظة سجلها محمد بن العباس القباج في أواخر العشرينيات من القرن العشرين حين قال: "هذه النظرة التي ألقيناها على الشعوب العربية فسرتنا أتم سرور وطفحنا بها بشرا واغتباطا، ولكن لما حانت منا التفاتة إلى قطرنا المغربي (...) ونظرنا هل له مثل هذه السمعة الأدبية والشهرة العالية، وهل أوتي أدباؤه وشعراؤه ذكرا يرفع مقامهم ويطير شهرتهم، ألفينا من خمول الذكر ما لا ترضى به أمة تنشد الحياة وتؤمل أن يكون لها مركز في الوجود"[2].

هذا النص يحمل أكثر من معنى ودلالة، فهو من جهة يبارك النهضة الفكرية والأدبية في المشرق العربي، ويأسف لكون المغرب خامل الذكر لا يتمتع بنفس السمعة الأدبية التي تتمتع بها بقية الأقطار العربية، ومن جهة أخرى يتطلع ويطمح إلى تغيير هذا الواقع ويدعو إلى منافسة الشرق العربي في نهضته وتكريم رجاله، ومن ثم جاءت مساهمة القباج للتعريف بأدباء المغرب وشعرائه، لتضاف إلى ما بدأه كل من محمد السائح في كتابه التعليمي

---

[1]. طفولة قلم، ص155.

[2]. محمد بن العباس القباج، الأدب العربي في المغرب الأقصى، 1929، مقدمة، ص. أ، ب.

" المنتخبات العبقرية لطلاب المدارس الثانوية " (سنة 1920)، وأحمد النميشي في كتابه " تاريخ الشعر والشعراء بفاس " (سنة 1924).

لا يمكن إنكار أن كتب التراجم والطبقات احتلت مكانة سامية في الآداب العربية بصفة عامة، حيث اهتم العرب في المشرق وكذلك المغاربة، اهتماما كبيرا بهذا النوع من الكتابة، ففاق هذا الاهتمام، وبخاصة لدى المغاربة، الاهتمام والعناية بالتأليف في التاريخ العام وتاريخ الأدب، حيث قام المغاربة منذ عهد مبكر بتأليف تراجم الأعيان على اختلاف مشاربهم وأهوائهم ؛ من علماء، وأدباء، ومتصوفة، وملوك، وأمراء، ووزراء، وقواد، وقضاة، وحجاب...

لكن هذا النوع من الكتابة، لم يركز على المادة الفكرية والأدبية والعلمية، بقدر ما اهتم بجوانب متصلة بحياة وظروف أصحابها ومهنهم، خاصة الذين ارتبطوا بذوي السلطة والنفوذ بالنسبة للأدباء والعلماء. كما أنها لم تتطور وفق ما تتطلبه ظروف كل عصر، وغالبا ما كانت تقصي المعاصرين.

ورغم أهمية هذه الكتابة، فإنه لابد من تسجيل تقصير المغاربة في حق السابقين، وإهمال تراثهم الأدبي والفكري، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ عباس الجراري بقوله: " (...) فإهمال السابقين للتراث والتاريخ وما نتج عنه من غموض وإبهام يسودان العصور المغربية المختلفة، كل هذا يجعل الباحث في سجل الآداب المغربية يخرج غير مطمئن ولا مرتاح"[1].

إن الأستاذ عباس الجراري يثير في هذا النص قضيتين مهمتين مرتبطتين بكون عناية المغاربة بجمع الأدب كانت ضئيلة، لذلك تعرض إنتاجنا الأدبي عبر العصور للضياع، إذ لا يمكن دراسة ظاهرة أدبية دون أن تصادف الدارس هذه المشكلة، فيضطر إلى البحث عن المادة الضائعة في كتب

[1]. طفولة قلم، ص، 156.

ومؤلفات مختلفة، وهذا يجعل الوصول إلى الأدب المغربي عملية صعبة جدا. وهذا المشكل لا يمس الأدب المغربي القديم فقط، بل نجده يطرح أيضا في أدبنا الحديث الذي يتميز بدوره بالتقطع والضياع، إضافة إلى ظاهرة الانتقال السريع عبر مجالات الكتابة.

أما القضية الثانية فمرتبطة بإهمال المغاربة للتاريخ بعامة بما في ذلك تاريخ الأدب. ولقد ظل الأستاذ عباس الجراري يؤكد ويلح على أهمية التأريخ للأدب المغربي، والعناية به في جل كتاباته التي خصصها للحديث عن الأدب المغربي وأعلامه، دون أن يغفل التذكير بما يعتري الباحث في صفحاته من عناء ومشقة، فهو عمل" مضن عسير لما يسود هذه الصفحات من غموض نتج عن عدم اعتناء السلف بالتاريخ، وعده من قبل الخرافة، وعن إهمال الخلف لما بقي من تراث يندب حظه على رفوف المكتبات لا يزيده الإعراض غير نقص من قيمة نفائسه وذخائره"[1].

هذا الإهمال أكدته عدة دراسات لمهتمين بهذا المجال، ومن الذين سبقوا إلى تأكيد أهمية التاريخ وعدم اهتمام المغاربة به، محمد بن جعفر الكتاني الذي ذهب في كتابه " سلوة الأنفاس "، إلى " أنه لقلة اعتناء أهل المغرب بالتاريخ ضاع أكثرهم وخفي على كثير من الناس جمهورهم ومعظمهم"[2]، وذهب نفس هذا المذهب كثير من الدارسين والباحثين الذين بحثوا في مصادر التاريخ المغربي، فهذا مثلا المستشرق الفرنسي "ليفي بروفنصال " يؤكد في كتابه " مؤرخو الشرفاء "، قلة اعتناء المغاربة بتاريخ بلادهم مستدلا على ذلك بما جاء على لسان محمد بن جعفر الكتاني في مقدمة كتابه " سلوة الأنفاس " وبما ورد في محاضرات اليوسي من أن الاعتناء بالأخبار والوقائع والمساند

---

[1]. طفولة قلم : ابن حبوس شاعر الخلافة المهدية، ص. 245.

[2]. محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحاضرة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، طبع على الحجر بفاس سنة 1898 م (1316 هـ)، ج. 1، ص. 3.

ضعيف جدا عند المغاربة. واستشهد " بروفنصال " كذلك بما ذكره محمد العربي الفاسي في " مرآة المحاسن " بخصوص هذه المسألة، وفسر " بروفنصال " هذه الظاهرة بسببين :

السبب الأول ديني، ذلك أنه رأى أن عدم اهتمام المغاربة بالتاريخ راجع إلى اعتبارهم التاريخ من المسائل الدنيوية التي يعد الاشتغال بها من باب اللهو والعبث[1].

أما السبب الثاني، فهو نوعية التعليم الذي كان سائدا بالمغرب، ذلك أن البرامج التعليمية المغربية لم تكن تهتم بالمظان التاريخية، فلم يكن من المنتظر والحالة هذه أن يلتفت المغاربة ويهتموا بما " لم تخصص لها ولو ساعة واحدة من تلك الساعات العديدة المخصصة للنحو أو للفقه مثلا"[2]. ولم يغب هذا الواقع عن الأستاذ الجراري وهو لا يزال يخطو خطواته الأولى في مجال البحث والكتابة، يقول : "... ولو عدنا إلى الماضي إلى ما قبل هذا القرن، نراجع صفحات تاريخ الأدب المغربي القديم، لما انتهينا إلى نتائج تطمئن لها النفس ويرتاح لها الخاطر، لما يشوب تلك العصور من غموض وإبهام، هما نتيجة عدم اهتمام من سبقونا بالتراث وإهمالهم للتاريخ الذي كان في نظرهم أشبه بخرافة إن لم يكن خرافة بذاته"[3].

والواقع أن اهتمام المغاربة كان منصبا بالأساس على العلوم الدينية واللغوية، أما باقي العلوم بما في ذلك التاريخ والأدب، فكانت تحتل مكانة ثانوية، وكلها موجهة أساسا لتدعيم العلوم الشرعية، لذلك كثيرا ما تطالعنا

---

[1]. ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلادي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1977، ص. 38.

[2]. نفسه، الصفحة نفسها.

[3]. طفولة قلم، ص، 192، رجالاتنا المنسيون.

كتب التاريخ بإشارات إلى أهمية التاريخ، وعلاقته المتينة بالعلوم الدينية، لكي تحظى بقبول القراء وتشجعهم على قراءتها.

لا جدال في أن إحياء التراث مسألة أساسية وضرورية لقيام نهضة فكرية وأدبية، وهو ما دعا إليه الأستاذ عباس الجراري وظل يدعو إليه منذ كتاباته الأولى، وفي محاضراته الجامعية التي كان يلقيها على طلبته، وفي كثير من أعماله وكتبه...

لقد عرف المغرب عبر تاريخه العريق عددا مهما من الأدباء والمؤلفين في مختلف الميادين المعرفية، يستحقون أن يهتم بهم ويلتفت إليهم وتدرس آثارهم وإنتاجاتهم وإبداعهم، في إطار إحياء وبعث التراث بشكل عام. وقد ذكر الأستاذ عباس الجراري من بينهم " محمد بن عيسى الصنهاجي، وأبا جعفر، وبن عطية، ومحمد بن حبوس، وأحمد الجراوي، ومالك بن المرحل..." [1]، إضافة إلى أسماء أخرى ذكرها الأستاذ الجراري بكثير من الحسرة، يقول : "... بل ما لنا لنذهب بعيدا والأمثلة واضحة أمامنا لرجال كانوا معنا بالأمس القريب، صنعوا الجيل السابق والذي قبله، ثم ماتوا ولم يحظوا بغير الجحود والنكران...أين نحن من ذكرى تحيى لأبي شعيب الدكالي، وأبي حامد المكي البيطاوري، ومحمد السائح، وعبد الرحمن بن زيدان، ومحمد غريط، ومحمد بن أبراهيم، وأحمد سكيرج، ومحمد أبي جندار..."[2].

لقد دعا الأستاذ الجراري منذ شبابه إلى إحياء التراث باعتباره وسيلة لقيام نهضة أدبية وفكرية وعلمية:" (...) يبعث القديم الحي، وينشر ما يجدي منه على ثقافتنا الحديثة، لتتوثق الصلة بين حاضر يحثنا على النهوض، وماض نستمد منه القوة والحياة "[3].

---

[1]. طفولة قلم، ص، 156.

[2]. نفسه، ص، 157.

[3]. نفسه.

وتوقف الأستاذ الجراري عند ظاهرة غريبة في تاريخنا الأدبي والفكري وهو الانبهار بالغير والنظرة الدونية إلى الذات، يقول : "(...) وإنه لمن المؤسف كذلك أن نذكر رجالات غيرنا ونغفل عن أفذاذ في تاريخ آدابنا هم أحق بالتخليد والذكرى. ولست أنكر ذلك إلا لأني أكره أن نهتم بالغير ونهمل أنفسنا"[1].

ولا شك أن هذا الانبهار بالغير والاهتمام به الذي طبع تاريخنا الثقافي بعامة قديما وحديثا، من بين الأسباب التي أسهمت في وقوع بعض المغاربة في فخ التقليد والتبعية. وهذا ما عبر عنه ابن بسام حيث قال : "... إلا أن أهل هذا الموقف أبوا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة، رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أوطن بأقصى الشام والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما وتلوا ذلك كتابا محكما..."[2].

وهذا التأثر القوي بالمشارقة أملته جملة أسباب، من ذلك ؛ أن طبيعة الشروط التاريخية التي تم فيها اللقاء التاريخي بين المشرق والمغرب إبان الفتح الإسلامي، فرض وجود علاقة متناقضة بينهما منذ البداية، هذه المفارقة حالت دون وجود تأثير ثقافي متبادل، فظل التأثير المشرقي قويا على المغرب، وظل المغاربة ــ إلى عهد قريب ــ ينظرون إلى المشارقة بإعجاب وانبهار، ويحاولون السير على منوالهم في معظم أعمالهم، بحيث يمكن القول، إن الثقافة العربية الإسلامية التي أنتجت في المشرق، أصبح يعاد إنتاجها في المغرب خاصة في المراحل الأولى من تاريخه الفكري العربي الإسلامي.

---

[1]. طفولة قلم، ص. 158.

[2]. ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق : إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، 1975، مقدمة، ص. 12.

2 ــ الترجمة الذاتية :

في هذه المقالة أعاد الدكتور الجراري طرح موضوع إغفال المغاربة لرجالهم وإهمالهم للنوابغ، وأرجع سبب ذلك إلى عامل المعاصرة، بحيث حفز هذا الإهمال " كثيرا من العلماء والأدباء المعاصرين لتسجيل حياتهم بأقلامهم أمثال محمد العبدي الكانوني في " جواهر الكمال "، ومحمد علي دينية في "تاريخ الرباط"، وعبد الحفيظ الفاسي في معجم الشيوخ، وقبلهم دون أبو إسحاق التادلي في بعض تقاييده كثيرا من جوانب حياته"[1].

ولا شك أن إهمال من يستحق الذكر والإعراض عما قدموه من أعمال "حقيقة مؤلمة لا سبيل إلى إنكارها"[2]، إلا أنها في واقع الأمر " نقمة " تحمل في ثناياها " نعمة "، ذلك أنها " كانت الحافز لهؤلاء لكي يسجلوا حياتهم بأقلامهم"[3]، حيث بدأ الاهتمام "بالسيرة الذاتية " كجنس أدبي لم يحظ بعناية المغاربة في وقت كان الإقبال عليه في المشرق العربي كبيرا خاصة بعد رواج كتاب "الأيام" لطه حسين و"حياتي" لأحمد أمين.

إن إعراض المغاربة عن تسجيل سير حياتهم إلا القليل منهم، كانت من بين الأسباب الرئيسة التي دفعت محمد بن العباس القباج لأن ينوب عن بعض معاصريه من الشعراء ويقوم بالترجمة لسبعة وعشرين شاعرا في كتابه " الأدب العربي في المغرب الأقصى "؛ ولعل هذا العدد الكبير من الشعراء، حال دون إيراد تراجمهم محررة بأقلامهم توخيا للاختصار، باستثناء ست تراجم وردت محررة بأقلام أصحابها نزولا عند رغبتهم وهم: محمد الحجوي، ومحمد القري، المكي الناصري، وعبد الأحد الكتاني، والحسن الداودي، وعبد المالك البلغيثي.

---

[1]. طفولة قلم، ص. 185.

[2]. نفسه، ص 185.

[3]. نفسه.

إن الإهمال الذي طال أعلاما مغاربة في ميادين معرفية مختلفة، قديما وحديثا، نتج عنه إشكالات وصعوبات كثيرة خاصة بالنسبة للدارسين الذين سعوا إلى التأريخ للأدب المغربي، وهذا ما جعل الدكتور عباس الجراري يلح على هذه القضية منذ بداياته الأولى في عالم الكتابة، وهذا ما يؤكده قوله: " وليس هذا الإهمال حديث عهد في تاريخنا ؛ فقديما أغفلت شخصيات كثيرة، لم يلتفت إليها، طمست معالم حياتها، وطمست معها معالم أجيال ؛ فتعذر الربط بين حلقاتها ما سبق منها وما لحق"[1].

هل لنا أدب مغربي ؟

لقد شغل الأدب المغربي وتاريخه ورجاله، ولا يزال، اهتمام وعناية الأستاذ الجراري الذي ما انفك يبحث عن سبل تأكيد وجوده وإبراز قيمته، فعنوان المقالة الذي يفيد الشك، سرعان ما يزول بعد قراءتها. ويزيح هذا الشك بشكل قطعي قول الأستاذ الجراري "... على أننا لا نشك في أنه كانت هناك حركات أدبية عرفتها عصور مغربية، نبغ فيها من رجال العلم والأدب كثيرون، بقي إنتاجهم مبعثرا في بطون الخزائن تلتهمه الأرضة، وكأنه كتب عليه أن يفنى مع أصحابه"[2].

تتبع الدكتور الجراري في هذه المقالة مختلف العصور المغربية، راصدا ما عرفتها من حضور للأدب لا يمكن إنكاره، مستعينا بمفهوم التعاقب الزمني الذي يقسم الأدب إلى عصور وفق التقسيم السياسي. وهذا التقسيم اعتمد بشكل واسع وشاع استعماله سواء في المشرق العربي أم المغرب. ويعتبر كتاب النبوغ المغربي لعبد الله گنون أوضح مثال على ذلك. ونظرا لشيوع استخدامه اعتبر منهجا قائما بذاته وإن كان عنصرا فقط من عناصر المنهج التاريخي اللانسوني، حيث ارتكز على مسألة التحقيب الزمني وتقسيم الأدب إلى

---

[1]. طفولة قلم، ص186.

[2]. نفسه، ص193.

عصور أدبية وفق المقياس السياسي، ونظر إلى الأدب على أنه تابع للسياسة ينحط بانحطاطها ويرقى برقيها.

ولا شك أن الأستاذ عباس الجراري تأثر بهذا " المنهج " في كتاباته الأولى، فقد توقف في مقالته "هل لنا أدب مغربي ؟ " عند مختلف العصور، راصدا الحركة الأدبية في ازدهارها وركودها، يقول : "... ففي العهد الموحدي أخذت لأول مرة تبرز مميزات مغربية خالصة في إنتاج الأدباء الذين كانوا يقصدون إلى عدم تقليد جيرانهم الأندلسيين (...) وممن لمعوا في هذا العصر محمد بن حبوس الفاسي، وأحمد بن عطية المراكشي، وأحمد الجراوي الفاسي، ومحمد بن عبدون المكناسي"[1].

ويقول : " وفي العهد المريني عرف الأدب أزهى عصوره... "[2]، ويضيف : "ثم اضطربت الأحوال في العهد الوطاسي بسبب الفتن والحروب... "[3]. واسترسل في تصوير الأدب في باقي العصور إلى حدود فترة الحماية، وفي ذلك يقول : "وكان أن ساءت أحوال المغرب في مستهل هذا القرن، فسلطت عليه الحماية الاستعمارية (...) وقد ساده لأول عهده بها جو من الركود والخمول، وظهرت آثارهما في مختلف ميادين الحياة، وخاصة ميدان الثقافة"[4].

ولم يغب عن الدكتور الجراري دور الحكام في نهضة الأدب وفق ما يمليه "منهج التحقيب الزمني"، حيث استحضر تشجيع هؤلاء للأدباء وتحفيزهم ماديا. وهذا ما يوضحه قوله عن الحركة الأدبية في عصر الموحدين: "وكان لابد للأدب أن ينهض وتنفق سوقه، فاعتنت به الدولة، وشجعت أصحابه، وزخرت أندية البلاط بالكتاب والشعراء، وفتحت أبوابها للأدباء

---

[1]. طفولة قلم، ص، 193.

[2]. نفسه.

[3]. نفسه، ص194.

[4]. نفسه.

الوافدين، وعقد الخلفاء، وكان أكثرهم يتذوقون ويتعاطون، مجالس كانت تحفل بالمناظرة والمساجلة، بذلوا العطاء لروادها في بذخ وإسراف كان لهما أثر كبير على تشجيع حركات العلم والأدب"[1].

وهذا " المنهج "، ليس جديدا كل الجدة على العرب، ذلك أننا نجد له جذورا وإرهاصات في التراث العربي القديم ؛ في كتب التاريخ والأمالي، وفي كتب الطبقات والتراجم، وفي كتب الحماسة والمختارات. واستمر تأثير الدراسات العربية القديمة متغلغلا في الدراسات الحديثة التي حاولت اعتماد المنهج التاريخي، سواء في المشرق أم في المغرب، فتراوح " منهج " هذه الدراسات بين الأخذ من التراث العربي ومن المنهج التاريخي الغربي، هذا التأثير المزدوج أفرز ما عرف " بالنظرية المدرسية ". وقد طرح الأستاذ عباس الجراري هذا الموضوع في كتابه " صفحات من القديم والحديث "، حيث قال : " من هنا ومزيجا من هذا التراث العربي القديم والأثر الغربي الجديد ظهرت محاولات في التأريخ للأدب العربي، كان من نتائجها أن نشأت نظرية هي النظرية المدرسية التي صار الدارسون عليها ولا يزالون"[2].

وانتقد الدكتور عباس الجراري هذه النظرية في كتابه " الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه "، حيث ذهب إلى أن المنهج التاريخي في عمومه لا يسعف " في تلبية ما نطمح إلى تحقيقه في مضمار الدرس"[3]، وقدم تصورا بديلا مكونا من ثلاثة عناصر :

1 ــ النظر إلى الأدب من خلال نوعيه المدرسي والشعبي.

2 ــ اعتبار مفهوم الأدب شاملا لكل الإنتاج الفكري دون الاقتصار على الشعر والنثر كما يحدده الاصطلاح المدرسي الضيق لمدلول الأدب.

---

[1]. طفولة قلم : ابن حبوس شاعر الخلافة المهدية، ص. 247.

[2]. د.عباس الجراري، صفحات من القديم والحديث، ط1، دار الثقافة، البيضاء، 1979، ص23.

[3]. د.عباس الجراري، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، نشر مكتبة المعارف، ط2، ج1، ص8.

3 ــ تناول الأدب عن طريق طرح ظواهره وقضاياه، سواء تعلق الأمر بالقديم أم بالحديث.

هذا البديل الذي قدمه الدكتور الجراري يؤكد ويكرس التصور العام للأدب، الذي اخذ به كثير من الدارسين والمؤلفين المغاربة كأحمد النميشي وعبد الله گنون ومحمد المنوني... أما الظواهر والقضايا كما تعكسها جل كتابات الدكتور الجراري، فهي ظواهر وقضايا تاريخية في أغلبها.

إن الانتقادات والمآخذ التي سجلها الأستاذ الجراري وغيره من الدارسين على "المنهج التاريخي" في نسخته العربية، تجلي حقيقة هذا المنهج الذي أثبتت الدراسات محدوديته وسطحيته، ذلك أن معظم الدارسين العرب لم يوفقوا في توظيف "المنهج التاريخي" من خلال التقيد بأهم قواعده وعناصره كما جاء في أصوله الغربية، حيث اقتصروا على أخذ واقتباس أسهل عناصره، وتجنبوا العناصر الأخرى المهمة التي ألح عليها "لانسون" وغيره من أقطاب هذا المنهج.

إن كتاب "طفولة قلم" يكتسي أهمية كبيرة بالنظر إلى طبيعة الموضوعات والقضايا التي أثارها الأستاذ عباس الجراري بجرأة وثقة المتمرس، وهو لا يزال يافعا يتلمس أولى خطواته في مجال الكتابة، كما يستمد قيمته بالنظر إلى الفترة الزمنية التي أنجزت فيها مختلف الكتابات التي يتضمنها الكتاب، والتي ستساعد، ولا شك، كل دارس لإنتاجات الأستاذ عباس الجراري في مختلف الميادين المعرفية من فكر وأدب وتاريخ ولغة... خاصة ما له علاقة بالأدب المغربي وأعلامه.

***

لائحة المصادر والمراجع

1 ــ المصادر :

ــ عباس الجراري :

ــ الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، نشر مكتبة المعارف، ط. 2، ج. 1.

ــ صفحات من القديم والحديث، ط.1، دار الثقافة،، البيضاء 1979.

ــ طفولة قلم، جمع وإعداد وتقديم د. سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري، رقم 102.

2 ــ المراجع :

ــ ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق : إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، 1975.

ــ جميلة حيدة :

التأريخ للأدب العربي بالمغرب، دراسة في المنهج، مطبعة الجسور، وجدة، 2011.

ــ جميلة حيدة، مصادر الأدب العربي بالمغرب، دراسة في المنهج، مطبعة الجسور، وجدة، 2011.

ــ ليفي بروفنصال، مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلادي، دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1977.

ــ محمد بن العباس القباج، الأدب العربي في المغرب الأقصى، طبعة 1929.

ــ محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحاضرة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس، طبع على الحجر، بفاس سنة 1898 م (1316 هـ)، ج. 1.

***

د. ربيعة بنويس

- أستاذة جامعية، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- عضو في مجلس جامعة ابن طفيل (2008).
- رئيسة فريق البحث في المعجم الأدبي والفني (2005-2008).
- عضو في مختبر اللغة والابداع والوسائط الجديدة (2009-2014).
- عضو في مختبر أرخبيل للدراسات الأدبية واللغوية (2014-2020).
- عضو في مختبر الديداكتيك واللغات والوسائط الدراماتورجيا (2021).
- أشرفت وتشرف على العديد من الأطاريح الجامعية.
- عضو في لجان مناقشة الأطاريح في جامعة ابن طفيل، وجامعات مغربية أخرى.
- شاركت في العديد من الندوات العلمية وطنية ودولية منها:
- ندوة في موضوع «مصطلحات صوفية في الميزان» تنظيم كلية الآداب، 2005.
- ندوة «خمسون سنة من تحقيق التراث بالمغرب: الحصيلة والآفاق»، تنظيم كلية الآداب، تطوان، 2006.
- الندوة الدولية من « جيل العلم إلى العالم»، تنظيم نقابة الشرفاء العلميين واللجنة العلمية للمنتدى العالمي للمشيشية الشاذلية في موضوع: « تأثير الطريقة المشيشية الشاذلية في متصوفة المغرب العربي من خلال الشيخ أحمد زروق»، طنجة، 2008.

- من أعمالها المنشورة:

أ- <u>الكتب</u>: - الشعر الصوفي بتازة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين، منشورات النادي الجراري، رقم: 98، الرباط، 2020.

- الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والأخرى لمالك بن المرحل: تحقيق وتقديم، الدار البيضاء، 2019.

ب- <u>ضمن كتاب جماعي</u>:

- ماهية الكتابة النسائية (أعمال ندوة)، وجدة، 2011.

- موضوعات وقضايا في كتابات الدكتور محمد احميدة، ضمن (الأدب المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب)، أبحاث وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور محمد احميدة، منشورات كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، 2014.

- التصوف الشعبي والبدعة بالمغرب، ضمن (الثقافة الشعبية المغربية في النصوص والدراسات الوطنية والأجنبية)، كلية الآداب، الرباط، 2016.

- التجربة الشعرية عند الدكتور عباس الجراري، ضمن (عباس الجراري شاعراً) منشورات النادي الجراري، رقم: 79، الرباط، 1918.

- الحركة الصوفية بمنطقة الريف وعلاقتها بالجهاد ضد التدخل الأجنبي في البلاد المغربية، ضمن (الحركة العلمية ببلاد الريف خلال العصر الأول من الدولة العلوية الشريفة: الخصائص والأدوار)، المجلس العلمي المحلي بإقليم الدريوش، الناظور، 2017.

****

طفولة قلم.. إرهاصات النبوغ وتفتق الإبداع

د. ربيعة بنويس

لما اتصل بي الدكتور محمد احميدة يسألني بشأن المشاركة في شأن تقديم ورقة حول كتاب "طفولة قلم" للدكتور عباس الجراري، سررت كثيرا بهذا التشريف، على اعتبار أن الجراري هو رائد من رواد الفكر المغربي عموما، والأدب المغربي بوجه خاص، طبعا من الرواد وإن جاء بعدهم، فالرواد الأوائل من أمثال العلامة المجاهد عبد الله الجراري، والمؤرخين الأدبيين عبد الله كنون ومحمد بن تاويت التطواني، ومحمد بن العباس القباج وغيرهم، اهتموا بالتعريف بالأدباء والشعراء والعلماء على مر العصور الأدبية المغربية، أما الدكتور عباس الجراري، فانتبه للأدباء وللمادة الأدبية، الشعرية خاصة، التي ميزت الأدب المغربي قديمه وحديثه، فدرسها دراسة نقدية، مظهرا قيمتها في ذاتها، ومن خلال مقارنتها بما وجد في الأدب القديم أو المعاصر لها، متناولا إياها من الجوانب الموضوعية دون إغفال القضايا الفنية، لذلك، وفي إطار الماستر الذي أقوم بالإشراف عليه، وهو "مكونات الأدب العربي بالمغرب الحديث والمعاصر"، ومن خلال الوحدات التي أقوم بتدريسها، وخاصة منها "مصادر الأدب المغربي الحديث والمعاصر"، و"الشعر المغربي الحديث والمعاصر قضاياه وظواهره"، و"النثر التأليفي بالمغرب، المقالة نموذجا"، ألزم الطلبة بالبحث في كتابات الرواد أولا، ثم مؤلفات الدكتور عباس الجراري ثانيا، ثم مؤلفات تلامذته، لأن تلك الكتب هي في رأيي المصادر لهذا الأدب، تُعَرف به، وتتناوله تحقيبيا، وتظهر خصائصه وقضاياه حسب المدارس الأدبية التي ينتمي إليها الأدباء، وبالتالي من خلالها يمكن الوصول إلى التطور الذي عرفه الأدب المغربي سواء على المستوى الإبداعي أو على المستوى النقدي، ولا شك أن كتاب "طفولة قلم" يحمل الإرهاصات الأولى لذلك التألق وذلك النبوغ الذي وصل إليه أستاذنا الجليل أطال الله في عمره.

فإذا كان لكل شيء بداية، ولكل موهبة إرهاصات، فإن كل نابغة وكبير، إلا وله طفولة متميزة، نهل منها، وتربة خصبة وصحية وُضِعت فيها بذوره، فأينعت

ونمت وأعطت تمارا؛ لأن العبقرية والإبداع لا يمكن أن يأتيا من فراغ، بل لابد من وجود مناخ عام يرعاهما ومقومات أساسية تعمل فيهما، فلا أحد يبدأ من الصفر، كما أن الفكر والقناعات لا تولد اعتباطا، وهذا شأن المبدعين المتميزين، لأن للبيئة والتربية دور أساسي في تحديد وتنمية القدرات الإبداعية عند الأطفال، لتُصْقَل وتَتَنَمَّى عند الكبر.

ولعل هذا ما يمكن أن نلمسه عند عميد الأدب المغربي، الدكتور عباس الجراري الذي تنوعت اهتماماته الفكرية والأدبية، وكثرت مشاربه العلمية، وخاض في موضوعات مختلفة ومتشعبة، لامست مجموعة من المجالات الأدبية منها واللغوية والدينية والسياسية والثقافية، المغربية والمشرقية، لكن كيف تشكلت هذه الموسوعية العلمية؟ وما هي العوامل التي خلقتها؟ وماهي النتائج التي خلفتها؟

يقول الدكتور عباس الجراري في مقدمة كتابه "رحيق العمر": "وإني لأود منذ البدء في هذا التقديم، أن أشير إلى أن نشأتي في بيت علم ودين ووطنية كان لها أكبر تأثير على مسيرة حياتي، وكان لي فيها الوالد رحمه الله هو القدوة والمثال، تضاف إليها حالتي الصحية التي جعلتني تلقائيا ومنذ طفولتي الأولى أصرف النظر عن كل ما يتعارض مع سلامتها، أو ما يبعدني عن اتباع القدوة وتحقيق المثال"[1].

والقدوة والمثال اللذان يتحدث عنهما المؤلف، هو والده العلامة عبد الله الجراري الذي كانت له مساهمات كبيرة في مجالات الفكر والسياسة والأدب، فهو الذي رسم الطريق أمام ولده، وفتح أعينه على حب العلم والتفاني في طلبه، دون أن تقف في وجهه الملمات والصعاب، إذ في أيام المرض الذي ألم به ومنعه من ارتياد صفه الدراسي مدة من الزمن، كان يشجعه ويقدم له نماذج من العلماء الذين تفوقوا في مجالاتهم رغم عاهاتهم وعللهم الصحية، "مما يؤكد أن العلم لا يدرك بالمال والجاه ولا بقوة الجسم وكماله، ولكنه "نور يقذفه الله في القلب"، و"نور يهدي به من

---

1. رحيق العمر، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2020، منشورات النادي الجراري رقم 101، ج1/ النشأة والمشروع/ ص8-9.

يشاء" كما في أقوال للإمام مالك"[1]، هذه المواعظ كانت النبراس الذي أضاء للمؤلف طريقه، أضف إليه التواضع الذي كان وما يزال من مميزاته، ذلك أن التواضع شيمة من شيم العلماء، لذلك ما فتئ والده يحببه إليه ويدعوه للتمتع به، يقول: "وفي هذا السياق كان -رحمه الله- غالبا ما يذكر لي أن "الإنسان لا يصير قنديلا إلا بعد أن يكون منديلا"، وهو ما لا يتحقق إلا مقترنا بالتواضع"[2].

ومن هنا وجدنا الجراري الطموح، يرغب في التعلم والبحث، هذا الطموح الذي جعله وهو لا يزال شابا يفعة يقدم كتابات هي النواة الأولى للمشروع العلمي الضخم الذي نهض به وقدم فيه ملكاته المعرفية المختلفة، فوجدنا التاريخ إلى جانب الرحلة إلى جانب الأدب والنقد، ولا يمكن الحديث عن الأدب والنقد دون الاهتمام باللغة وقواعدها من نحو وبلاغة، والمناهج وطرق التعبير وعلامات الترقيم، إضافة إلى اهتمامه بالثقافة وأثرها في النهوض بالمجتمعات، مع ربط هذه الثقافة بالدين الإسلامي الحنيف وإظهار الرسالة السامية التي يحملها هذا الدين، دون أن يفوته الحديث عن مرحلة مهمة من تاريخ المغرب، مرحلة شارك فيها بقلبه ولسانه، وهي المرحلة التي عرفت مخاضا كبيرا من أجل نيل الحرية والكرامة، والتشبث بالهوية الوطنية والقومية، وسنحاول في هذا المقال أن نتناول كل جانب على حدة، مع الآثار التي تولدت عنه في كتاباته الكثيرة التي لا يمل القارئ منها، لسلاسة أسلوبها، ووضوح معانيها، ودقة منهجها، الشيء الذي يجعلنا دائما نتعطش لقراءة كل ما يصدر لعميد الأدب المغربي، أو ما يصدر عنه.

الرحلة وفوائدها عند الدكتور الجراري:

للسفر والرحلة فوائد كثيرة، ففيها متعة وإفادة ومغامرة، وقد أولع بها المغاربة قديما وحديثا، وخلفوا فيها المؤلفات الكثيرة التي تناولوا من خلالها أنماط الفكر والتقاليد والعادات والحضارات المختلفة، هذه الرحلات التي اهتم بها الأدباء والمؤرخون وعلماء الاجتماع، كل من زاوية اختصاصه، إلا أن الذي يجب الإشارة

---

1. رحيق العمر: ص10.
2. نفسه.

إليه، هو أن الرحلة والتأليف فيها لا يقتصر على ما هو خارج الوطن، وهنا يقول الدكتور عباس الجراري في تقديمه لكتاب "الرحلة السطاتية أو السكيرجية": "على أن اهتمام علماء المغرب وأدبائه بالسفر وما يحث عليه من حب الاستطلاع، لم يكن يقتصر على ما هو خارج الوطن، ولكن كان يغريهم للقيام بزيارات داخلية لم تكن تخلو من مقاصد، تكاد تكون -في بعضها- هي نفسها التي كانوا يحققونها في أسفارهم الخارجية، وكانت لهم إلى ذلك دوافع كثيرة، قد يكون من أهمها ما لمدن المغرب وأقاليمه من سمات متميزة، سواء على مستوى الطبيعة أو التاريخ أو الحضارة والثقافة، وما يمثل ذلك كله من معالم وأعلام"[1]، وهذا نفسه ما نفهمه من قول الدكتور مصطفى الجوهري في مقدمة الرحلة: "ويهمني الآن الحديث عن شكل آخر من أشكال الكتابة الرحلية، وهو شكل لم تلتفت إليه إلا لماما، ولم يكتب له الذيوع والانتشار إلا قليلا، وهو الكتابة الرحلية الداخلية وخاصة المغربية منها، باعتبارها رحلات وسفريات تمت داخل المدن المغربية، ورسمت لهذه المدن جوانب من جغرافيتها التاريخية والثقافية"[2].

وقد خص الدكتور عباس الجراري الرحلة الداخلية في "طفولة قلم" بمقالين، كانا في سن مبكرة وهو يعاني من السقم والمرض، وهما مقالان تناول فيهما أهمية السفر، أهمية ذاتية تتجلى في الاستجمام أولا، ثم الاستطلاع ثانيا، وإن غلب الجانب الثاني على الأول، والملاحظ أنه في ما كتبه يسير على درب الرحالة الكبار، كيف لا وهو قد تمدرس على يد والده الرحالة الذي خلف مجموعة من الرحلات داخل المغرب وخارجه، منها "الرحلة الليبية"، و"نزهة الاقتباس من خمسة أيام في فاس"، و"جولة في وجدة"، و"الرحلة السطاتية أو السكيرجية" وغيرها، فلا شك أنه تأثر بمعلمه الأول وسار على دربه.

---

1. الرحلة السطاتية أو السكيرجية، عبد الله الجراري: تحقيق: د.مصطفى الجوهري، تقديم: د.عباس الجراري، مطبعة بني يزناسن- سلا، ط1، 2005، منشورات النادي الجراري رقم 32، ص أ.

5. نفسه، ص1.

ففي المقال الأول "السفر ظفر" الذي نشر سنة **1954**، تحدث عن الفوائد الصحية والنفسية للرحلة، نعم، وهو العليل المريض حينها، المحتاج لمثل تلك الرحلات التي تغذي عقله وروحه، وتكسبه صحة جديدة، وتعرفه على أصدقاء جدد، منهم العلماء والعارفون، وتحرك فيه حب الحياة، يقول: "فالإنسان إذا ما قطن في وطن، قليل الرياضة الجسدية، بعيدا عن حركات العضلات المنشطة، عرض نفسه للجراثيم والميكروبات التي تداخل دمه وتخالطه؛ فيضعف جسمه وعقله، ويكون عرضة للأخطار والأمراض، بل لا يعد من الأحياء.

قلقـــل ركابـــك في الصـــخور ودع الغـــــواني والقصـــــور
فالقـــــــاطنون بأرضـــــــهم عنـــــدي كســـكان القبـــور

ففي الأسفار من الفوائد الصحية والعرفانية والرزقية ما لا يتوفر لملازم الوطن، ولو عاش طوال الدهر، فهذا سيد البشر يقول: سافروا تصحوا وتغنموا"[1]، ويقول الجراري شعرا متحدثا عن أهمية السفر في طلب العلم:

فطالع من الأسفار كل كريمـة لها النفس تهفو والقلوب تطلـع
وجالس ذوي علم وذاكر بخـبرة تفز بفنـون روضـها لـك مرتـع[2]

فيذكر الجراري الكثير من هذه المغانم، منها تحريك الجسم والأعضاء، واستنشاق الهواء النقي، والابتعاد عن الأمراض والأسقام العضوية والنفسية، "وهذا معنى الصحة الكاملة التي يصبو لها كل الناس؛ بل هو التاج الذي يسعى لحمله كل أحد"[3]، ولا يراه إلا المرضى؛ إلا أن الفائدة الأجل هي المعارف والعلوم والفنون التي يمكن أن يكتسبها المسافر، والتي تتجلى في الاطلاع على "أحوال الناس، فيرى كيف يعيشون، وكيف يتعاملون، وكيف تسمو الأخلاق وتعلو الثقافة وتسير العوائد"[4]،

---

1. طفولة قلم، عباس الجراري: جمع وإعداد وتحقيق: دسي محمد أملح، مطابع الرباط نت، ط**1**، **2020**، منشورات النادي الجراري رقم **102**، ص**44.**

2. مقطوعة "في طلب العلم"، طفولة قلم، ص**83.**

3. نفسه، ص**45.**

4. نفسه، ص**46.**

فيتعلم درسا جديدا لم يتعلمه في المدرسة، لذلك نجد الجراري التلميذ يكرر هذه الفكرة، لأهميتها في مقال آخر تحدث فيه عن فوائد الرحلة في العطلة الصيفية، عنونه بـ"الإقبال على عهد جديد"[1].

فهذه الإشارات البسيطة التي تحدث عنها، تنبي عن فكر متقد، ومعرفة دقيقة بالأشياء، معرفة كبيرة عن سنه الصغير، فهو لا يكتفي بالوصف كدأب الكثير من التلاميذ والأطفال في سنه، بل يحلل ويعطي النتائج المتوقعة من الرحلة، حيث عودة الرحالين إلى "أوطانهم حاملين غنائم عرفانية سامية، ينشرونها في أبناء ملتهم، فيتلقونها غنيمة باردة"[2].

وهذا يظهر لنا نوعية التعليم التي كانت سائدة وقتئذ، رغم ظروف الاستعمار، فالمؤدبون الوطنيون كانوا يغرسون القيم الجميلة والنبيلة في عقول تلامذتهم، والدراسة كانت تعتمد على الموسوعية والبعد عن التخصص، لذلك مثلا، وجدنا عباس الجراري الطفل في كتابته، لا يكتفي بالحديث عن الرحلة وفوائدها، بل يحسن ربطها بالجانب التاريخي، وكيف يمكن للمرء تحقيق الدرجات العلا من خلال الخروج في رحلة، يقول: "وهذا عبد المومن الكومي كان قد خرج من بلاده طالب علم لا يملك شيئا، وبينما هو في طريقه، إذ لقي المهدي بن تومرت، فأطلعه على هدفه، وسرعان ما أصحبه معه إلى المغرب، واتخذه صديقا وتلميذا وشريكا، ولم تلبث أن تحققت مرامي المهدي في الجلوس على عرش المغرب، وبعد مدة، التحق بربه، كان الخلف الرشيد هو هذا الطالب الغريب"[3].

لكن المقال الذي سيكون التحقيق العملي والفعلي لأفكاره وآرائه، هو المقال الثاني والذي جاء عبارة عن وصف لرحلة قام بها رفقة والده وبعض الأصدقاء، وهي رحلة لم تكن اختيارية، بل كانت إجبارية، هدفها تغيير المكان والخروج من جو المرض والعياء الذي كان يحس به الطفل الأديب، بعد مرض اضطر معه للإقامة في

---

1. طفولة قلم ، ص84.
2. نفسه، ص46.
3. نفسه.

المصحة من أجل إجراء عمليتين كللتا بالنجاح والحمد لله، لكنها رحلة خدمت الطفل المريض من جانبين، الجانب الصحي والجانب المعرفي، إذ كان المقال عبارة عن جواب إنشائي عن كيفية قضاء العطلة الصيفية.

هذه الرحلة التي عرفت مجموعة من الوجهات أولها مدينة فاس ثم مدينة صفرو، فمدينة وجدة، فتلمسان والمنصورة الجزائرية ووهران، مرورا في الطريق بمجموعة من المدن كتازة وكرسيف والعيون وبركان، ثم "للامغنية" و"تيموشنت"، إلا أن المميز في هذه الرحلة ما رافقها من مذاكرات علمية وأوصاف جميلة لمجموعة من الأماكن التي لا يذكرها عجلى، بل يستدعي الجانب التاريخي، فيعطي تاريخ التأسيس والمؤسس لها، وتحس في ذلك بنبرة من الزهو والافتخار، خاصة حين يتحدث عن بعض المدن الجزائرية والتي كان الفضل في تأسيسها للخلفاء المغاربة، ومن ذلك قوله عن مدينة المنصورة ومدينة تلمسان، واصفا جمالهما بدقة عالية، وكأنك تقرأ لما كتبه الحسن الوزان أو مرمول كربخال في أوصافهما للمدن وما تزخر به من معالم، يقول:

"وصممنا أن نغادر وجدة قاصدين تلمسان.. بعد قطع الحدود المغربية الجزائرية، أخذنا في إنشاء الأشعار وإنشادها والأحاديث العلمية الأدبية الرائقة، ننسى بها بعض ما يساورنا من التعب، حيث إن الطرق في الجزائر قبيحة جدا، وكلما سرحنا نظرنا، لا نرى إلا الكروم الخضراء ممتدة في اللانهاية، وقبل وصولنا إلى تلمسان بثلاثة أميال، نزلنا من السيارة، فإذا بنا أمام جدران عظيمة وأبواب ضخمة هائلة عالية، وصومعة تحسبها تكلم السماء، وكأننا أمام صومعة جامع حسان.

نعم نحن الآن وسط مدينة المنصورة التي بناها أبو يعقوب المريني حين حاصر تلمسان، حيث اتخذها معسكرا، ثم تابعنا قطع الطريق في السيارة، وما هي إلا بضع دقائق حتى وجدنا أنفسنا في تلمسان الواقعة بين جبال شامخة وسهول خضراء تتخللها أنهار جارية تحسبها جنة فيحاء بهوائها المعتدل وطقسها الجميل.

وتلمسان هذه من آثار الأدارسة، حيث إنه لما خرج المولى إدريس بن عبد الله في منتصف رجب من سنة ثلاث وسبعين ومائتين غازيا هذه الناحية، أسس على أنقاض معسكر روماني هذه المدينة.. ثم أقبلت الدولة المرابطية، فزاد في المدينة يوسف بن تاشفين بضمه لها في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي قرية أخرى ابتناها "تاقرارات"»[1].

هذه إشارة إلى جانبها إشارات أخرى تزدان بها الرحلة، وتعبر عن موسوعية علمية يحظى بها الطفل الجراري، بل وتظهر مدى استفادته من الرحلات القديمة والحديثة التي اشتهر بها المغاربة، ولعل أقربها إليه رحلات السيد الوالد العلامة عبد الله الجراري، ولا يخفى كذلك أثر رحلات ابن بطوطة والعبدري وابن رشيد السبتي وأبي سالم العياشي، في وصفه للمعالم التاريخية التي رآها أو زارها، والتي تنم عن دقة في الوصف، وعن فطنة وذكاء، يقول: «... ثم عدنا إلى تلمسان، وفي الغد، زرنا أكبر معهد علمي، وهو دار الحديث؛ وهي عبارة عن مسجد متوسط في الطبقة السفلى، به كرسي للوعظ والإرشاد ومنبر للخطابة، وهناك الأبواق المكبرة للصوت، وبالحائط القبلي خزانة هائلة فيها أنفس المجلدات العربية، وبالطبقة العليا قاعة كبيرة وعدة أقسام للتدريس العربي، وهناك أقسام وحصص خاصة بالنساء»[2]، بل ما نلمسه أيضا بعد هذا الوصف الدقيق، إشارة مهمة في آخر الجملة، وهي أن النساء كن غير مقصيات من التعليم.

فكانت الرحلة عموما ممتعة ومفيدة، سواء على المستوى الصحي، أو على المستوى المعرفي والعلمي؛ لتبقى الرحلة من بين اهتمامات الدكتور عباس الجراري، فنجده يكتب تقديما على الرحلة السطاتية للمرحوم عبد الله الجراري، ويردفها برحلات كثيرة إلى أمريكا، «سواء قصد العلاج، شافاه الله وعافاه، أو لصلة الرحم وزيارة أبنائه وأحفاده حفظهم الله»[3]، من هذه الرحلات المطبوعة، ثلاثون يوما في

---

1. طفولة قلم، ص67-68.

2. نفسه، ص69.

3. ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية، د.عباس الجراري، إعداد وتقديم مصطفى الجوهري، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2018، منشورات النادي الجراري رقم 80، ص5 من التقديم.

الولايات المتحدة الأمريكية، والتي اعدها وقدمها الدكتور مصطفى الجوهري، ورحلة "نسيم البوسفور" إلى تركيا، من إعداد وتقديم الدكتورة بديعة لفضايلي، وكلها تحمل الكثير من المعارف والمعلومات الفكرية والثقافية الهامة، سواء من حيث المعيشة أو المكتبات أو الجامعات، أو المنتديات واللقاءات المختلفة التي كان يعقدها المؤلف مع مجموعة من الشخصيات منها السياسية والعلمية والعامة، والذي يميز تلك الرحلات دقة الوصف التي رأيناها في مقاله السابق الإشارة إليه في "طفولة قلم"، من حيث وصف الفنادق التي أقام بها، والولايات أو المدن التي مر منها، والمرافق الأساسية الموجودة بها، مركزا على الجانب التعليمي، متحدثا عن الجامعات وأنواعها، والمتاحف وزخرفتها وما بها من كنوز ومخطوطات عربية وفارسية وتركية.

وعموما، نستنتج أن الرحلة عند الدكتور الجراري منبع للمعرفة والعلم، كما كانت في القديم، بل هي وثائق حية ومهمة عن كثير من الجوانب الحضارية للبلاد موضوع الرحلة سواء على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي أو السياسي أو الفكري والأدبي، يقول الدكتور محمد احميدة عن الرحلة المغربية عموما: "الرحلة نص منفتح على قراءات متعددة، يمكن أن يتحول إلى وثيقة يستند إليها المؤرخ والجغرافي والسياسي ومؤرخ الآداب والمهتم بالدراسات الاجتماعية إلى غير ذلك، من هنا أهمية الالتفات إلى هذا النمط من الكتابة الذي ساهم فيه المغاربة بحظ وافر، خاصة في الشق المتعلق بالرحلات خارج المغرب، والحجية منها بشكل أخص.

غير أن هناك صنفا آخر من هذه الرحلات، لم يحظ باهتمام كبير، يتمثل في تلك الرحلات الداخلية، التي قام بها فقهاء وأدباء وعلماء ومؤرخون وساسة مغاربة عبر البلاد المغربية لأسباب مختلفة، مدونين مشاهداتهم وملاحظاتهم حول جوانب مختلفة من حياة المجتمع المغربي"[1]، وهذا ما لمسناه في رحلة الطفولة عند الجراري،

---

1. الرحلات المغربية الداخلية: 1912-1956، ندوة عبد الله الجراري، الحلقة الرابعة، منشورات النادي الجراري رقم 31، مطبعة بني يزناسن، سلا، ط1، 2005، ص359.

هذه الرحلة التي يمكن عدها إرهاصا لظهور فن مكتمل السمات عنده في الرحلات التي قام بها في كبره وقد استوت شخصيته العلمية، وازدانت مكانته المعرفية والثقافية.

عباس الجراري: الأديب والناقد

كانت الموضوعات الأدبية على رأس الموضوعات التي اهتم بها الجراري منذ نعومة أظافره، ولا يمكننا الحديث عن هذه الموضوعات دون الحديث عن اللغة المتوسل بها في هذا الأدب وضرورة العناية بها، ويكفي في هذا الصدد أن نشير إلى قصيدة قالها غيرة على هذه اللغة التي تعرضت للإقصاء والتهميش مع وجود الاستعمار في البلاد العربية عموما، لأن في القضاء على اللغة العربية قضاء على الهوية الوطنية والقومية، فهي لغة القرآن الذي جاء ليوحد الأمة العربية، لذلك وجدناه يقول في قصيدة عنوانها: "صرخة على لغة الضاد":

لســـــانـنا العربـــــي دوى مـــــن الغهـــــب
لســـــان قرآننـــــا أصـــــيب باللهـــــب
لـــــسان ســـــنتنا أودى بـــــذا الســـــبب
لســـــان أمتنـــــا أقـــــيم في الكتـــــب
لســـــان ملتنـــــا في طِرزنـــــا الـــــذهبي
لســـــان أعلامنـــــا في العلـــــم والأدب
لســـــان منبرنـــــا في الـــــوعظ والخطـــــب
لســـــان أرواحنـــــا في الحـــــزن والطـــــرب
لســـــان مهجتنـــــا عـــــن حبنـــــا يعـــــرب
لســـــان أوطاننـــــا في شرق أو مغـــــرب

.....

..لســـــاننا العربـــــي لســـــاننا العربـــــي
علتـــــه عجمـــــة مـــــن عـــــاداه بالريـــــب
ألا أغيثـــــوه تنـــــ ـــــجوا مـــــن العطـــــب

ألا انظـــــــروا ديـــــــنكم يـــــا أمـــــة العـــــرب
يـــــا امـــــة العـــــرب صـــــونيه مـــــن خـــــرب[1]

فهذه الأبيات رغم بساطتها، تحمل بين طياتها مشروع شاعر كبير، شاعر وطني، له غيرة على البلاد والعباد والدين واللغة، شاعر يحس بالمسؤولية اتجاه أهم قضية تناولها الشعراء في عهد الحماية، وهي الدعوة إلى الحفاظ على اللغة العربية، خصوصا بعد ما حاول المستعمر إحداث الظهير البربري للتفرقة بين المغاربة، هذا الحدث الذي حرك الأسرة الجرارية في شخص العلامة عبد الله الجراري الذي بادر إلى إنشاء النادي الجراري الذي كان وقتئذ مجمع الوطنيين الأحرار الغيورين على الوطن والدين، محاولا من خلاله تعبئة الصفوف وتنوير العقول للنهوض ضد المستعمر الغاصب، فلا شك إذن، أن يكون الطفل عباس الجراري قد تشرب مبادئ الوطنية منذ صغر سنه، من خلال التربية التي تلقاها على والده المجاهد، ومن خلال الوطنيين المترددين على النادي، كتابا كانوا أم شعراء، أم فلاحين أم تجارا، فوظف قلمه هو الآخر لخدمة القضية الوطنية والقومية، إيمانا منه بأن سبيل التحرر والنهوض هو طلب العلوم والمعارف، والتشبث بالدين ومرتكزاته، وهذه الدعوة من الأغراض التي تناولها الشعر الوطني عند رواده من أمثال محمد الحلوي وعلال الفاسي وغيرهما، لذلك وجدناه يقول من قصيدة أخرى عنوانها "سيروا بنا"، يدعوا فيها إلى طلب العلم في وقت كان الاستعمار لا يزال جاثما على الصدور:

سـيروا بنـا نحـو العـلى والمفـاخر وإلى المعـارف كـل ذا لنـا يرفـع
سيروا اقصدوا بابا إلى المجد مدخل يـا حبـذا هـذا وعمـرى ضـائع
سـيروا احفظـوا مجـدا بعلـم نـافع فبالاجتهـاد عـن الجهالـة نقلـع
بـالعلم تحيـا أمـة عـز فخرهـا بـالعلم ينشـأ مجـدها يترعـرع
كـم سـوقة سـادوا بعلـم في الـورى نـالوا بـه كـل المنـى فهـو يرفـع
كم من نسيب جاهـل هـو في الملا غِـرٌّ لـه بحـر الشـقاوة مخـدَع
سـيروا بنـا نحـو المـدارس والمعـا هد حيث ثمـت للمكـارم منبـع

1. من قصيدة "صرخة على لغة الضاد"، وكان بناها على أبيات في الموضوع لوالده رحمه الله، ص79-80.

فهـي الضـمان لأمـة تاقـت إلى عـيش رغيـد لـيس فيـه تمنـع
سـيروا بنـا نحـو العـلا فهـي مرتـع سيروا بنا فالقلب ثمت مـودَع[1]

وهذه دعوة إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة، ودعوة إلى الجد في الدرس والتحصيل، إذ بهما يمكن تحقيق الأماني، ومن خلالهما يمكن اقتحام العقبات والصعاب، لذلك وجدنا الشاب الجراري يقول في كلمة ألقاها ضمن ندوة أقامها طلاب مدارس محمد الخامس من أجل خلق نشاط ثقافي، وذلك مساء يوم **9** يناير **1965**، والمغرب حينها حديث عهد بالاستقلال، يحتاج لدماء جديدة فتية قادرة على النهوض بالأمة بعد سبات طويل وخمول وركود في ظل الاستعباد الذي فرضه عهد الحماية: "فالأخلاق الحميدة أساس السعادة وينبوع العز والكرامة"، لذلك "يجب علينا، أولا وقبل كل شيء، أن نسلك سيرة الذين جابهوا الحياة وجابهتهم، بما تنطوي عليه من مصاعب وشرور، ففازوا في الميدان بحِلية المكارم وماجد الأخلاق، شافعين ذلك بالبحث والتمحيص والكشف عن دقائق المسائل وغامض المشاكل والجد في الدرس والتنقيب عن الخفايا وكل ما يعسُر عن الحل، مع الوقوف على نصائح المهذبين والمعلمين، والاسترشاد بتوجيهاتهم القيمة في احترام وتوقير حتى يكونوا خير عون على تقدمنا وإنشاء مستقبلنا"[2]، فالروح الوطني يسري في دم الجراري سواء في مجال الشعر أو في مجال النثر، ومن خلال مجموعة من المقالات والخطب التي قالها غداة الاستقلال، هذه الروح التي ستتبلور بشكل كبير في الكثير من مؤلفاته، منها كناش "الأخلاق أساس كل إصلاح"، والذي لأهمية المقال الوارد فيه، والذي يعمل على التعريف بأن الدين الإسلامي أساس القيم والأخلاق الفاضلة، فقد تمت ترجمته إلى اللغتين الفرنسية والإسبانية.

ثم كتابه "بقايا كلام في الثقافة"، الذي تحدث فيه عن أهمية المذهب الفكري المتكامل والتنظيم المتماسك الذي يمكن من خلاله مواجهة كل الصعوبات والضغوطات، يقول: "إن الدولة في مثل الموقع والموقف اللذين يوجد فيهما المغرب،

---

1. من قصيدة "سيروا بنا"، طفولة قلم، ص**82-83.**

2. أبناء اليوم... رجال الغد، من "طفولة قلم"، ص**93.**

معرضة باستمرار لألوان من الاختيارات والصعوبات والضغوط والتحديات، وهي لا تستطيع أن تواجهها إلا إذا كانت مسلحة بمذهب فكري متكامل، وبتنظيم متماسك دقيق تعبأ داخله قوى الشعب في وحدة وطنية، وعن طريق إزالة الطفيليات وعوامل التسميم والتخريب، وتذويب الفوارق الفكرية التي من شأنها أن تخلق اتجاهات متصادمة وتيارات متضاربة.

وإن شعبا ناضجا ونابضا بالحياة يتحرك دفعة واحدة لتحرير أرضه في مسيرة خضراء بعقل وإرادة، وبوعي حاضر وإدراك لمعنى المسؤولية، ثم يتحرك دفعة واحدة في مسيرة اقتصادية للمساهمة في قرض مالي للنهوض بالأرض المحررة؛ إن هذا الشعب جدير بأن يذهب في مسيرة للفكر والتنظيم حتى يخوض معركة المستقبل في تعبئة شاملة تضمن له الوحدة والاستقرار واطراد التقدم والرقي»[1].

هذا الحس الوطني، وجد عند عباس الجراري منذ صباه وهو يأخذ دروسا في الوطنية على يد والده العلامة عبد الله الجراري، فتفتق ذلك عن مجموعة من المقالات التي كتبها أو ألقاها غداة تحرير البلاد من ربقة المستعمر، سواء على أثير الإذاعة، أو في ميادين عامة، سواء بمناسبة عيد العرش أو بمناسبة عيد الاستقلال، أو فخرا بالفدائيين الذين عرضوا أنفسهم للخطر من أجل تحقيق النصر والتنعم بالحرية، أو مدحا لعاهل البلاد محمد الخامس الذي ضحى بكل ما لديه من أجل شعبه، يقول: "أجل، برهن محمد الخامس على إخلاصه لشعبه ووفائه لمهمته وتضحيته من أجلها، فقد ترك كل متاع وثروة، وترك الملك والسيادة غير مبال بها، لأنه ترك ما هو أغلى من ذلك، وما هو أجدر بالعناية والاهتمام ألا وهو الشعب»[2].

لكن حب الوطن، سيظهر بشكل خاص في الاهتمام بالأدب المغربي، ومقاله "هل لنا أدب مغربي" ينم عن غيرة اتجاه هذا الوطن الذي ظل تراثه الأدبي مجهولا بسبب إغفال أهله عنه، وعدم اهتمامهم بتاريخ أدبهم، فظل يشوبه الغموض

---

1. بقايا كلام في الثقافة، عباس الجراري، مطبعة ومكتبة الأمنية، الرباط، ط1، 1999، منشورات النادي الجراري، رقم : 17، ص84-85.
2. طفولة قلم، ص115.

والإبهام، لذلك لم نعثر قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب على حركة فكرية أو إبداعية لأبنائه، يقول: "والمغرب قبل الإسلام لم يعرف للفكر نشاطا أو حركة، ولم تظهر بين أبنائه ملكات فنية للخلق والإبداع بسبب النظام القبلي الذي كان يسود مناطقه والعزلة التي كان يعيش في ظلالها، مما لم يكن يسمح للحضارة أن تزدهر في ربوعه"[1]. لكن ابتداء من الفتح الإسلامي، وبسبب الاتصال بالحضارة المشرقية، أصبح للمغاربة مشاركة في الحياة العلمية والفكرية، خاصة فيما يتعلق بالشريعة والدين، "أما الميادين الفنية والأدبية، فقد كان فيها تابعا ليس غير، يقلد الشرق تارة والأندلس أخرى"[2].

إلا أن الأمر سيتغير في عصور مغربية مختلفة، وخاصة العصرين الموحدي والمريني، حيث ظهور مجموعة من الأدباء والعلماء، كانت لهم مشاركات في الساحة الفكرية المغربية، فخلفوا أدبا له خصوصيته التي ميزته عن غيره من الآداب العربية، بسبب التشجيع الذي لاقاه هؤلاء من قبل الملوك والأمراء الذين تعاقبوا على حكم المغرب، ليصيبه الاضطراب في العصر الوطاسي نتيجة الاضطرابات السياسية التي عرفتها الدولة، ثم يستقر مع الأدارسة والعصر العلوي الأول، لكن سرعان ما بدأ الضعف يدب إليه من جديد بسبب ظروف الحماية التي كان هدفها طمس كل ما من شأنه تعزيز الهوية الوطنية، فحاولت القضاء على اللغة والثقافة العربيتين، ونجحت في شكل من الأشكال حين نجد مجموعة من شيوخ المساجد والكتاتيب القرآنية، حيث كانت تعقد حلقات الدرس، ينظرون إلى الأدب على أنه "أوهام وخيالات وخرافات وأكاذيب ليست من العلم في شيء"[3]، ولم يكن يتعاطى للأدب إلا أفراد قلائل، اعتمدوا على تقليد ما وصلهم من المشرق والأندلس، وراحوا ينظمون على منواله، فكانت هذه الشرارة الأولى التي سينطلق

---

1. طفولة قلم، ص192.
2. نفسه، ص192.
3. نفسه، ص194.

منها الأدب المغربي ويرسم لنفسه طريقه الخاص به والمميز له، وهنا يقول الفتى الشاب عباس الجراري:

"وإذن، فقد كانت هذه الحقبة الثانية حقبة نهوض بعد أن كانت الفترة الأولى فترة ركود، وكان حريا أن ينتعش الأدب وينمو فرعه مستفيدا من هذه اليقظة، وفي الحق أننا لا نستطيع أن نقول إن حظ الأدب كان كثيرا أو قليلا، ولكن الواقع الذي لا مراء فيه أن الثقافة بوجه عام حازت نصيبا وافرا أو يكاد؛ فقد أصلح بعض الشيء من حال التعليم في المعاهد الدينية، وساهم الشعب في بناء مدارس ابتدائية وثانوية، وفتحت حكومة الحماية مدارس بدورها لتنافس بها أو لتضيق بها على المنافسة. أما التعليم العالي، فلا حديث عنه إلا في المعاهد الدينية المحافظة، في القرويين وابن يوسف؛ نقول المحافظة، لأنها رغم النظام البسيط الذي أدخل على الدراسة، فقد ظلت على ما كانت عليه من الجمود والركود مستمسكة بمذهبها، لأن هذا الإصلاح لم يتناولها في صميمها، في أساليب الدرس والتدريس والبرامج والمقررات، وإنما تناولها في شكلياته وظواهره، مما جعلها لا تؤدي رسالتها كما يجب متمشية مع روح العصر"[1].

ومن هذا المقال، نلاحظ وكأن الجراري الشاب، يقوم بتأريخ للأدب المغربي، الذي بدأ متعثرا قبل الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ليتطور ويزدهر في العصرين الموحدي والمريني، ويعود للانكماش في العهد الوطاسي، ثم ينفرج في العهد السعدي وبداية العلوي، ليتراجع من جديد مع عهد الحماية وبسبب مجموعة من العلماء الذين اهتموا بالجوانب الدينية واللغوية على حساب الأدب وفنونه، ليحاول الانطلاق مع صدور الظهير البربري، والذي ساعد في تلك الانطلاقة ظهور الصحافة وتطورها، من خلال مجموعة من الجرائد والصحف والمجلات التي كانت تعمل على نشر إنتاجات مجموعة من الأدباء الوطنيين، سواء خفية أو علانية، كـ"جريدة السعادة" ومجلة "المغرب" و"السلام" و"المغرب الجديد" وغيرها من المجلات، التي كانت عاملا كبير الأثر في تنوير الأفكار، والتي نمت وتبلورت آخر

1. طفولة قلم، ص195-196.

الأمر في "رسالة المغرب"، "التي كانت في الحق مجلة ممتازة تتناسب وما آلت إليه اليقظة عامة في هذه الفترة"[1].

ولا يكتفي الجراري بهذا الجرد لتاريخ الأدب المغربي، وعوامل ركوده في عهد الحماية، بل نجده ينتقد المخطط الاستعماري الذي عمل على إحياء اللهجات المحلية محاربة منه للغة العربية، وإقامة مجموعة من المحاضرات في فنون العلم والأدب يشارك فيها بعض المستعربين الذين، بالإضافة إلى ذلك، كانوا يعملون على تأليف الكتب حول المغرب وتحقيق مخطوطات ونشرها، ولكن معظم ما قاموا به، إن لم نقل كله، كان يهدف إلى تشويه الحقائق وتزييفها قصد الحط من قيمة تاريخ هذه الأمة وأدبها خدمة للمصالح الاستعمارية"[2].

فهذه شهادة حية ممن عاصر المرحلة، من شاب وطني شهد نضال والده ومعاصريه من أجل نيل الحرية وتحقيق الكرامة، فارتوى من ينابيع الوطنية الصادقة، وكافح من أجل الرفع من مستوى بلده، لذلك ساهم بقلمه وفكره من أجل النهوض بمشروع علمي وثقافي ضخم جند له كل طاقاته، وعلى رأس هذا المشروع الاهتمام بالأدب المغربي تدريسا وإشرافا، بل والكفاح من أجل إدراجه كمادة أساسية داخل الجامعة المغربية، إلى جانب المواد الأخرى التي كانت ضمن المنهج التعليمي، يقول: "أما المواد التي كنت مكلفا بها، فهي الأدب العربي الإسلامي، والترجمة والمناهج والأدب المغربي الذي حاولت إدخاله للمقرر بمعاناة شديدة مع عمادة الكلية بالرباط، ولاسيما بعد أن ارتأيت اعتباره مادة أساسية تدرس في ثلاث سنوات بدءا من الثانية حتى الرابعة، وكنت قبل إحداث نظام السنوات ألقي دروسا في الأدب المغربي على طلبة (شهادة فقه اللغة)"[3].

إلا أن هذا الكفاح لم يذهب سدى، بل أصبح من خلاله عميدا للأدب المغربي، تخرج على يديه مئات الطلبة والباحثين الذين اتخذوا من هذا الأدب

---

1. طفولة قلم، ص196.
2. نفسه، ص198.
3. رحيق العمر، د.عباس الجراري، ص120-121.

مادة لدراساتهم وأبحاثهم، فأشرف على المئات من بحوث الإجازة، ثم بحوث الدراسات المعمقة فأطاريح الدراسات العليا ودكتوراه الدولة، دون أن ننسى كثرة مؤلفاته حول هذا الأدب، قديمه وحديثه، بدءا بما حبره من مقالات في أيام شبابه على صفحات كتابه "طفولة قلم"، كانت عبارة عن بحوث قدمها أثناء دراسته في بلاد الكنانة، ومن ذلك مقاله المعنون "ابن حبوس: شاعر الخلافة المهدية"، الذي قال عنه: "هذه صفحة من صفحات الأدب المغربي الضائعة، حاولت إخراجها بعد كثير من المشقة والعناء"[1].

من هذه الكلمات، تبدو الصعوبة التي كان يعانيها المهتمون بالأدب المغربي القديم والبحث عن أعلامه المغمورين، وهنا نجده بضيف: "الحديث عن تاريخ الأدب العربي عامة معقد وصعب، وهو عن تاريخ الأدب المغربي خاصة أشد تعقيدا وأكثر صعوبة، بل يحس الباحث في صفحاته شعورين يكادان أن يكونا متناقضين، فأما الأول، فعُسر الدرس وضناؤه، وأما الثاني، فمتعته ولذته؛ هو مضن عسير لما يسودُ هذه الصفحات من غموض، نتج عن عدم اعتناء السلف بالتاريخ، وعده من قبل الخرافة، وعن إهمال الخلف لما بقي من تراث يندب حظه على رفوف المكتبات لا يزيده الإعراض غير نقص من قيمة نفائسه وذخائره، ثم هو ممتع لذيذ لما يساور دارسه من غبطة في النفس ورضا في الضمير، لاشك أنهما يخالجان كل من يكشف مجهولا أو يصل إلى شيء جديد يضيفه إلى ما وقف عنده الفكر الإنساني في مختلف فروعه"[2].

هذه الغبطة والسرور الذي أحس بهما الجراري، وهو ينفض الغبار عن علم من أعلام الشعر الموحدي، بعد معاناة وكَدٍّ وجد، استحق أن يحصل من خلاله على تشجيع وإعجاب أستاذه "يوسف خليف" الذي كتب في تقييمه للعمل: "بحث

---

1. طفولة قلم، الهامش 1، ص245.
2. نفسه، ص245.

ممتاز: أعجبتني منه سلامة منهجه، ودقة أفكاره، والجهد الضخم الذي يبدو في أثنائه، وهو بحث يستحق التهنئة. مايو 1960"[1].

هذه العبارات تظهر العمق في التحليل والجدية في البحث عن عَلم كان مغمورا، ضاع أكثر شعره، يقول: "وإنه لمن المؤسف حقا أن نجهل الكثير عن هذا الشاعر الكبير، الذي ذهب ضحية الإهمال، فضاعت كل تفاصيل حياته وما صاحبها من شعر، وضاعت معها أكثر الكتب، التي تناولت أخباره وأدبه بالبسط والتحليل"[2]، وهذه إشارة واضحة إلى ضياع، ليس فقط شعر ابن حبوس، بل الكثير من الإنتاجات الأدبية التي يمكن أن تقدم صورة واضحة عن هذا الأدب، لذلك وجدنا عميد الأدب المغربي، يأخذ على عاتقه خدمة هذا الجانب، من خلال مجموعة من المؤلفات، منها ما اهتم بشعراء بعينهم، ومنها ما اهتم بقضايا الأدب، ففي الجانب الأول، يطالعنا كتاب: "الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي: عصره، حياته وشعره"، والذي يبدو من خلال تقديم الدكتور عباس الجراري له، أنه رسالة جامعية تقدم بها الطالب الباحث لنيل شهادة الماجستير من كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة 1965، والملاحظ، أنه كتاب يهتم بجزء من الأدب المغربي الذي ظل المشارقة لفترة طويلة يرددون بأنه "بضاعتهم ردت إليهم"، فهو بذلك يريد أن يثبت، وفي بلاد مشرقية، خصوصية المغاربة في المجال الأدبي والشعري منه بوجه خاص، وإن كان البحث عن شعر الفترة الموحدية والفترات التي تليها ليس بالأمر الهين، بسبب عدم اهتمام المصادر المختلفة به.

وهو بهذا الكتاب نفض الغبار عن حقبة زمنية بأكملها وبكل ملابساتها، حقبة عرفت انهيار الدولة المرابطية وظهور الموحدية بعدها، متوسلا في دراسته تلك بالمنهجين التاريخي والاجتماعي الذي يربط الأدب بمسبباته وبمحيطه الخارجي، والمنهج النفسي الذي يدرس مدى انعكاس نفسية الأديب على إنتاجه، دون أن يغيب الحس النقدي عند الرجل، إذ نجده يقول: "وقد تسنى لي بما جمعت من

---

1. طفولة قلم، الهامش 1، ص245.
2. نفسه، ص248.

أخبار عن أبي الربيع أن أفحص هذه الأخبار وأحللها وأنقدها وأستنتج منها ما يمكن استنتاجه وأفسرها مما يجعلني أنفذ إلى أعماق حياة الرجل، بالتفسير النفسي آنا والتفسير الاجتماعي والتاريخي آنا آخرى، سعيا إلى سد ما بين الأخبار من ثغرات، وبالتالي إلى تكميل ملامح صورة هذه الحياة،.. كما حاولت أن أنتهي إلى أن شعر العصر وأدبه عامة لم يكن منحطا ولا دائرا فقط في فلك المذهبية الموحدية كما ظل الباحثون أمدا طويلا يظنون»[1].

والملاحظ أن قضية المنهج كانت من بين الموضوعات التي شغلت بال الناقد عباس الجراري منذ كتابه طفولة قلم، في مقال نشره بجريدة العلم بتاريخ 23 مارس سنة 1958، تحت عنوان في الأدب وتاريخه، فتحدث عن رواد المنهج التاريخي، خاصة عند "سانت بوف"، الناقد الفرنسي "الذي يرى أن تدرس شخصيات الأدباء، ويستخلص لها حسب خصائص خصائصها قوانين كالقوانين العلمية، توضع على ضوئها أسر النبات وفصائله»[2]، ومواطنه "هيبوليت تين"، الذي "أخضع دراسة الأدب وفنونه لعوامل الجنس والزمان والمكان، معتمدة على دراسة الوسط الذي عاش فيه الأديب»[3]، إلى أن يظهر علم النفس وتتطور نظرياته، فيخضع الأدب لقوانين هذا العلم، "لا لقوانين علم الطبيعة، إذ تعنى الدراسات الأدبية بمعرفة شخصيات الكُتَّاب»[4]، إلا أنه، ورغم وجاهة النظريات المقترحة، دعا إلى الاستفادة من كل العلوم لأنها تخدم بعضها بعضا.

بل نجد أن البحث في المنهج لم يقف بالأستاذ الجراري عند هذا الحد، بل نجده يفرد كتابا خاصا لهذه القضية عنونه "خطاب المنهج"، وذلك لما للمناهج من أهمية في دراسة الأعمال الأدبية المختلفة، يقول في هذا الكتاب: "ولقد شاع أن المنهج مجرد وسيلة للبحث عن المعرفة وفحصها، أي مجرد خطة مضبوطة بمقاييس وقواعد وطرق تساعد على الوصول إلى الحقيقة، وتقديم الدليل عليها، هذه مجرد

---

1. الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، 1984، ص6.
2. طفولة قلم، ص139-140.
3. نفسه، 140.
4. نفسه.

أدوات إجرائية، وهي في نظرنا لا تمثل إلا جانبا واحدا من المنهج أقترح تسميته بالجانب المرئي في المنهج"، لذلك يجب النظر إلى المنهج "لا باعتباره مجرد أسلوب أو وسيلة تضبطها خطة وقواعد تنير السير في طريق البحث عن الحقيقة وتساعد على الوصول إلى نتائج معينة، ولكن باعتباره منظومة متكاملة تبدأ بالوعي والرؤيا المشكلتين لروح المنهج وكنهه اللامرئي، وتنتهي بالعناصر اللازمة لتحقيق تلك الرؤيا وذلك الوعي من خلال الكشف والفحص والدرس والتحليل والبرهنة للإثبات أو النفي"[1].

من خلال هذه الإشارات، يتضح أن الأستاذ الجراري كان أديبا وناقدا، يمتلك الأدوات اللازمة من أجل هذه العملية النقدية، هذه الأدوات المتمثلة في موسوعيته الثقافية، التي تخص الشعر، قديمه وحديثه؛ والذي وجدنا له فيه مؤلفات كثيرة، منها "صفحات دراسية من القديم والحديث"، و"الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه"، و"مع المعاصرين: أسماء وآثار في الذاكرة والقلب" في ثلاثة أجزاء، وتوج هذه الأعمال بكتاب "تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب من **1830** إلى **1990**"، كما تخص النقد والبلاغة؛ ففي مقاله السابق حول شعر ابن حبوس، لم يكتف بالدراسة والتحليل، بل أورد مجموعة من الآراء النقدية اتجاه بعض المعاصرين الذين تناولوا شعر الشاعر تناولا سطحيا، يقول: "وتحدث عنه من المعاصرين الأستاذ بيرس في مجلة هسبريس من غير أن يعتمد على درس أو تحليل، كما كتب عنه الأستاذ محمد الفاسي مقالا قصيرا في مجلة الثقافة المغربية، يعتبر جمعا موجزا لما ورد في الكتب السابقة لا دقة فيه ولا عمق"[2].

فمن هذه الكلمات نلمس كثرة الاطلاع على الأعمال السابقة، إضافة إلى تحري الدقة، والروح النقدي الذي تميز به وأظهره في الكثير من المقالات المتناولة في الكتاب، ومن ذلك ما قاله عن الشابي وهو يحاول أن يجعله متأثرا بأبي العلاء المعري والمدرسة الرومانسية أكثر من تأثره بالمهجريين، كما ذهب إلى ذلك بعض

---

1. د.عباس الجراري: خطاب المنهج/ منشورات النادي الجراري/ ط2/ 1995/ ص40-41.

2. نفسه، ص149.

الدارسين للشابي وخاصة مواطنوه، يقول: "ولكن أغلبهم لم يحاولوا تفصيل القول أو إثباته، وإنما هم أطلقوا أحكامهم في كلام عام يظهر واضحا فيه التحمس لأدباء المهاجر، بالرغم من أن مشكلة التأثر هذه تكاد تعتبر في عداد المسائل النفسية التي لا ينبغي للباحث أن يقطع بحكم فيها ما لم تتوفر له الدلائل الكافية والمستندات اللازمة"[1]؛ هذه المستندات التي يعمل هو على تقديمها من خلال قوله: "والحقيقة، أننا حين نتحدث عن جانب الألم والحزن عند الشابي، لا ينبغي أن نرد كل تأثر إلى شعراء المهجر، سواء منهم فوزي أو جبران، فالشاعر كما لاحظ دارسوه، كان شغوفا بقراءة المعري ولزومياته بصفة خاصة؛ مما غذى، لاشك، نفسه الكئيبة ووجدانه المتوجع؛ بل ربما كان تأثره بأبي العلاء سابقا لتأثره بالمهجريين لاحتمال تعرفه عليه قبل أن يتعرف عليهم، كذلك لا نريد أن نغفل تأثر الشابي في هذا اللحن بشعراء طليعة المدرسة الرومانتيكية في مصر، أمثال عبد الرحمن شكري، الذي ملأت شعره نغمات حزينة، كانت عصارة عنائه النفسي وشؤمه من الحياة والأحياء، وخليل مطران الذي لم يكن شعره في حالة مرضه يئن بغير الشكوى من الحياة والحنق عليها"[2].

أما في الجانب البلاغي والنقدي، ففي مقاله المعنون "النقد الأدبي عند العرب: نشأته- تطوره- تحوله إلى بلاغة"، وبعد أن قدم عرضا تاريخيا عن نشأة النقد العربي منذ الجاهلية إلى القرن الثامن الهجري، ومتحدثا عن التأثير الذي مارسه الأوائل فيمن جاء بعدهم، نجده بين الفينة والأخرى يصدر بعض الآراء النقدية الجريئة والتي تنم عن تمكنه من الجانبين النقدي والبلاغي عند أعلامه، وعن موسوعيته الثقافية، وقدرته على التمحيص والتدقيق، ليتمكن من إصدار أحكام وجيهة، فيقول عن كتاب ابن رشيق القيرواني "العمدة": "وهو ليس بحثا جديدا، وإنما هو نظرات جزئية ملخصة من ملاحظات الذين سبقوه، ولعل سبب جمود النقد راجع إلى فساد الذوق وعدم ظهور أساليب وأنماط جديدة في الشعر

---

1. طفولة قلم، 267.
2. نفسه، ص266.

تجعل النقاد يلاحظون ويدرسون»[1]، ليصل في الأخير إلى التمييز بين النقد والبلاغة، فالنقد عنده هو ما "يتناول الأثر الأدبي في مجموعه، أي أنه ينظر في الأفكار والتعبير، أو ما نسميه المادة والأسلوب، ثم يلاحظ الصلة بينه وبين صاحبه وظروفه النفسية والاجتماعية والسياسية، أما البلاغة، فتترك المادة للأديب، وتتناول العبارة أو الأسلوب، للحكم المباشر على الأثر الأدبي»[2].

عباس الجراري الخطيب

إذا كانت الخطبة من أهم الموضوعات التي نالت قسطا كبيرا من اهتمام الدكتور عباس الجراري، والتي جعلها من متممات مشروعه العلمي الضخم، بحيث لم يبق منحصرا في إطار البحث الأكاديمي والتدريس في الجامعة وتخريج أفواج من الطلبة والباحثين المهتمين بالأدب المغربي خاصة، وإنما اتسع ليشمل الفكر الديني الإسلامي من منظور حداثي، هدفه الإصلاح الشامل الذي يؤدي إلى النهضة، يقول: "فمع الخطبة وانفتاحي على عوامل أخرى تبدو بعيدة عن المهام الجامعية وما إليها مما كنت أنهض به في الساحة الثقافية، وفي إطار تخصص اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي، كنت أشعر بمشروعي ينمو ويتسع ليشمل آفاق تراث المغرب وإبداعه في مختلف أنماطه ومجالاته، وكيفية تحديثه وتبليغه للجماهير العريضة – مع احترام لها وتقدير كبيرين- وفق منظور قائم على منهج يتجاوز – قدر الإمكان- مجرد الوعظ والإرشاد إلى معرفة حقيقة وجود المغرب ومكانته وأهمية دوره، انطلاقا من هويته الإسلامية بجميع ثوابتها ومكوناتها، والتعريف بهذه الحقيقة، مما وصلت به في الجامعة إلى تكوين أجيال من الباحثين والدارسين»[3].

وفي هذا الكلام إشارة، دائما، إلى الحس الوطني الذي تمتع به أستاذنا الجليل، لأن هدفه من وراء هذا المشروع هو النهوض بالمجتمع المغربي في مختلف

---

1. طفولة قلم ، ص222.
2. نفسه.
3. رحيق العمر، (م.س)، ص11-12.

المجالات والأصعدة، ولا يمكن النهوض دون الدعوة إلى الإصلاح، هذه الدعوة التي لم تكن جديدة عنده، بل بدأها منذ كان تلميذا في ثانوية مولاي يوسف بالرباط، ويضيف: "ولا أخفي أني كنت مقتنعا بمقتضيات المشروع ومتطلباته، بل كنت متطلعا إليه، منذ مراحل تعليمي الأولى، وبحكم نشأتي"[1]، هذه النشأة التي كان لوالده اليد الطولى فيها، إذ نجده ينهل من حياض وطنيته، فعبد الله الجراري، وهو المعاصر لعهد الحماية وما رافقه من ظلم واستبداد، كانت له مواقف صارمة "في وجه إدارة الحماية، وهي مواقف بدأت منذ عام 1930م حين تصدى للظهير البربري الذي كان خطيبه وسجينه... "[2]، بل تعرض للإعفاء من مهامه بسبب مواقفه تلك وبعد نفي المغفور له محمد الخامس طيب الله تراه يوم 20 غشت 1953م.

لذلك، وسيرا على خطى الوالد، وجدنا للدكتور عباس الجراري مجموعة من الخطب التي وجهها لجيله، وقتئذ، من الطلبة والشباب، على اعتبار أن الشباب هم جيل المستقبل، ففي أول خطبة، حسب ما هو وارد في "طفولة قلم"، كانت حول "الشورى والتشاور" التي ألقاها بتاريخ 25 نونبر 1955، والثانية بعنوان "أبناء اليوم... رجال الغد" التي ألقاها في ندوة أقامها طلاب مدارس محمد الخامس بتاريخ 9 يناير 1956، دعا من خلالها إلى التمسك بالأخلاق الحميدة التي هي "أساس السعادة وينبوع العزة والكرامة"[3]، هذه الكرامة التي لن تتحقق إلا "بالبحث والتمحيص والكشف عن دقائق المسائل وغامض المشاكل والجد في الدرس والتنقيب عن الخفايا وكل ما يعسُر عن الحل، مع الوقوف على نصائح المهذبين والمعلمين، والاسترشاد بتوجيهاتهم القيمة في احترام وتوقير حتى يكونوا خير عون على تقدمنا وإنشاء مستقبلنا"[4].

---

1. رحيق العمر، ص12.
2. كلمات تقديم، د.عباس الجراري، جمع وتقديم حميدة الصائغ الجراري، مطبعة الأمنية، الرباط، ط1، 2006، منشورات النادي الجراري رقم 34، ج1، ص49.
3. طفولة قلم، ص93.
4. نفسه.

وهو يستدعي في هذه الخطب مجموعة من الأبيات الشعرية، والقصص والآيات القرآنية، والحديث النبوي الشريف، والأقوال المأثورة للصحابة والحكماء، بل وبعض المواقف من التاريخ الإسلامي، لأن الهدف كان ساميا، وهو خدمة الوطن، والدعوة إلى الذب عنه بالغالي والنفيس، لذلك وجدناه يقول موظفا تعابير خطابية في مثل قوله: "نعم، هكذا أريد أن تكون حياتنا، إخواني الشباب، هكذا، أتمنى حياة شبيهة بحياة الرسل والأنبياء، حياة ملؤها الشقاء لإسعاد الناس والبشرية، والتعب لإراحة الإنسانية جمعاء: "ما عاش من عاش لنفسه" أو"ما استحق أن يولد، من عاش لنفسه"؛ وفي ضمن هذا الشقاء والتعب سعادتنا وهي السعادة الحق، ومجدنا وهو المجد الصحيح، وعزنا وهو العز الخالد؛ مطامح يحدوها الإيمان القوي ويغذوها صالح العمل"[1].

هذه هي بعض الموضوعات التي شكلت اللبنة الأولى للمشروع الخطابي عند الدكتور عباس الجراري، وهي موضوعات سيعمل على تطويرها في خطبه المنبرية التي تصدى لها بتكليف من صاحب الجلالة المغفور له الحسن الثاني، لما عهده عند أستاذنا من قوة شكيمة وشدة بأس وذكاء أخاذ وملكة تعبيرية عالية وقوة إقناع، فاستطاع من خلالها تنوير العقول ورفع الغشاوة عن العيون بواسطة ما ورد في خطبه المؤثرة التي تنوعت في مضامينها وفي أساليبها؛ ولعل تلك الخطب وما جاء فيها من موضوعات تجمع بين ما هو ديني وما هو فكري وثقافي، وهي التي أوحت لعميد الأدب المغربي، بل لعميد الفكر المغربي إذا جاز التعبير، مجموعة من الموضوعات التي اتخذت من القيم محورا لها، تلك القيم هي أساس النهوض الحضاري للعالم الإسلامي عموما وللمجتمع المغربي بوجه خاص، والتي لا يفصلها عن الدين يقول:

«والحديث عن الدين يقود إلى مسألة القيم التي تعد في المنظور الإسلامي مرتبطة به، إذ يوجه السلوك وفق قواعد تجعل الإنسان يعيش وجوده الاجتماعي بأخلاق معروفة لها دلالاتها على مستوى الأفراد والمجتمعات، ومن المؤكد أن خلف

---

1. طفولة قلم، ص94.

هذه الحقيقة يكمن التعارض الذي يشعر به المسلمون في سلوكهم اليوم، بين تلك القواعد وما غدا، للأسف، شائعا يفرض نفسه على الأجيال، من ممارسات توصف عن حق بأنها لا أخلاقية، أو أنها منافية للشرع وللتقاليد المؤسسة عليه"[1].

هكذا يكون مشروع عباس الجراري مشروعا كبيرا ومتنوعا، بدأه منذ يفاعة سنه، وطوره وسما به في شبابه وكهولته، واهتم فيه بموضوعات معرفية مختلفة، منها ما يتصل بالجانب الأدبي والنقدي، ومنها ما يخص الرحلة، ومنها ما اهتم بالسيرة الذاتية أو الغيرية، ومنها ما تناول الجانب الديني، ومنها ما خص الجانب التربوي التعليمي، وذلك من خلال مجموعة كبيرة من المؤلفات المطبوعة وأخرى مخطوطة، لعلها بصدورها ستضيف الشيء الكثير إلى الفكر الموسوعي لعميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري.

***

1. حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حداثة أصيلة، د. عباس الجراري، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2017، منشورات النادي الجراري رقم 74، ص22.

المراجع المعتمدة:

- عباس الجراري:

- الأمير الشاعر أبو الربيع سليمان الموحدي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط2، 1984.

- بقايا كلام في الثقافة، مطبعة ومكتبة الأمنية، الرباط، ط1، 1999، منشورات النادي الجراري.

- ثلاثون يوما في الولايات المتحدة الأمريكية، إعداد وتقديم مصطفى الجوهري، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2018، منشورات النادي الجراري رقم 80.

- حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حداثة أصيلة، مكتبة دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2017، منشورات النادي الجراري رقم 74.

- خطاب المنهج، منشورات النادي الجراري، ط2، 1995.

- رحيق العمر، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2020، منشورات النادي الجراري رقم 101، ج1، النشأة والمشروع.

- طفولة قلم، جمع وإعداد وتحقيق: دسي محمد أملح، مطابع الرباط نت، ط1، 2020، منشورات النادي الجراري رقم 102.

- كلمات تقديم، جمع وتقديم حميدة الصائغ الجراري، مطبعة الأمنية، الرباط، ط1، 2006، منشورات النادي الجراري رقم 34، ج1.

- عبد الله الجراري: الرحلة السطاتية أو السكيرجية، تحقيق: د.مصطفى الجوهري، تقديم: د.عباس الجراري، مطبعة بني يزناسن- سلا، ط1، 2005، منشورات النادي الجراري رقم 32.

- ندوة عبد الله الجراري، الرحلات المغربية الداخلية: 1912-1956، الحلقة الرابعة، منشورات النادي الجراري رقم 31، مطبعة بني يزناسن، سلا، ط1، 2005.

***

د. خديجة مروازي

- أستاذة جامعية بكلية اللغات والآداب والفنون بجامعة ابن طفيل، القنيطرة.

- أستاذة زائرة بجامعة ميشجن بالولايات المتحدة الأمريكية، من شتنبر 2000 إلى يوليوز 2001.

-عضو بمختبر أرخبيل للبحث في الأشكال الأدبية بكلية الآداب بجامعة ابن طفيل.

- عضو بفريق البحث في التربية واللغات والفنون والوسائط.

- عضو اللجنة العلمية لمجلة دراسات حقوق الإنسان والديمقراطية.

- عضو اللجنة العلمية لمجلة «السجين» تصدرها المندوبية العامة لإدارة السجون وإعادة الإدماج منذ 2018.

- الكاتبة العامة للوسيط من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان من دجنبر 2007 إلى أبريل 2018.

- الكاتبة العامة بمركز دراسات حقوق الإنسان والديمقراطية 2004-2007.

- عضو بالمنظمة المغربية لحقوق الإنسان، 1988-2006.

إصدارات أدبية وبيداغوجية ومساهمات علمية في مجلات وتقارير وطنية ودولية:

- سيرة الرماد، رواية صدرت عن دار النشر افريقيا الشرق 2000.

- قراءة محايثة لقيمة الحرية في الكتاب المدرسي بالمغرب والجزائر وتونس، أوراق عمل خلقية للتقرير الثالث للتنمية الإنسانية العربية لسنة 2004.

- التربية على المواطنة: كتابان موجهان للتلميذ، بالمستوى الخامس والسادس، ضمن مؤلف جماعي «الجديد في الاجتماعيات»، دار النشر المعرفة، 2004 و2005.

- التربية على المواطنة: كتابات موجهان للمدرس، بالمستوى الخامس والسادس ضمن مؤلف جماعي «دليل الأستاذ/الجديد في الاجتماعيات»، دار النشر المعرفة 2004 و2005.

- ورقة بحثية حول «الدولة المدنية في سياق التحولات الجارية، ممكن يتعثر»، بمجلة اوراق فلسطينية، العدد 03، صيف 2013.

- إعداد وتنسيق تقرير حول قيم حقوق الإنسان في الكتاب المدرسي في إطار التقارير الموضوعاتية للمنظمة المغربية لحقوق الإنسان **2004**، صدر في إطار منشورات المنظمة سنة **2018.**

- «الحق في النماء والتعليم» مساهمة علمية ضمن تقرير اليونيسيف لسنة **2007** عن أوضاع أطفال المغرب؛ موجود على الرابط التالي:

http://www.unicef.org/sitan/files/Morocco_SitAn_2007.fr.pdf

- «من أجل التعاقد حول منجز هيئة الإنصاف والمصالحة»، مؤلف صدر في مارس **2009**، إصدارات الوسيط من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان.

- «في التأسيس لمقاربة مدنية لمراقبة السياسات العمومية» مجموعة مساهمات علمية ضمن مؤلف جماعي صدر في أبريل **2018**، يوجد على الرابط التالي:**https://bit.ly/3bRj1AG**

تقديم للإصدارات التالية:

- «منجزنا في مجال الحماية والوساطة والترافع» يوجد على الرابط التالي: **https://bit.ly/34tcnfI**

- «رأينا في تشريعات وقوانين ذات صلة بالمؤسسات الوطنية ومؤسسات الحكامة» يوجد على الرابط التالي: **https://bit.ly/3bSEysC**

- «وضع الحقوق والحريات ودور الفاعلين بمنطقة الصحراء» يوجد على الرابط التالي: **https://bit.ly/2tbOF57**

- «تقديم السياسات العمومية ذات الصلة بالشباب»... يوجد على الرابط التالي: **https://bit.ly/3wyiOuO**

***

الوعي الإستباقي بقضايا الإصلاح وتحدياته في "طفولة قلم"

د. خديجة مروازي

يتضمن مؤلف"طفولة قلم"[1] متنا من المقالات والمساهمات التي شارك بها الأستاذ عباس الجراري في مناسبات مختلفة وخص بها منابر متعددة، وتتأتى أهمية هذا المتن من كون الكتابات المتضمنة فيه تؤطر زمنيا مابين **1954** و**1961**، وفق ما يعرف بالبدايات المؤسسة لمشروع الكتابة، والتي تحيل على سبع سنوات وهي الفترة الموازية بالنسبة لعمر الأستاذ الجراري مابين سن **17** و**24** عاما. وتعكس مجمل تلك الكتابات تنوع المجالات، فمن الأدب بشعره ونثره إلى الثقافة بتنوع مجالاتها مرورا بالوطن وقضاياه، وقد تم تأطيرها ضمن قسمين،الأول منهما يحمل اسم "فجر الكتابة" وهي المساهمات التي تحيل على المرحلة الثانوية- بينما القسم الثاني يحمل اسم " ضحى الكتابة" وهي المساهمات التي تؤطر زمنيا ضمن المرحلة الجامعية. وقد عمل د. س محمد أملح على تجميعها وإعدادها وتقديمها، وهو ما ينبغي النظر إليه إيجابيا من زاويتين وهما:

- التحفيز على التعاطي مع البدايات المؤسسة لمشروع الكتابة عند الكتاب والمفكرين المغاربة، وما يعنيه ذلك من خلق الانشغال عند الباحثين المغاربة بالإرهاصات الأولى للكتابة عند هذا الكاتب أو ذاك وبالامتدادات اللاحقة التي تطبع مع الكتابة كممارسة مستقرة، ومحاولة رصد التحولات الطارئة على مستوى درجة الوعي وشكل ومضمون تلك الكتابات، وهو ما يؤسس لاستقراء حركية المجتمعات عبر رصد حركية الفكر والفاعلين بمختلف مجالاته. وإقامة المقارنات وبلورة الاستنتاجات ذات الصلة.
- التحفيز على تمثل الحاجة إلى حفظ الذاكرة وذلك عبر الانخراط في التوثيق لمنجز وسير الأعلام التي وسمت مجالات الفكر والإبداع والثقافة بالمغرب

[1] "طفولة قلم" جمع وإعداد وتقديم د. سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري، الطبعة الأولى، دجنبر **2020**.

الحديث والمعاصر، وهو التوثيق الذي كلما كان متاحا للقراء والباحثين كلما اتسعت دائرة البحث الأكاديمي والعلمي لتدمج الانشغال بمحطات من حياة ورصيد المفكرين والكتاب، وليساهم ذلك في تقريب الفهم بمسارات الكتابة وبتمثل مستويات تشكل الرؤى والتصورات وصيغ التعبير منذ تخلقها وخلال المراحل اللاحقة لتلك البدايات.

ومن جهة أخرى، تتأتى قيمة مجموع المساهمات المتضمنة في "طفولة قلم" من كونها تؤشر على وعي استباقي بالتحديات التي يُفترض في مغرب ما بعد الاستقلال مجابهتها، وهي تحديات من طبيعة اجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية، وكما قد تعكس تلك المساهمات تصور صاحبها وهو يفرد لهذا الموضوع أو ذاك مداخلة أو مقالا خاصا، فإن بعض الخصائص ستظل حاضرة في مجمل تلك الكتابات، وهي التي تستمد مما يميز كاتبها شخصيا على مستوى الوعي والنضج الفكري رغم حداثة السن، بما يسمح برؤية تلك التحديات وتشخيصها والاقتراح بشكل استباقي لاتجاهات التفكير التي تساهم في صياغة البدائل والحلول. وهو ما يمكن الاستدلال عليه بعينة من المساهمات حول قضايا الإصلاح[1]، وبالنظر إلى المضامين التي شكلت محتويات هذه المساهمات يمكن تسجيل ما يلي:

- الوعي المبكر بالتحديات التي سيجابهها مغرب ما بعد الاستقلال في مسيرة الإصلاح، والتي حاول الأستاذ الجراري في وقت مبكر جدا -يتحدد في بداية الخمسينيات- تشخيصها وحصرها في الفقر والأمية، راصدا مظاهرها وتداعياتها وكيف تكون أساسا محددا وحاسما في مدى إحقاق التقدم أو استدامة التأخر، كما عمل على جرد المقاربات المتاحة والتي تتحدد في مقاربتين، حيث تؤكد الأولى على الاستثمار في التعليم ومجابهة الجهل والأمية عبر تعميم التعليم على الجميع وتيسير النفاذ إليه بالنسبة للأفراد ولجميع الطبقات، واعتباره الضمانة التي تؤسس لنهضة الأمم وتقدم المجتمعات، بينما المقاربة الثانية تؤكد على أولوية التعاطي مع تحديات الفقر والعمل على دعم الفقراء، وقد حاول مناقشة ذلك، وليبسط مقترحه

[1] نظرة حول الإصلاح"، "ستة مقترحات لتقدم الأمة المغربية"، "طفولة قلم" ص **124/123.**

الذي يركب بين الرأيين والمقاربتين حين يجعل من تلازم التعليم والتخفيف من الفقر رهانا أساسيا للوجود ولتحسين شروط الوجود. والكاتب لا يتوقف فقط عند تشخيص الواقع وتحديد معيقات التقدم بل يتجاوزه إلى حث الفاعلين وتحفيزهم على خوض غمار الإصلاح، بالرغم من الصعوبات والعراقيل التي ستواجه عملهم.

▪ الوعي المبكر بمحدودية المقاربة الاحسانية في مقابل الترابط التلقائي بين إقرار العدالة الاجتماعية وحماية الكرامة الإنسانية، وهو ما حاول الكاتب في وقت مبكر (شتنبر1954)، رصده انطلاقا من بسط منظوره السياسي بخصوص القصور الذي يطال المقاربة الإحسانية، حيث يكون أثرها محدودا وغير مستدام، كما أن تقبل الفرد لوضعية المتلقي للإحسان والإبقاء على ذلك يؤدي تلقائيا إلى هدر الكرامة. بما يكرس الإتكالية والانتظارية والارتكان إلى العطالة. وقد عزز رأيه بشأن ذلك بما اقترحه على هذا المستوى، حيث لم يكتف بالكشف عن محدودية المقاربة الإحسانية، بل تجاوز ذلك ليؤسس لرأيه بخصوص ضرورة إقرار العدالة الاجتماعية التي ترتكز على مبدأ الإنصاف وتمكين الجميع من التمتع بالصحة والتعليم والسكن والعيش الكريم، وهو المنظور الذي يجعل الإحسان، حسب منطوق النص، إحسانا بالأعمال والمنشئات والمشاريع[1]، لكون هذه الأخيرة هي السبيل لضمان كرامة الناس، وقد حدد مستلزمات التقدم في بناء اقتصاد وطني والعمل على خلق الثروة وتنمية الإنتاج وتشجيع القطاع الصناعي، ورفع أجور العمال، وبقدر ما حذر من جشع النظام الرأسمالي وما يترتب عنه من اتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء، فقد حذر أيضا من تطرف النهج الاشتراكي، وإذ يذهب في التشخيص إلى أقصاه بشأن الأعطاب الاجتماعية المتصلة بمجالات مقترحاته، فإنه يظل حريصا على الوسطية والاعتدال في بناء الاختيارات الاقتصادية.

▪ الوعي المبكر بأهمية الشورى والتشاور في مسارات البناء الديمقراطي، انطلاقا من محتوى مساهمة ذات صلة بالموضوع[2] حيث عمل الكاتب على

---

[1] "ستة مقترحات لتقدم الأمة المغربية" 1956/9/29، "طفولة قلم"، ص125.

[2] "حول الشورى والتشاور" يحيل تاريخ كتابته على 25 نونبر1955، ص86-91 " طفولة قلم" مرجع سابق.

تضمينها رأيه حول أهمية الشورى والتشاور في تاريخ البشرية، محاولا استدعاء أحداث وحالات وإحالات على تاريخ البشرية والتاريخ الإسلامي وعلى الواقع. مذكرا بما للشورى والتشاور من فوائد، حيث تكون نتائجهما ملموسة باعتبارها السبيل لاستبعاد الاستبداد. كما يشدد على العاملين بهذا النهج بالحرص على استدامة إشراك الأخر وتقصي رأيه بخصوص ما يتم التشاور بشأنه، لكون الحرص على ذلك من صميم المصلحة العامة التي تقتضي باستمرار مضاعفة اليقظة، لأن الأمر يتعلق بمصائر الناس وبالشأن العام. وهو يبسط رأيه على هذا المستوى يشير أيضا إلى تلازم التشاور بمباشرة العمل، حيث لا ينبغي استنفاذ مسارات التشاور والركون إلى التأجيل والتباطؤ، بل إن إعمال آليات التشاور تفترض الانتقال بسرعة إلى تنفيذ ما تم التشاور بشأنه. وبناء عليه يكون الوعي بأهمية التشاور والتشديد على نهجه خيارا موفقا بالنظر لزمن وسياق القول، باعتباره سياقا موازيا للحظة استقلال المغرب، والاستباق للفت الانتباه لأهمية الشورى والتشاور في وقت مبكر، وبما يعنيه ذلك من تعزيز للآليات الديمقراطية في مرحلة تاريخية مماثلة.

وانطلاقا من المضامين أعلاه، والتي تؤطر كمنجز تأسيسي للكتابة عند الأستاذ الجراري، والتي يحيل مجملها على بداية الخمسينيات من القرن الماضي، وهي المساهمات التي تندرج ضمن القسم الأول الخاص بفجر الكتابة في علاقة بالمرحلة الثانوية، وبالنظر لما عبر عنه الكاتب من مواقف وأراء في أول شبابه، ومن توصيف وتشخيص للأوضاع وللتحديات، يمكن للقارئ اليوم أن يستنتج قيمة ذلك الوعي الإستباقي بالتحديات التي يطرحها التأخر في تعميم التعليم، وما يمكن أن ينتج عنه من تداعيات تعطل مسار التقدم بالمغرب، وهو الوعي الاستباقي نفسه الذي جعله يربط بين ضرورة تعميم التعليم على الجميع ومحاربة الفقر، بما يؤسس للعدالة الاجتماعية التي تنهض على مبدأ الإنصاف وحفظ الكرامة والمساواة بين الجميع، ومن جهة أخرى يبدو التأكيد على الشورى والتشاور بما يعنيه من تعزيز لآليات الحوار واستقصاء الرأي في علاقة بالمصلحة العامة، مؤشرا إضافيا على الوعي الإستباقي بتلازم القضايا الاجتماعية بقضايا

الديمقراطية التشاركية بما يعزز التعدد والتنوع المتاح سياسيا وثقافيا. وتتأتى قيمة هذه الكتابات اليوم بالنظر لحداثة سن كاتبها وهو يساهم بها مع بداية الخمسينيات، من كونها تعكس انشغالات جيل الشباب على مستوى الانتماء الوطني وصيغ تصريفه ضمن التزامات تجعل من أحد هؤلاء الشباب وهو الأستاذ عباس الجراري ومند سبعة عقود فاعلا حيويا في التعاطي مع قضايا الشأن العام اجتماعيا وثقافيا وسياسيا، كما تتأتى قيمتها بشكل مضاعف من خلال مستوى التوقع بالنظر لمدى راهنية ما تتضمنه تلك المساهمات مقارنة بما يجري اليوم، فقضايا التعليم ومعضلاته وسجلات العدالة الاجتماعية وسؤال الديمقراطية جميعها ما تزال تحدياتها قائمة في الحاضر بما يؤدي إلى إدغام زمن الكتابة بالأمس البعيد في زمن القراءة اليوم.

***

د. بديعة لفضايلي

- أستاذة باحثة، القنيطرة.
- أستاذة عرضية بشعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.
- رئيسة الجمعية الوطنية لخدمة اللغة العربية (فرع القنيطرة).
- عضو في النادي الجراري بالرباط.
- عضو في « منتدى الغرب للتنمية » بالقنيطرة.
- عضو في « مختبر الديداكتيك واللغات والوسائط والدراماتورجيا»، جامعة ابن طفيل.
- مدربة معتمدة في التنمية الذاتية من المركز الأمريكي الكندي للتنمية البشرية.
- شاركت في العديد من الندوات العلمية، منها:

1- المرأة وشعر الملحون: ألق التوهج وعبق الإلهام، ندوة (المرأة والتنمية بين الماضي والحاضر)، كلية الآداب، القنيطرة، **2008.**

2- النص الأدبي بين السيرة الذاتية والتوثيق التاريخي (يومان دراسيان)، كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، **2008.**

3- لماذا نحتفي بالشعر ؟ ضمن فعاليات ربيع الشعر، كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، (مختبر ديداكتيك اللغات والترجمة والتقنيات الجديدة للمعلومات والاتصال والثقافة)، **2011.**

4- « القريض الصوفي بين سحر الأقنعة والسنن المفقود» ندوة « التصوف بين وهج التصوف وألق الإبداع»، تنظيم الجمعية المغربية لخدمة اللغة العربية، فرع القنيطرة، **2019.**

من أعمالها المنشورة:

أ- الكتب: - شعر المنافي والسجون في الأدب المغربي ما بين **1912-1956**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، **2008.**

- رحلة « نسيم البوسفور» عباس الجراري، إعداد ودراسة، منشورات النادي الجراري، رقم: 85، الرباط، 2020. صدرت هذه الرحلة ضمن برنامج تخليد الذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراري (1930-2020).

ب- ضمن كتاب جماعي: حضورك معنا قمة الترف، ضمن (الأدب المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب، أبحاث وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور محمد احميدة، منشورات كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، 2014.

- صبوة العشق ووهج الصبابة في غزل العباس بالحبيبة المهابة، ضمن (عباس الجراري شاعراً)، منشورات النادي الجراري رقم: 79، الرباط، 2018.

- تشظي الجنس الأدبي وتمثلات الآخر في الرحلات العباسية إلى تركيا والولايات المتحدة الأمريكية، ضمن (الأدب المغربي الحديث والمعاصر: أسئلة وقضايا)، كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، منشورات النادي الجراري، رقم 93، تخليداً للذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراري (1930-2020)، الرباط، 2020.

***

الصبابة المغربية في التحبيرات الجرارية لبواكيره الأدبية

د. بديعة لفضايلي

في حكايات العشاق ومرويات المتيمين، كان ثمة أبدا حديث عن ذلك الهوى الذي ساور أفئدتهم وهم في غضاضة نضرة، فعلق بمهجهم واستوثق حتى ملك مغاليقها وما برحها قط ولا منه استطاعت فكاكا، فقديما قال جميل بن معمر العذري :

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل إلى اليوم ينمي حبها ويزيد[1]

ولأن ذلك الحب يكون أول رام يمرق سهمه إلى الخافق،فيذكي شغفه، ويفتض بكارة سكينته المعتقة، حين يشيد به ممالك العشق المضنية، فإنه يظل به مولها وبذكره مدنفا، يقول أبو تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول[2]

في كتاب **"طفولة قلم"**الذي حوى بواكير التحبيرات الأدبية التي دبجها الدكتور عباس الجراري، حين طاوعه يراع الإبداع وأذعن له صاغرا يم الكتابة فأبحر فيه تحذوه ريح المعرفة رخاء وهو في يفاعة بادية، يبدو الحب للأدب والتاريخ المغربين غامرا، والولع بهما سافرا، إذ من اليسير أن نتبين كيف انسرب هذا الهوى إلى فؤاد كاتبنا وهو لما يزل طري العود غضا، فأينع وأورق وأزهر وطرح رطبا جنيا، لذلك نراه في سيرته الذاتية **"رحيق العمر"** وهو في سبيل استعراض مراحل تشكل مشروعه المعرفي في النهوض بالأدب المغربي، يذكر هذا النزوع الذي أسره منذ أوان الطفولة النضر يقول:**"ولا أخفي أني كنت مقتنعا بمقتضيات**

---

[1]ـ الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر، دار المعارف، سنة **1982**، ص**:434.**

[2]ـ ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، الطبعة الثالثة، د ت، ج**:4**، ص**:303.**

المشروع ومتطلباته، بل كنت متطلعا إليه منذ مراحل تعليمي الأولى وبحكم نشأتي".[1]

ليس يخفى أن نشأة الكاتب في بيت علم متين العماد، منحه هبة النهل من معين أمهات الكتب، وحذا به لأن يعب من ينبوع المعارف الثـر، سيما أنه كان يتلقى فضلا عن الدروس النظامية حصصا يومية ذات فضل على يد والده العلامة عبد الله الجراري، الذي حثه على القيام ببعض الأنشطة **"كالمطالعة ومساعدته في تسجيل الكتب وترتيبها في المكتبة، ونسخ بعض مؤلفاته وحضور حلقات دروسه بالمساجد وكذا... المشاركة في جموعه ومجالسه التي كان يحث على حضورها، والمساهمة في مذاكراتها ومناقشاتها، مع الانضباط وحسن الإنصات والاستيعاب، وما إلى ذلك مما عد تكوينا مستمرا أبقى على خيط الأصالة الحق."[2]**وحري ألا يغرب عن بالنا أن الكاتب كان يحضر مجالس النادي الجراري ذات الفوائد، والتي غدت موائدها غناء بالمساجلات والمناظرات، والمطارحات والمناقشات، والمجادلات والأشعار التي علت دلالاتها مسحة مغربية ذات جلاء، حيث **"كان النادي الجراري ملتقى لرجال العلم والأدب والوطنية، من الرباط وسلا والوافدين عليهما، سواء من بقية مدن المغرب أو الخارج...أما موضوعات المذاكرة والمناقشة فمتنوعة تنوع ما يطرحه الحاضرون من أسئلة على صاحب النادي، أو يثيرون من قضايا علمية وأدبية،"[3]**ولا غرو أن هذا المحفل سما وتميز لأنه**"أنتج أدبا وأنتج شعرا نابعا من هذا الجو. "[4]** ولعل ذلك عينه هو ما ساهم إلى حد بعيد في تشكل معرفة واسعة لدى الكاتب بتاريخ وأدب المغرب كليهما.

---

[1]ـ رحيق العمر، موجز سيرتي الذاتية، عباس الجراري، منشورات النادي الجراري رقم **101**، الطبعة الأولى: **2020**، ص:**12.**

[2]ـ رحيق العمر، ص: **77.**

[3]ـ كتاب المجالس الأدبية، عبد الله بن العباس الجراري، تقديم وتحقيق :عائشة نوابر، تصدير ومراجعة : مصطفى الجوهري، منشورات النادي الجراري، رقم :**96**، ص:**31ـ 32.**

[4]ـ ظاهرة الأندية الأدبية في المغرب، منشورات النادي الجراري، **1998** ص: **16.**

لذلك سيطالعنا أديبنا في أكتوبر من سنة **1953**، وهو يسعى إلى الانتقال من مرمى التلقي إلى سبيل المحاولات الأولى للإبداع، بمقالته الموسومة ب **"السفر ظفر"**،[1] والتي نشرها بمجلة **"هنا كل شيء"**وكتبها وهو عليل طريح فراش، ونعاينه بعد أن عرف السفر واستعرض فوائد ه ومزاياه وأقوال الأسلاف حوله، وما له من تأثير على شخص المسافر، من حيث ملء زوادته بتبر المعارف، فضلا عما يتيحه له من مد جسور التواصل وسبل التعارف مع الآخر، نلفه بعد أن استشهد بآية قرآنية وحديث نبوي وبضع أبيات من الشعر، يورد قصة من التاريخ المغربي في العصر الموحدي، عن الخليفة عبد المومن بن علي الكومي، ليدلل على ما للسفر من مزايا وما فيه من عبر، قائلا:**"وهذا عبد المومن الكومي كان قد خرج من بلاده طالب علم لا يملك شيئا وبينما هو في طريقه، إذ لقي المهدي بن تومرت، فأطلعه على هدفه، وسرعان ما أصحبه معه إلى المغرب، واتخذه صديقا وتلميذا وشريكا. ولم تلبث أن تحققت مرامي المهدي في الجلوس على عرش المغرب. وبعد مدة التحق بربه،كان الخلف الرشيد هو هذا الطالب الغريب ,وذات يوم خرج لتفقد أحوال المغرب، متوجها لناحيته الشرقية بجيوشه الجرارة، وعندما قطع وادي "أبي رقراق"، توضأ وصلى ركعتين شكرا لله على نعمة الملك والخلافة، إذ تذكر كيف قطع الوادي المذكور وهو في رفقة المهدي عند رجوع هذا الأخير من الشرق واتجاهه إلى مراكش. وفي رحلة عبد المومن هذه، بلغ وطنه ومسقط رأسه "كومية " وماهي إلا عجوز علمت بـه فاقتربت من ركابه وهي تقول:"هكذا يعود الغريب إلى بلاده"،"**[2]، ولاجرم أن تضمين هذه الحكاية المغربية ذات الدلالة في نصه يدل على إحاطته بما كتب عن تاريخ بلده، ويوضح تباهيه بذلك التاريخ والسعي إلى التمثل به في ذلك الأوان المتقدم.

---

[1]ـ نشرها بمجلة "هنا كل شيء"، العدد **31**، بتاريخ **:31** أكتوبر **1954**م.

[2]ـ طفولة قلم، عباس الجراري، جمع وإعداد ودراسة **:د.** سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري رقم **: 102**، الطبعة الأولى **:** دجنبر **2020**ص**: 46.**

وما عتم أن أعقبها بثانية حول **"جامعة القرويين،"**[1] وفيها يبدو زهوه بما شيده الأجداد جليا، لذلك وبعد أن استعرض تاريخ تأسيس هذه المعلمة من طرف السيدة فاطمة الفهرية، أجلى بحدق سبل التعليم التي كانت منتهجة بها، وعرج على ذكر زمرة من جهابذة العلماء المغاربة الذين كانوا يتولون التدريس فيها يقول **: "لم يكن يقوم بتدريس هذه العلوم رجال جامدون ولكن جهابذة عارفون، ممن ذاع صيتهم في أرجاء العالم، ناهيك بالحيسوبي الكبير صاحب الأرجوزة في الجبر والمقابلة عبد الله بن الحجاج، والإمام ابن البنا الذي ضرب في الهندسة الفلاحية والعلوم الفلكية بسهوم صائبة،...والطبيب الكبير والشراح الخطير أبي الحسن بن عبد الواحد... وإن ننس لا ننس مخترع كرة الدوائر الفلكية الشيخ الحكيم محمدا بن سليمان، ورسام الخرائط الجغرافية والفلكية الشيخ عبد الرحمن الفاسي."**[2]

ولم يفته وهو ماض في الحديث عن مكرمات هذه الجامعة أن يحيد بنا لذكر**"الخزانة البوعنانية"**وهي من **"آثار أبي عنان المريني، الذي أسسها سنة خمسين وسبعمائة...وأودعها مختلف الكتب العلمية وأنواع المجلدات القيمة في كل الفنون...على أنه لما كان لهذا الملك من الاهتمام بالتأسيس وإنشاء المدارس،كانت من جملة آثاره بفاس، مدرسة تعرف باسمه "البوعنانية " وهي لسكنى الطلبة، "**[3] **مما** يوحي بسعة اطلاعه وهو في هذه السن ومدى قدرته على استحضار التاريخ المغربي وإصراره على تمثله في كل ما عنه يكتب.

وفي حماسة متقدة نلفه يتباهى بكون جامعة القرويين التي تأسست سنة **859**م، تعد أقدم من جامعات أوروبا التي شيدت أعرقها مطلع القرن الثاني عشر الميلادي وتحديدا عام **1119**م، وحتى إذا كان أحد علماء الروس قد خلص إلى أن **"أقدم كلية علمية هي كلية المغرب العامرة"**[4]، فإن الكاتب الشاب انتصر لرأي والده **"المؤرخ السيد عبد الله الجراري الذي يقدم كلية تونس الشقيقة على جامعة**

---

[1]ـ نشرت بمجلة "هنا كل شيئ "، العدد:**33**، بتاريخ **15** دجنبر **1954**م.

[2]ـ طفولة قلم، ص:**48**.

[3]ـ نفسه، ص:**49**.

[4]ـ نفسه، ص:**50**.

المغرب، مستدلا على هذا بأن جامع الزيتونة هي من مؤسسات عبيد الله بن الحبحاب...حوالي سنة 114هـ، فبنى جامع الزيتونة بعدما اختطه حسان بن النعمان ".[1]

فمنذ أن لثم يراع الكاتب أسيل القرطاس تجلى هذا النزوع الغامر صوب التباهي بكل ما ترقشه غلالة مغربية، ولعل مقالته الثالثة في فجر كتاباته اليانع ذاك، والتي أتت باقتراح من والده تحت عنوان : **"المغرب عند حلول المولى ادريس الأكبر وأثر وجوده به"** أبانت إلى حد بعيد عن عمق مداركه عما يخص الدول التي تعاقبت على حكم المغرب،حيث غاص في أتون ما فات ليورد معلومات ـ وإن بايجاز ـ عن الحضارات السالفة التي استوطنت هذا البلد، ومثلها الفينيقيون والقرطاجنيون والرومان والوندال والبيزنطيون، لينتقل بسلاسة إلى فترة دخول الإسلام إلى المغرب،ويجلي قصة قدوم المولى إدريس الأكبر من المشرق، ويذكر نسبه الشريف وحلوله ضيفا على قبيلة أوربة ومكوثه بين ظهرانيهم ما يربو على ستة شهور،ثم يقول: **" فبايعوه بمدينة وليلي يوم الجمعة رابع شهر رمضان، وكان أول من بايعه قبيلة أوربة، التي هي أعظم قبائل المغرب آنذاك، فتلتها القبائل الأخرى، فعظم سلطانه وقويت شوكته "[2]**، وكأنه أراد بذلك أن يستعرض ما قر في ذاكرته من مدارك عن بلده، وأن يطلع والده في نفس الآن على مقدار ما يعرفه عن هذه الشخصية الرائدة التي أرست دعائم حكم الأدارسة بالمغرب.

لقد كان لتشجيع العلامة عبد الله الجراري دور كبير في حث ابنه العليل على الكتابة، ولعل المتأمل لهذه التحبيرات واجد لا محالة أن الكاتب كأنه ينتظر الفرصة السانحة ليعرف ببلده وتاريخه البهي، فحين طلب منه هذا الوالد كتابة موضوع :**"اذكروا كيف قضيتم عطلتكم الصيفية"[3]**، لمحناه يستعين بذاكرته ليستحضر وهو يعاني السقام، حكايات سفره مع والده، حيث انتقل وهو يمتشق

---

[1] ـ طفولة قلم، ص، **50.**

[2] ـ نفسه، ص، **54.**

[3] ـ نفسه، ص **64.**

أسلوبا سلسا ويركن إلى تناسل الحكي، لينطلق من وصف فاس وصوامعها الشامخة، إلى ذكر حمة سيدي حرازم ومياهها الهادرة، وعبر صفرو ومصطاف إيموزار، يصل بنا إلى وجدة التي عب من مكتباتها العامرة، دون أن يسهو عن الحديث عن تازة وكرسيف والعيون والسعيدية وشاطئها الممتد،وفي كل ذلك نلاحظ أنه نحا عن قصد أومن دون نية صوب وصف الحواضر والقرى والتعريف بها وإيراد ما به تمتاز، ويتعاقب إيراد مراحل هذا السفر ليصل الكاتب ومن معه إلى الجزائر، وإذا به يتحول إلى عين لاقطة لكل ما يمت إلى الحضارة المغربية بآصرة، يقول : **"نزلنا من السيارة فإذا بنا أمام جدران عظيمة وأبواب ضخمة هائلة عالية، وصومعة تحسبها تكلم السماء وكأننا أمام صومعة جامع حسان... نحن الآن وسط مدينة المنصورة التي بناها أبو يعقوب المريني حين حاصر تلمسان حيث اتخذها معسكرا،"**[1]ولا يلبث أن يدنينا من حاضرة تلمسان في زهو، يقول : **"وتلمسان هذه من آثار الأدارسة، حيث إنه لما خرج المولى إدريس بن عبد الله في منتصف رجب من سنة ثلاث وسبعين ومائتين غازيا هذه الناحية، أسس على أنقاض معسكر روماني هذه المدينة، وأضاف إليها قرية بجانبها...ومالت نفسه الكريمة إلى بناء مسجد، والأمر بعمل منبره العجيب الذي كتب عليه:"بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أمر به الإمام إدريس بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائتين،" غير أن المنبر هذا قد درس رسمه ولا شك، ثم أقبلت الدولة المرابطية فزاد في المدينة يوسف بن تاشفين بضمه لها أواخر القرن الحادي عشر الميلادي قرية أخرى ابتناها "تاقرارات"**[2]. ولا يفتأ أن يوضح في موضع آخر **"غير أننا لم نعثر على آثار المنبر، الذي كان قد أمر بعمله المولى إدريس،"**[3] ولا ريب أن تصريحا كهذا يعضد ما ذهبنا إليه من ولع الكاتب بما له صلة ببلده، فهو قد سمع بهذا المنبر أثناء سفره وعاين اندراسه وأفوله، لكن بعد عودته إلى بلده سعى

---

[1]ـ طفولة قلم، ص، **67.**

[2]ـ نفسه، ص: **68.**

[3]ـ نفسه، ص: **69.**

حتما لاستبطان المظان التاريخية، طلبا للإحاطة بما يهم هذه المعلمة التي شيدها مؤسس الدولة الإدريسية في المغرب الأوسط.

ويبدو أن سلاطين المغرب شيدوا في سالف السنين مآثر جمة بهذه الحاضرة، يقول :**"جلسنا في مقهى هناك... وأمامنا المسجد الأعظم، الذي هو من مؤسسات الإمبراطور المرابطي علي بن يوسف سنة 1135."**[1]

فالكاتب إذن يزاوج في ما يكتبه بين مارآه بأم عينيه فينسرب إليه دافقا من الذاكرة، وبين ما استقاه مما دونه المؤرخون عن المدائن والمآثر التي رآها وأخذ ببهائها وعراقتها.

ولانكاد نطالع مقال**"رجالاتنا المنسيون"**، حتى تبدو الصبابة المغربية دافقة، وقد رجها تحسر باد على ما يطال أدباء المغرب وعلماءه من تناس وتجاهل وسوء تقدير، بالنظر إلى ما يقابل به سواهم من الاحتفاء والإطراء والتهليل، يقول :**"وإنه لمن المؤسف كذلك أن نذكر رجالات غيرنا ونغفل عن أفذاذ في تاريخ آدابنا هم أحق بالتخليد والذكرى. ولست أنكر ذلك لأني أكره أن نهتم بالغير ونهمل أنفسنا ".**[2]

ولا غرو أن **"إهمال السابقين للتراث والتاريخ وما نتج عنه من غموض وإبهام يسودان العصور المغربية المختلفة، كل هذا يجعل الباحث في سجل الآداب المغربية يخرج من درسه غير مطمئن ولا مرتاح "**[3]، ولعل من مثالب هذا النأي عن أدبائنا وعلمائنا وعدم إيلاء العناية القمينة لما أبدعوا وعنه كتبوا، قد خلق بياضات في مسيرة تشكل الفكر والتاريخ والأدب المغربي، لذلك يدعو الكاتب في إصرار للقبض على تلابيبهم حتى لا يندثر ذكرهم وتتلف تآلفيهم، يقول: **"فقد مرت في فترات مختلفة حركات أدبية نبغ فيها كثير من الكتاب والشعراء يتطلعون إلينا من وراء القبور وينتظرون منا، ونحن نبعث نهضتنا، أن نقيم لهم ذكرى تعيد حياتهم إلى النفوس بعد أن أماتهم الإهمال وطمس معالمها، نذكر من**

---

[1]ـ طفولة قلم ، ص: **68.**

[2]ـ نفسه، ص، **158.**

[3]ـ نفسه، ص، **156.**

بينهم محمد بن عيسى الصنهاجي، وأبا جعفر بن عطية، ومحمد بن حبوس، وأحمد الجراوي، ومالك بن المرحل، وغيرهم ممن بقي إنتاجهم يندب حظه مبعثرا على رفوف المكتبات."[1] لكنه يستدرك، حتى لا يظن البعض أنه لا ينافح إلا عمن مضوا وتقادم بهم العهد، ويدعو في تبصر إلى الاحتفاء بأفذاذ ساهموا في تطور الحركة الفكرية والأدبية في الماضي القريب، يقول : **"بل مالنا لنذهب بعيدا والأمثلة واضحة أمامنا لرجال كانوا معنا بالأمس القريب، صنعوا الجيل السابق والذي قبله، ثم ماتوا ولم يحظوا بغير الجحود والنكران حتى من أعز الأصدقاء وأقرب التلاميذ. أين نحن من ذكرى تحيى لأبي شعيب الدكالي وأبي حامد المكي البيطاوري ومحمد السائح وعبد الرحمان بن زيدان ومحمد غريط ومحمد بن إبراهيم وأحمد سكيرج ومحمد أبي جندار ؟ "**[2]

إن مقالا واعدا كهذا دبجه الكاتب وهو لازال طالبا بالصف الثانوي، ليشي بهذا التشبع والتشيع لكل ما هو مغربي، وأكثر من هذا فإن الإتيان على ذكر كل هؤلاء الذين ضرب عنهم صفحا رغم أياديهم البيضاء على الأدب والفكر، إنما شكل منذ هذا الوقت المبكر الهاجس الذي أسس عليه الدكتور عباس الجراري في ما بعد مشروعه الفكري في الإحاطة بالأدب المغربي، وسد الثغرات التي انتهكت تراص بنيانه على امتداد مراحل تشكله الطويلة، وذلك بالنبش واستبطان أغوار المتون وجمع وتوثيق كل ما كتب وتدوين كل ما قيل في سبيل إكمال معالم هذا الأدب.

كان هاجس البحث عن نبوغ الأدباء المغاربة وأصالة الإبداع المغربي دافعه لأن يكتب مقاله :**"هل لنا أدب مغربي "**، وفيه سعى جادا للبحث عن الخيط الناظم لهذا الأدب، يقول: **"على أننا لا نشك في أنه كانت هناك حركات أدبية عرفتها عصور مغربية مختلفة، نبغ فيها رجال العلم والأدب كثيرون، بقي إنتاجهم مبعثرا في بطون الخزائن تلتهمه الأرضة، وكأنه كتب عليه أن يفنى مع**

---

[1] ـ طفولة قلم، ص:**156.**

[2] ـ نفسه ص:**157.**

أصحابه"[1]،وبعد التقصي خلص إلى أنه**"في العهد الموحدي، أخذت لأول مرة تبرز مميزات مغربية خالصة في إنتاج الأدباء الذين كانوا يقصدون إلى عدم تقليد جيرانهم الأندلسيين، لما كانوا يظهرون به من مظهر الفخر والكبرياء، وممن لمعوا في هذا العصر محمد بن حبوس الفاسي، وأحمد بن عطية المراكشي، وأحمد الجراوي الفاسي، ومحمد بن عبدون المكناسي."**[2] وبعد اندراس هذا العهد علا سهم الأدب عاليا يقول **:"وفي العهد المريني عرف الأدب أزهى عصوره بسبب تمام استعراب البربر الذين بدأوا ينظمون الشعر بالعربية.. وممن نبغ في هذا العصر مالك بن المرحل السبتي، وعبد العزيز الملزوزي، وأحمد بن أبي طالب اللخمي السبتي."**[3]

وعن العهد السعدي الذي عرف نهضة أدبية يذكر الشاعر عبد العزيز الفشتالي ومحمد بن عيسى الصنهاجي. وفي فجر الدولة العلوية يقول **:"بقيت هذه الحركة قائمة بفضل تشجيع الملوك للشعراء والكتاب أمثال : محمد بن زاكور الفاسي، وأحمد الحكمي الرباطي، وأحمد بن الونان التواتي الفاسي، والطيب بسير الرباطي."**[4]

وقد أبدى ملاحظات ذات ملمح نقدي تقييمي جلي عن نفوق سوق الأدب في ظل الحماية الاستعمارية الغاشمة، حين انحسر دوره واقتصر على ظهوره في بعض المناسبات الدينية مثل عيد المولد النبوي حيث يتذاكر الشيوخ مع طلبتهم في لامية كعب بن زهير وهمزية وميمية البوصيري وبعض مقامات الحريري.

ولم يفته تبين طائفة من الأدباء ممن نهلوا من الأدب القديم والأندلسي، والذين عكفوا على حفظه والنسج على منواله، معتنين بالمساجلات والمطارحات والإخوانيات، من أمثال أبي حامد المكي البيطاوري، ومحمد غريط الفاسي، وأحمد بن المامون البلغيثي العلوي...

---

[1] ـ طفولة قلم، ص: **193.**

[2] ـ نفسه، ص، **193.**

[3] ـ نفسه، ص، **193.**

[4] ـ نفسه، ص:**194.**

ويسترسل في ثبات في تتبع مراحل تطور الأدب المغربي ويشيد بظهور الصحافة الأدبية التي بدأت تنشر كتابات الأدباء الشباب مثل جريدة السعادة والمغرب والسلام والمغرب الجديد ورسالة المغرب، ويؤكد **"ثم هناك عامل آخر كان له عظيم الأثر في تغذية العقول لا سبيل إلى إنكار مفعوله طول فترة النهوض، هذا العامل هو الاتصال بالشرق العربي... عن طريق النشرات والصحف والمجلات التي كانت توزع في الخفاء،"**[1]مثل مجلة الرسالة التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات ومجلة الهلال لجرجي زيدان، مع النظر إلى تأثير ظهور الإذاعة ومعهد الدروس العليا الذي أنشأته الإدارة الاستعمارية بنوع من الحذر،بالرجوع إلى ما نحوا إليه من مسلك مبهم.

وفي الدراسة التي أنجزها الكاتب ـ وهو في القاهرة ـ عن الشاعر الموحدي **ابن حبوس،** نلفه يتنكب سيرة هذا الأديب في تدقيق وتمحيص جليين، ويجادل في إثبات اسمه، نظرا لالتباس يقع في كتب مؤرخي الأدب بينه وبين ابن حيوس وابن حنون، مستبطنا أغوار الأسفار،مستقصيا ما كتبه حوله الأقدمون وما أوردوه في مؤلفات مثل المعجب لعبد الواحد المراكشي والمطرب لابن دحية، والإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام لعباس بن إبراهيم والذيل والتكملة على الموصول والصلة لابن عبد الملك المراكشي، وزاد المسافر لصفوان بن ادريس التجيبي المرسي،دون أن يفوته أن يطلع على ما كتبه عنه المحدثون وخاصة محمد الفاسي والأستاذ الفرنسي بيرس، متحريا سيرته بين انتقاله من الدولة المرابطية التي ناصبته العداء وتوارى من تضييقها فارا إلى الاندلس ما يربو على أربع وعشرين سنة، إلى أن سطع نجمه في عهد الدولة الموحدية حين صار شاعر الخلافة المهدية دون منازع، وفي هذا البحث يبدو الكاتب محيطا بكل المعطيات، مدركا لسيرورة الأحداث، دارسا لقريض الشاعر، متبينا لدلالاته، وتكاد قصيدة ابن حبوس الرائية أن تكون فاتحة يمن عليه، وفي مطلعها، والخليفة عبد المومن يستعرض فرق الجيوش بسلا حذاء نهر أبي رقراق، قال:

---

[1] ـ طفولة قلم، ص:**197.**

ألا أيهذا البحـر جـاورك البحـر وخيم في أرجائك النفع والضــر[1]

وجاش على أمواجك العقل والحجا وفاض على إعطائك النهي والأمر

وقد خلص الكاتب إلى أن ابن حبوس **"كان شاعر فاس الأول وأنه من فحول الشعراء، وإن لم يرق إلى مرتبة الممتازين "**[2]، بل أكثر من هذا يورد ما قاله عبد الواحد المراكشي بشأن مقارنة بين قريض ابن حبوس وابن هانئ، إذ**"كانت طريقته في الشعر نحو طريقة محمد بن هانئ الأندلسي في قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع المهولة وإيثار التقعير، إلا أن محمد ابن هانئ كان أجود منه طبعا وأحلى مهيعا،"**[3]بيد أن كاتبنا لم يطمئن إلى هذا الرأي إلا بعد أن درس بنفسه ما جادت به قريحة ابن حبوس وخلص إلى أن هذا الشعر**"وإن كنا نجد فيه جمالا وروعة يدلان على قريحة فياضة، فهو دون شعر ابن هانئ الذي يفيض عن عبقرية جياشة... وخلو شعر ابن حبوس من فنون الزخرف والتصنيع ليس إلا مظهرا لطابع العصر عامة."**[4]

لقد قيض لهذه الدراسة ذات المنحى الرصين والنهج الجاد أن تنشر بمجلة دعوة الحق في عددها السادس سنة **1961**، ولعل الإهداء الذي صدر به الكاتب مقاله، يطلعنا على مقدار ما تكبده من عنت في سبيل استقصاء ولم شمل المعطيات حول هذا الشاعر الذي لم يقف على ديوانه، وإن كان يذكر أنه نظم زهاء ستة آلاف وخمسمائة بيت، يقول : **"هذه صفحة من صفحات الأدب المغربي الضائعة، حاولت إخراجها بعد كثير من المشقة والعناء، يضيئ سبيلي توجيه أستاذي الفاضل الدكتور يوسف خليف، فإليه أهديها دليل اعتراف وتقدير. القاهرة في 1960/04/19م."**[5]

ولا غرو أن رصانة هذا البحث وجدية طرحه وما حواه من معلومات غائرة استقيت من بطون كتب التاريخ والأدب، كان باعثا للأستاذ خليف أن يقول منوها

---

[1] ـ طفولة قلم ، ص:**261.**

[2] ـ نفسه، ص: **263.**

[3] ـ نفسه.

[4] ـ نفسه، ص:**263.**

[5] ـ نفسه، هامش ص: **245.**

بطالبه:**"بحث ممتاز، أعجبني منه سلامة منهجه، ودقة أفكاره، والجهد الضخم الذي يبدو في أثنائه، وهو بحث يستحق التهنئة."**[1]

لقد أشهر الكاتب في صبابة حماسية سيف المعرفة ليبقر به غياهب التعتيم التي أضمرت الأدب المغربي ورجالاته، لأجل ذلك فقد عمد في ختام هذه الدراسة إلى الإفصاح بتفاؤل عن التطلع إلى الكشف عن المزيد مما ظل مكنونا من درر مغربية، يقول:**"ولو وصلنا من ابن حبوس شعر أكثر من الذي أوردنا، والذي هو كل ما أبقت عليه يد الإهمال، لكانت نظرتنا أدق مما رأينا. وعسى أن يعثر يوما على ديوانه وتتاح لنا فرصة دراسة عميقة مفصلة تسجل بها صفحة مشرقة للأدب المغربي في هذا العصر".** [2]

وإذا كان الكاتب قد أفرد مقالات بعينها، ناقش فيها قضايا أدبية وفكرية ونقدية مغربية صرفة ـكما سلف ـ فإن دراسته لمواضيع ذات دلالات مغايرة، لم يكن حائلا بينه وبين الوفاء لبني جلدته وإبداعهم، والتمثل بما دبجوا من معارف، ففي مقالته **"الترجمة الذاتية"**،وبعد أن قدم تعريفا لهذا اللون الأدبي **"الذي يسمونه الأوتوبيوجرافيا أو الترجمة الذاتية... نكف عن شخص الكاتب الإنسان، ونرى سلوكه وأخلاقه ونلمس غاياته وأهدافه، ما حقق منها وما لم يستطع تحقيقه، وما صاحب ذلك كله من توتر وكفاح وإحساس"**[3]، عرج على مؤلفات التاريخ الأدبي ليتعرف بداية هذا السمت من الكتابة، ومن الفرس واليونان، إلى العرب الأوائل مثل الرازي وابن الهيثم مرورا بالسخاوي والسيوطي وابن الجزري وابن الخطيب، ليخلص الكاتب إلى أن التعريف لابن خلدون يعد بحق **"أول ترجمة مستفيضة يسجلها لنفسها كاتب عربي"**،[4]وبعد أن يذكر من ذاع صيته في هذا الباب من أدباء الغرب كجوته وتولستوي وروسو وبرناردشو، ومن برع من كتاب العرب كالعقاد وطه حسين وأحمد أمين ومن حذا حذوهم، نراه يلتفت كدأبه

---

[1] ـ طفولة قلم، ص، **245** الهامش رقم، **1.**

[2] ـ نفسه، ص:**264.**

[3] ـ نفسه، ص: **182.**

[4] ـ نفسه، ص:**184.**

صوب الأدب المغربي ويفصح :**"وقد يتساءل القارئ عما إذا كان لأدباء المغرب في هذا الفن نصيب يستحق أن يدون ويسجل ؟"**[1]ولا بد أن سبيل التقصي أفضى به إلى اكتشاف القصور الذي يكتسح هذا المنحى والذي يعزى ل**"إغفال المغاربة لرجالهم وإهمالهم للنوابغ."**[2]

وقد بعث هذا الازورار عن تخليد ذكرى هؤلاء و**" حفز هذا الإهمال كثيرا من العلماء والأدباء المعاصرين لتسجيل حياتهم بأقلامهم، أمثال محمد بن العبدي الكانوني في "جواهر الكمال" ومحمد بن علي دينية في "تاريخ الرباط" عبد الحفيظ الفاسي في "معجم الشيوخ"...وفي "الأدب العربي في المغرب الأقصى، جمع السيد محمد القباج كثيرا من تراجم الشعراء... وهي ظاهرة حميدة لولاها لضاعت تراجم هؤلاء الشعراء".**[3]ومن اليسير أن نتنبه إلى نقره على الوتر ذاته الذي ينتصب حجر عثرة إزاء رسم صورة شاملة لملامح ذلك الأدب، يقول:**"وليس الإهمال حديث عهد في تاريخنا، فقديما أغفلت شخصيات كثيرة، لم يلتفت إليها، طمست معالم حياتها، وطمست معها معالم أجيال، فتعذر الربط بين حلقاتها ما سبق منها وما لحق."**[4]

وفي مقالته **"البرج العاجي ضروري للأديب"**،[5]وفي معرض حديثه عن عملية الإبداع الفني والطبع والارتجال،نراه يورد في هذا الباب أسماء بعض الشعراء ومن بينهم الشاعر المغربي أحمد سكيرج يقول**: إن من الشعراء من اشتهر بالارتجال أمثال عبد المحسن الكاظمي وحافظ إبراهيم وأحمد سكيرج".**[6]وقد أورد الأديب محمد بلعباس القباج في كتابه **الأدب العربي في المغرب الأقصى**، ترجمة لهذا الأديب مع

---

[1]ـ طفولة قلم، ص: **185.**

[2]ـ نفسه، ص: **185.**

[3]ـ نفسه.

[4]ـ نفسه، ص: **186.**

[5]ـ نشرت بجريدة "الفجر"، العدد **35**،بتاريخ **24** جمادى الأولى **1380**هـ، موافق **14** نونبر **1960**م

[6]ـ طفولة قلم، ص:**190.**

ثلاثة قصائد له بعد أن قال: **"ومن أشعاره الكثيرة "**،[1]كما أن له أربعة دواوين مطبوعة، وديوانان مخطوطان: الوردة في تخميس البردة (طبع على الحجر بفاس) (د.ت)، والسحر الحلال في مدح سيد الرجال (طبع على الحجر بفاس) (د.ت)، وضوء الظلام في مدح خير الأنام (طبع على الحجر بفاس) (د.ت)، والنفحات الربانية في الأمداح التيجانية (طبع على الحجر بفاس) 1914، وتفريج الشدة بتشطير البردة - مخطوط، ويمكن أن نعزو كثرة أشعاره لملكة الطبع التي كانت تسكنه.

فكاتبنا لم يكن يفوت فرصة كي يميط اللثام عن أحد الأدباء أو الشعراء أو المفكرين المغاربة، الذين أدلوا بدلوهم في صنف المعارف التي يوليها عنايته بالدرس والتمحيص.

في مقالته **"النقد الأدبي عند العرب نشأته ـ تطوره ـ تحوله إلى بلاغة"**، ينطلق بتبصر في مقاربته لمفهوم النقد عندا لعرب، متقصيا بداياته منذ العصر الجاهلي موضحا كيف تحول من الاعتماد على الذائقة والفطرة إلى الركون إلى المعايير الموضوعية، حيث بسط القول بتعمق ورصانة عن تطور هذا المفهوم وانتقاله من أحكام موجزة مرتجلة، تصدر عن السليقة على عهد أم جندب والنابغة الذبياني في العصر الجاهلي، إلى نقد أخلاقي ينصب الدين مقياسا للمفاضلة بين الشعراء على عهد الإسلام، مثيرا مسألة الطبع والتكلف في اللفظ والقصد والاعتدال مقابل الغلو والإسراف في المعنى، ليوضح كيف ظل النقد في عهد بني أمية ذوقيا غير مرتكز على أحكام معللة، وأن هذا السمت من الكتابة لم يدرك الازدهار إلا على عهد بني العباس، حيث ظهر تياران أحدهما تقليد لنقد الأقدمين، وثانيهما اتجاه علمي يرتكز على المناهج وفيه برز ابن سلام الجمحي وابن قتيبة والجاحظ وابن المعتز وقدامة بن جعفر والآمدي والجرجاني ونظريته الخاصة بالنظم، فقد"**سار النقد والبلاغة منذ أقدم العصور الأدبية متحدين مختلطين، لا**

[1]ـ الأدب العربي في المغرب الأقصى، محمد بلعباس القباج، الطبعة الأولى سنة 1929،مطبعة دار المناهل، وزارة الثقافة والاتصال (قطاع الثقافة)، طبعة خاصة بمجلة الثقافة المغربية، ج:1ص:57.

يفرق بين مفهومهما في دراسة النصوص وتحقيقها"،[1] ولعل ذلك الخلط هو ما حذا بمن جاء بعد الجرجاني لأن يضع قواعد مركزة للبلاغة مما سيجها بمقاييس ومعايير جامدة متحجرة،ما عتم أن استشرت بعد ظهور تلخيصات لما أورده، حيث ألف السكاكي كتابه **مفتاح العلوم**، وكتب كثيرون تلخيصا للمفتاح وأبرزهم **الخطيب القزويني والشريف الجرجاني والسبكي المصري**، ولم ينس الكاتب أن ينوه كديدنه بجهود المغاربة في هذا المنحى فيذكر ما قام به **ابن يعقوب المغربي**[2] من شرح وتلخيص لمفتاح العلوم للسكاكي، وبالرجوع إلى كتاب المغربي**"مواهب الفتاح في شرح المفتاح"**نلفه يصرح في المقدمة: **"ولما وفقت بعون الله تعالى لقراءة ذلك الشرح مررت فيه على غوامض ربما تعتاص على بعض الأفهام، ومحال كثيرة تفتقر لا محالة إلى مزيد من الكلام، وأكثرها لا يكفى فيه ما فى المطول، بل يحتاج إلى خارج عما فى ذلك الشرح من بيان أو زيادة بها يتكمل، فرأيت أن أضع عليه شرحا يكون لذلك المختصر مجاريا لقصد بيان عويصه، مع زيادة فوائد وأبحاث تتعلق بالمحل تكميلا لتحقيقه وتلخيصه، فيكون للمتن شرحا، وللشرح بسطا وفتحا."**[3]

ولعل الأوبة إلى سيرة هذا الفقيه المالكي الذي تولى إلقاء تلخيصه للمفتاح على تلامذته بمسجد الإسماعيلية بمكناس، مطلع القرن الثاني عشر الهجري، تبين لنا عن نبوغ بدا في تآليفه الجمة في شتى المعارف ومنها : **شرح تلخيص المفتاح المسمى مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ـ حاشية على المحلى وشرح مختصر الأزهار للسنوسي** وما عداها، ومن ثم كان ذكر الكاتب له إلى جانب بلاغيين ذائعي الصيت، لونا من التفاخر بجهود المغاربة في هذا السمت من المدارسة.

---

[1] ـ طفولة قلم، ص: **222.**

[2] ـ انظر بشأن ترجمته :كشف الظنون، ج:**2**،ص:**319**، الأعلام للزركلي، ج:**1**، ص:**241** وغيرهما.

[3] ـ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن محمّد ابن يعقوب المغربي، تحقيق : الدكتور خليل ابراهيم خليل، الطبعة الأولي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ج:**1**، ص: **79.**

ومن القاهرة أرسل مقالا لينشر بمجلة **دعوة الحق**[1] تحت عنوان **"مناهج الأندلسيين في دراسة النحو"**، ولعل باعثه على ذلك هو ما لاحظه من أن الأندلسيين كانوا **"بحكم أعجمية بلادهم أكثر حاجة إلى دراسة نحوية حرة تضع قواعد قياسية لتنظيم اللغة وتقنينها ولو على حساب الشواذ، ولكنهم ساروا حسبما كان يمليه عليهم مزاجهم الذي كان ميالا إلى الأخذ حتى بالشواذ في غير كثير من حرية التصرف.**[2]

وقد انتهت به استبطاناته إلى الوثوق بكون أول مدرسة لسانية أنشأت بالأندلس إنما كانت بعد وفود أبي علي القالي صاحب الأمالي إليها سنة **340**م، وبقي الأندلسيون سائرون في ظل ما نظر له المشارقة، إلى أن ظهر أحمد بن مضاء القرطبي على عهد الموحدين، والذي سعى في كتابه **"الرد على النحاة** إلى الحث على الأخذ بظاهر النصوص وتقويض دعائم النحو العربي، لذلك طويت صفحته ولم يستجب لدعوته.ولا ينكر الكاتب فضل جمال الدين محمد بن مالك صاحب الألفية والكافية والتسهيل وما عداها من مؤلفات نحوية ذات منفعة، لكنه يلتفت فجأة ليقول :**"وليس معنى هذا أن المغرب لم ينجب نحاة من قبل، إذ يكفي أن نذكر أبا موسى الجزولي المتوفي سنة 607 هـ صاحب المقدمة المشهورة باسمه، والتي ألفها إملاء على جمل الزجاجي... أو نذكر محمد بن هشام السبتي المتوفي سنة 570 هـ صاحب كتاب "الفصول والجمل في شرح أبيات الجمل "و"شرح فصيح ثعلب "،أو نذكر محمد بن آجروم الصنهاجي المتوفي سنة 723 هـ صاحب المقدمة المشهورة باسمه، لتظهر لنا مكانة المغرب المرموقة في علم النحو العربي."**[3]

ولعل هذا الإيراد المضطرد لإسهامات المغاربة إنما نبع من دوافع شتى، ومنها :

1ـ ما كان يجده في نفسه من هوى للتباهي بما أبدعه المغاربة مما ينزع به صوب التمثل بهم وبكتاباتهم.

---

[1] ـ السنة الخامسة، العدد الخامس، فبراير **1962**م.

[2] ـ نفسه، ص: **299**.

[3] ـ نفسه، ص: **298ـ 299**.

2ـ سعيه وهو في هذه السن المبكرة إلى إماطة اللثام عن مجهودات هؤلاء التي ظلت مغمورة يطويها النسيان نظرا لعدم نشرها.

3 ـ محاولة الكاتب تعريف الآخرين مشارقة وما سواهم بما يملكه المغاربة من باع طويل في مختلف المعارف والأجناس الأدبية. ولعل التعليق الذي ذيل به أستاذه الدكتور عبد الحليم النجار مقيما الدراسة التي أهداها إليه الكاتب حول"**مناهج الأندلسيين في دراسة النحو**"،إذ قال :"**بحث طيب يمتاز بالعمق والشمول... كنت أود لو قصرته على دراسة المنهج النحوي عند عالم مغربي من علماء النحو نشأبه، يمكن ذلك أن يؤدي إلى نتائج أفضل**"،[1] يفضي بنا بعد الإطراء، إلى مقدار التعطش الذي يبديه المشارقة للاطلاع على ما كتبه وحبره المغاربة وظل مغمورا لا يدركون منه الكثير.

4ـامتلاكه لزاد معرفي مكنه من استبطان مجموعة من المتون التي لم تكن متاحة لغيره، والتي ربما هي من حسنات انحداره من أسرة عالمة، فضلا عن تلقيه المعارف على يد والد العلامة عبد الله الجراري، واستفادته مما كان يزجر به النادي الجراري من مناظرات ومحاضرات.

5 ـ ويبدو أن عشقه للأدب المغربي والذي نشأ في فؤاده صغيرا ثم استحكم واستوثق منه، هو ما بعثه على مقاربة ما جادت به أقلام أبناء بلده، وقد توج هذه الاستهلالات النضرة في البحث والنقد بإنجاز بحث الماجستير وهو بمصر حول "**الأمير الشاعر أبي الربيع سليمان الموحدي: حياته وشعره** "، وربما كانت الدراسات التي قدمها وهو لازال غضا يتلمس خطى التقصي والكتابة هي ما مالت به صوب الافتتان بالعصر الموحدي الذي لامسه حين تحدث عن ابن حبوس وحين عاين تطور الأدب المغربي عبر التعاقب التاريخي لدوله، ولاريب أن هذا الشغف هيأه لإنجاز أطروحة الدكتوراه حول "**القصيدة أي الزجل بالمغرب،**"،وبعد أن حصل على الإجازة بتفوق وسافر إلى فرنسا من أجل متابعة الدراسات العليا، اختار أن تكون الأطروحة المكملة، التي سينجزها تحت إشراف الأستاذ شارل بيلا في

---

[1] ـ طفولة قلم، ص، **290**، الهامش **1**.

موضوع **تحقيق رحلة العبدري.** وذلك عين الوفاء للمباهاة بالإبداعات المغربية في مختلف الصنوف القولية.

في تضاعيف كتاب **"طفولة قلم "** يتضوع أريج الصبابة المغربية غامرا، ومن اليسير أن نتبين هذا الانجذاب من خلال ما دبجه من فجر كتاباته إلى ضحاها، عبر ثلاث سبل :

1ـ الحديث عن الأدب المغربي ولو عرضا عن طريق التمثل به،مثلما لاحظنا، في دراساته الموسومة ب **:الترجمة الذاتية ـ البرج العاجي ضروري للأديب ـمناهج الأندلسيين في دراسة النحو ـالنقد الأدبي عند العرب نشأته ـ تطوره ـ تحوله إلى بلاغة ـالسفر ظفر.**

2ـ إفراد مقالات بعينها بسط القول فيها عن الأدب المغربي ورجالاته مثل تلك التي خصها ل**:ابن حبوس شاعر الخلافة المهدية ـ هل لنا أدب مغربي؟ ورجالاتنا المنسيون.**

3ـ استلهامه للتاريخ والحضارة المغربيين في الدراسات المنجزة حول **جامعة القرويين ـ المغرب عند حلول المولى إدريس الأكبر وأثر وجوده به وكذا** موضوعه حول **اذكروا كيف قضيتم عطلتكم الصيفية.**

ولعل هذه الكتابات التي دبجها المؤلف وهو في ريعان الشباب أو قبل ذلك بقليل، لازال يتلمس السبيل إلى التعبير الفني والإبداع الحثيث، والبوح الشعري والتحليل النقدي والمقاربة الجادة، اكتست حلة قشيبة من حيث جمالية أسلوبها ورصانة تناولها والقدرة التي أجلتها في التقصي والإحاطة والاستبطان، ولاريب أن ذلك ما جعل جلها ينشر بمجلة **هنا كل شيء** في مرحلة فجر الكتابة أي فترة دراسته الثانوية، أوفي مجلة **دعوة الحق** وجرائد ذات صيت هي **العلم والعهد الجديد والفجر** في المرحلة الجامعية، وحري أن نشير إلى أن بعض تلك المقالات وهي **"مناهج الأندلسيين في دراسة النحو"و"النقد الأدبي عند العرب نشأته ـ تطوره ـ تحوله إلى**

بلاغة" والتي غير عنوانها ليغدو **"من النقد إلى البلاغة "** نشرها الدكتور عباس الجراري في ما بعد في كتابه**"صفحات دراسية من القديم والجديد"[1].**

في كتب الأدب العربي الأكثر عراقة ظلت أبيات طرفة بن العبد الطفل ماثلة تدل على نبوغ مبكر وشاعرية متقدة حين خرج للصيد مع عمه وهو حدث ورأى قبرة فقال:

يالـــــك مـن قـبرة بمعـــــمر خلا لك الجــو فبيضي وأصفري[2]
قـد رفـع الفـخ فمــاذا تحـذري ونقــري مــا شــئت أن تنقــري
قد ذهب الصياد عنك فأبشــري لا بد يوما أن تصادي فاصـبري

إن ذلك القريض الذي انسرب على أسلة لسانه وهو لما يزل طري العود، كان إيذانا بما بلغه من رفعة إلهام أدرك بها مقام أصحاب المعلقات وصار أحدهم، ولعل هذا الاستحضار الأنيس لسيرة الغلام القتيل، إنما هو آت من الحذق والنباهة والتبصر الذي جلل الكتابات الجرارية الأولى والغضاضة لا تزال ديدنه،كلما لامست شفاه يراعه أسيل القراطيس، والتي آذنت بما سيكون له من شأو بعيد، ولا غرو أن المقالة الأولى التي نشرها بمجلة **"هنا كل شيء"** يوم **15** يونيو من عام **1954** ووسمها ب **"مفاصل الكلام ومواقفه"[3]**ومستهل قطعه الشعرية التي قرض مساء الخميس **10** مارس **1954**، ومطلعها :

الشـــــعر قـــــد طلبـــــته في صـــــغري قرضـــــته[4]
كـــــــلامه ظريـــــــف وحفظـــــــه خفيـــــــف
لـــــذا أنـــــا أحببتـــــه وقطـــــعا حبرتـــــه

---

[1] ـ صدر في طبعته الأولى سنة **1976**، عن دار الثقافة.

[2] ـ ديوان طرفة بن العبد، شرحه وقدم له مهدي محمد نصر الدين، دار الكتب العلمية :بيروت ـ لبنان، الطبعة الثالثة **2002**،ص: **49.**

[3] ـ طفولة قلم، ص:**32.**

[4] ـ نفسه، ص:**78.**

وشت منذ ذلك الحين بأنه سيسمو في مدارج الإبداع ليغدو نارا على رأس علم، تماما كما صار طرفة شاعرا مفوها بدون منازع.

منذ البدء كان الشغف مسارا والهوى إيثارا والأدب المغربي اختيارا، ومن قلم يافع يتلمس سبيل التعبير ودروبه، إلى يراع يفتك بكتائب الغموض ويشد همم المدارسة والمجادلة والنقد، يدبج ويحبر ويرقش، وفي جبته حب وحماسة وعزم، ماض على درب البحث والتقصي، لإظهار كل مخفي من شعري أو نثري، ذي هوى ونزوع مغربي، أفلح الكاتب في أن يغدو عميدا للأدب المغربي، وقد جاوزت مؤلفاته المطبوعة المائة بين الدراسات المغربية والتراث الشعبي، والأدب العربي الإسلامي والدراسات الأندلسية، وقضايا الفكر والثقافة والرحلات، والفكر الإسلامي والشعر، وبواكير الكتابة، وأربت المخطوطة على الأربعين بين رحلة وأحجية، ونشيد ورسالة، ودراسات وما عداها.

إنها بحق الصبابة المغربية في التحبيرات الجرارية لبواكيره الأدبية.

***

د. سعاد مسكين

- أستاذة جامعية، المدرسة العليا للأساتذة، مرتيل، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.
- أستاذة زائرة بكلية الآداب، تطوان.
- عضو في مجلس المؤسسة بالمدرسة العليا للأساتذة، تطوان.
- عضو اتحاد كتاب المغرب.
- عضو مختبر القصة والترجمة، كلية الآداب، ابن مسيك، الدار البيضاء.
- عضو مختبر اللغات والتواصل وتحليل الخطاب، المدرسة العليا للأساتذة، تطوان.
- عضو الرابطة العربية للقصة القصيرة جداً، الناظور.
- عضو اللجنة العلمية المؤتمر كاتبات العالم (دورة فاطمة المرنيسي)، تطوان.
- مديرة مجلة « عيون السرد »، الصادرة عن مختبر اللغات والتواصل وتحليل الخطاب، المدرسة العليا للأساتذة، تطوان.
- رئيسة تحرير مجلة « منارات » الصادرة عن فريق البحث في الإبداع النسائي، كلية الآداب والعلوم الانسانية، تطوان.
- عضو هيئة تحرير مجلة « الإبصار » المحكمة، طنجة.
- عضو الهيئة العلمية لمجلة « المدونة » الصادرة عن مختبر الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة البليدة 2، كلية الآداب واللغات، البليدة، الجزائر.
- عضو الهيئة الاستشارية لمجلة « فهمان » الإليكترونية، الصادرة عن الاتحاد العربي لأدب الطفل.
- عضو مجلة « العلامة » مجلة علمية محكمة، تصدر عن مختبر اللسانيات وتحليل الخطاب، جامعة ورقلة، الجزائر.
- أشرفت على عدة أطاريح الدكتوراه (مسلك دكتوراه الأدب المغربي).

من أعمالها المنشورة:

أ- الكتب:

- القصة القصيرة جداً في المغرب: تصورات ومقاربات، دار التنوخي، الرباط، 2011.

- خزانة شهرزاد، الأنواع السردية في ألف ليلة وليلة، دار رؤية للنشر، القاهرة، 2012.

- معجم المصطلحات السردية، نحو تصنيف معجمي لمشروع الناقد سعيد يقطين، منشورات دار الحوار، اللاذقية، سوريا، (قيد الطبع).

ب- ضمن كتاب جماعي:

- عمنا... سي أحمد بوزفور، مبدعاً وإنساناً، إعداد وتنسيق: عبد الله المتقي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، 2013.

- السرد والسرديات في أعمال الناقد سعيد يقطين، إعداد وتقديم، شرف الدين ماجدولين، منشورات ضفاف، بيروت، ومنشورات اختلاف، الجزائر، ودار الأمان، الرباط، المغرب، 2013.

- النص الأدبي القديم، من الشعرية إلى التداولية، تقديم: محمد مصطفى حسانين، دار كنوز المعرفة، عمان، الأردن، 2018.

جـ- في المجلات:

- الكتابة الطفلية في المشرق العربي، من التجنيس إلى إنتاج القيم، مجلة « أدب الطفل» دراسات وبحوث، الصادرة عن الهيئة العامة لدار الكتاب والوثائق القومية، القاهرة، عدد، 17، 2019.

- استراتيجية الكتابة السردية عند القاص عبد الله المتقي، مجلة « المحروسة »، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، غشت 2018.

****

"طفولة قلم" بين هاجس الإبداع وصدى الفكر

د. سعاد مسكين

تقديم

يدعونا الحديث عن الكاتب عباس الجراري من خلال كتاب **"طفولة قلم"**[1] إلى استحضار ضرورتين أساسيتين هما:

أ- **الضرورة المؤسساتية:** أسهمت العديد من المؤسسات الأدبية والثقافية في تشكيل الوعي المغربي الجديد بدءا **بجامعة القرويين**، إذ مكنت من تشكيل شخصية الفقيه العالم والموسوعي في شتى أضرب العلوم: اللغوية والشرعية والفلكية والطبية والرياضية...

وعملت **الجامعة المغربية الحديثة** على نهضة المغرب، إذ أسهمت في إنتاج جيل لا يرتكز على التلقين فقط، وإنما توجه قدراته صوب **" الخلق والابتكار واستكشاف الحقائق واستكناه الأسرار"**[2] تشجيعا منها على روح العلمية والإنتاجية على اعتبار أن مردودية الجامعة ستنعكس إيجابا على حياة المغرب ذهنيا وفكريا واجتماعيا، لهذا يؤكد عباس الجراري على أهمية الجامعة الحديثة في نهضة المغرب بقوله: **" فبقدر تشجيع الجامعة للبحث وقيامها به، وبقدر فحصها للنظريات العلمية والأدبية واكتشافها لاتجاهات جديدة واستنتاجها لآراء يكون محورها البحث العلمي الدقيق، وبقدر عملها على التطور والتجديد في اللغة والأدب والفن، وبقدر إضافتها أشياء جديدة إلى الفكر العميق الذي أنتجه الغير، بقدر ما يكون هذا كله، بقدر ما تكون مشاركة المغرب في ميدان المعرفة العالمي"**[3]،

---

[1] **عباس الجراري، طفولة قلم**، جمع وإعداد وتقديم : د. سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري، رقم: **102**، ط:**1**، **2020**.

[2] **عباس الجراري، طفولة قلم**، ص: **176**.

[3] نفسه، ص:**177**.

يبدو من هذا القول أن الكاتب يراهن على الجامعة الحديثة لاعتبارات، نذكر منها؛ أنها:

- تمثل بديلا للجامع والمدرسة التقليديين اللذين ظلا يهتمان بإنتاج المثقف التقليدي الذي انشغل بالدرسين اللغوي والفقهي فقط؛
- تنسج علاقة مع الأدب وفنونه من خلال ما يمكن تسميته بـ **"المعرفة الأدبية"** [1]التي تربط الأدب بمختلف المعارف الأخرى التراثية والحديثة، العربية والغربية، المشرقية والأندلسية؛
- تخلق التكامل المعرفي الذي من شأنه أن يتحقق بانفتاح المعاهد الدينية على ما تقدمه الجامعة الحديثة من بدائل معرفية من شأنها أن تطور التفكير المغربي، وأن تحرره من جموده؛
- تجعل الأدب المغربي موضوعا للتفكير والسؤال اعترافا به، نظرا لما كان يعانيه من الإنكار والتهميش.

كما جسد **المعهد المصري بالرباط** لبنة جديدة للوحدة الثقافية بين المغرب والمشرق، وذلك بـ **"ارتشاف الثقافة العربية من ينبوع مصر الفياض عن طريق جرائدها ومجلاتها وكتبها"**[2].

لا ننسى الدور الذي قامت به **الصحافة الأدبية المغربية والمشرقية في** الأربعينيات والخمسينيات من خلال نشر العديد من الأعمال الأدبية والنقدية التي قدمت تصورات حول الأدب بأنواعه الخطابية المختلفة؛ الشعرية منها والنثرية، وأحاطت بأعلام الأدب وما أنتجوه من قضايا تشمل البلاغة والبيان والأدب والنقد الأدبي. فكان ظهور مجلات من قبيل " المغرب" و"الثقافة" و"السلام" و"المغرب الجديد" **"عاملا كبير الأثر في تنوير الأفكار، والتي نمت وتبلورت آخر الأمر في "رسالة المغرب" التي كانت في الحق مجلة ممتازة تتناسب وما آلت إليه**

---

[1] استقينا هذا المصطلح من المقاربة التي قام بها الناقد سعيد يقطين في إطار بحثه عن علاقة الأدب بالجامعة، انظر، يقطين سعيد، **الأدب والمؤسسة، نحو ممارسة أدبية جديدة**، منشورات الزمن، مارس، **2000**، ص: **120.**

[2] **عباس الجراري، طفولة قلم**، ص:**121.**

اليقظة عامة في هذه الفترة"[1]. ناهيك عما أسدته المجلات والصحف الأدبية المشرقية (مجلة الهلال ومجلة الرسالة) من خدمة معرفية جليلة، للنهوض بالحركة الأدبية بالمغرب، بعد الركود الذي عرفه الأدب المغربي في فترة سيادة الذهنية العقلية الجامدة التي حرَّمت الشعر والأدب باعتبارهما أكاذيب وأوهاما.

إضافة إلى هذه المؤسسات، أسهمت **"البيوتات"** أيضا في تشكيل الوعيين الثقافي والسياسي لدى الكاتب المغربي، إذ مكن هذا الفضاء من خلْق وشائج بين الكاتب ومحيطه العائلي القريب والبعيد، والذي يسير في الاتجاه التكويني نفسه، لذلك كان الأدب والاهتمام بالثقافة يجري في محراب العائلة وداخل مجالسها الأدبية وصالوناتها ونواديها التي تضم علماء، وشيوخا، وكتابا، وأدباء، وسياسيين، ويمثل النادي الجراري **"البيوتات"** خير تمثيل.

الضرورة الوطنية: تبرز هذه الضرورة من خلال رغبة الكاتب في إعادة الاعتبار للهوية المغربية فكان الاهتمام بالأدب وتاريخه وأعلامه ومصادره من أولويات الفكر النقدي المغربي في العصر الحديث، ويراهن هذا الاهتمام على تطور المجتمع ونهضته اجتماعيا وثقافيا، وفي هذا السياق تصب معظم خطابات عباس الجراري الموجهة للشباب أو الموجهة لجيله من المناضلين في ضرورة وعي الأفراد بالانتماء الوطني، والتشبث بالهوية الضاربة في عمق التاريخ والحضارة، والعمل على تطوير المجتمع عبر حب الوطن والتفاني في خدمته، وذلك بالدعوة إلى الامتثال بمكارم الأخلاق التي تقوم على تكاثف الجهود والتعاون والتسامح من أجل الرقي بالمجتمع وأفراده، ولعل هذا ما أكده الباحث كارلو نالينو موجها الخطاب للعرب عموما: **"إن شدة الاعتناء بآداب لغتكم الشريفة وتاريخها ليست فقط مسألة علمية بل خدمة جليلة لوطنكم يحق لكم القيام بها"[2]**

مكنت الضرورتان المؤسساتية والوطنية من تشكيل ذات الكاتب والباحث عباس الجراري، المنشطرة بين ذاتين: ذات امتزجت بهموم المجتمع، وقضايا

---

[1] **عباس الجراري، طفولة قلم**، ص:**196.**

[2] نالينو كارلو، **تاريخ الآداب العربية من الجاهلية إلى عصر أموية**، دار المعارف، ط:**2**، **1970**، ص:**18.**

الأفراد، وأنتجت أدبا مختلف الأنواع والأضرب، وذات أخرى اكتوت بهمِّ البحث العلمي، وتدارس قضايا الأدب وظواهره، والاهتمام بتراثه ومخطوطاته. **فما هي تجليات هاتين الذاتين من خلال "طفولة قلم"؟ وما هي أنماط الخطابات التي أنتجها قلم الكاتب عباس الجراري؟ وما هي السجلات المعرفية التي ارتكز عليها؟**

I. الكتابة وهاجس الإبداع:

لا ينفصل ما يخطه المبدع من كتابات عن ذاته الكاتبة باعتبارها كائنا اجتماعيا، ولا ينفصل عن كيانه باعتباره ذاتا أنطولوجية، بل إن ما يكتبه متصل بذاته الإنسانية عامة، وبكل ما يعتمل فيها من عواطف وأحاسيس وسلوك وأخلاق. لهذه الأهمية التي يكتسيها الإبداع الأدبي يتبنى الكاتب عباس الجراري **"التعاريف التي تذهب إلى أن الأدب نقد للحياة، أو أنه تفاعل مع البيئة وأحداثها أو نتيجة لهذا التفاعل، أو أنه تعبير فني عن تجربة قد تكون شخصية، وقد تكون مستمدة من ملامح المجتمع الذي يعيش فيه، يعمل فيها ملاحظته وخياله لأنه لا يعقل أن يعيش كل التجارب التي يعبر عنها (...) وهذا ما يؤكد لنا أن الأدب والفن ليسا غير فلسفة للحياة الإنسانية عامة، يرى فيها الأديب والفنان من خلال حوادث بسيطة وصغيرة حقيقة الإنسانية الكبرى"**[1]. ضمن هذه المقاصد يمكننا أن نعتبر عباس الجراري مبدعا، إذ بالنظر إلى ما خطته أنامله من إبداعات في مختلف صلوات كتاباته إن فجرا أو ضحى لا تخرج عن كونها ثمرة تفاعل بين ذاته الكاتبة وبين محيطه، وما عرفه هذا المحيط من تغيرات فكرية وتاريخية وسياسية، لهذا يمكننا إبراز تجربته الإبداعية من خلال التجليات النصية الآتية:

1. الشعر

لقد كان اهتمام الكاتب عباس الجراري بالشعر مبكرا، مما شكل أرضية بكرا لاستمرار انشغاله به درسا ونظما، مما يؤكد جبلته وفطرته على الكلام المنظوم في التعبير عن أحواله ومكنوناته الخاصة والعامة، آخذا بعين الاعتبار معيارين للإبداعية أكد عليهما في **"طفولة قلم" هما" الإلهام والإحساس"**[2].

---

[1] **عباس الجراري، طفولة قلم**، صص:**188/189.**

[2] نفسه، صص:**190/191.**

وإذا كانت شخصية الكاتب الشاعرة تتوارى خلف الدراسات الأكاديمية والبحث العلمي فإن لحظات إبداعية انفلتت منه، فأنتج بعض المقطوعات الشعرية سواء ذات الصبغة البدئية[1] أو الصبغة الناضجة[2]، صبغتان بينهما فترات زمنية متباعدة، تشكل الأولى مرحلة البدايات، وتشكل الثانية مرحلة النضج الشعري.

والمتأمل لأشعاره في مرحلة البدايات يتبين مدى حرص الشاعر على نمط القصيدة العمودية التي تقوم على الإيقاع الخليلي مع اختلاف في التقفية بين الوحدة والتنوع، مما يبين أن بعض هذه الأشعار كانت عبارة عن تمارين نظمية، وبعضها الآخر ينتظم للكتابة العروضية الشعرية ميزانا وتقفية. ولعل هذا ما جعل عباس الجراري يحجب هذه الأشعار ولم يعمل على جمعها في ديوان لكونه يعتبرها أشعارا " **ذات طابع مدرسي ومن ثم لا يعدها إنتاجا شعريا يستحق النشر**"[3].

على الرغم من هذا التصريح الاعترافي من الكاتب بخصوص أشعاره، فإننا لا يمكن تجاهل المقاصد الإبلاغية والتعبيرية التي نظمت من أجلها هذه الأشعار، إذ تشمل قضايا متنوعة منها: الولع بالشعر، الوطنية ورفع الهمم، الغيرة على لغة الضاد، الاحتفال بالعيد، والنصح والإرشاد. وقد توخى المبدع اعتماد الصور البلاغية والترميز إعمالا للفكر والتأمل من لدن المتلقي، نظرا لدقة المعاني وقوة الألفاظ التي تنسج الصور والدلالات.

2. الرحلة

لا نجد تصريحا من الكاتب بأن قلمه قد خط في "**أدب الرحلة**" وإنما نجد ما يدل عليه من خلال هيمنة تكرار لفظ" **السفر**" في الموضوع الرابع[4] والذي يعني الانتقال من مكان إلى مكان آخر بغاية تحقيق مقاصد محددة. لذلك قرن البستاني

---

[1] نقصد بالصبغة البدئية بعض الأشعار نظمها الكاتب في مرحلة الثانوي، وهو يدرس في ثانوية مولاي يوسف بالرباط.

[2] نقصد بالصبغة الناضجة تلك الأشعار التي نظمها الكاتب وأعدها وقدَّم لها الدكتور محمد احميدة في كتاب عنونه بـ: **من ديوان عباس الجراري**، منشورات النادي الجراري، العدد:**73**، الجزء:**1**، ط:**1**، **2017**.

[3] احميدة محمد، **من ديوان عباس الجراري**، جـ، **1**، ص:**11**.

[4] **عباس الجراري، طفولة قلم**، الموضوع الرابع: صص:**71/64**.

تعريفه للرّحلة بماهيتها ومقاصدها، وأسبابها، فالرحلة لديه **"انتقال واحد أو جماعة من مكان إلى مكان آخر لمقاصد مختلفة، وأسباب متعدِّدة"**[1].

يُعَدّ السَّفر إذًا فعل ارتحالٍ، يكون رهينًا برغبة ذاتية في التحوُّل من مكان إلى آخر من أجل تحقيق أهداف وغايات مادية، أو نفسية، أو معرفية، عبره يمكن تحديد مقاصد الرّحلة وأنماطها لأنه **"يسمح بالتصنيف وهو في الوقت ذاته، يُمكِّننا من تلمُّس خصائص الكتابة"**[2]

وبالنظر إلى رحلة الكاتب فإنها تحققت بسبب دوافع ذاتية وصحية تبرز في قوله: **" أرغمني الطبيب، بل أرغمني انحراف الصحة إلى مغادرة البلدة وتبديل الهواء والإكثار في الجولات، حتى يتسنى لي نسيان المرض وأهواله"**[3] لا تخرج هذه الدوافع عما سنه من فوائد السفر في مقاله" **السفر ظفر**" إذ يرى في الأسفار **"من الفوائد الصحية والعرفانية والرزقية ما لا يتوفر لملازم الوطن"**[4].

تتأطر الرحلة أو السفرة بلحظتي الخروج والعودة، وبينهما تحقق ذات الرحالة مغامرات وتنقلات تجعلها تكتشف الأمكنة والفضاءات، وتتعرف على أعلام وعلماء في مجالات مختلفة. لذلك عرفت رحلة عباس الجراري المنعطفات الآتية:

2-1-المغادرة: تتحدد بخروج الرحالة من موطنه الأصلي الرباط متوجها إلى فاس ثم المنطقة الشرقية وبعدها السعيدية ثم تلمسان، ووهران، والأهلية وبعدها العودة إلى العاصمة الرباطية؛

2-2-المسار الرحلي: يشمل تنقلات الرحالة صحبة الرفقة التي تجسدت في بعض أصدقاء أبيه من المثقفين، معتمدين على سيارة خصوصية من أجل التنقل بين مختلف تلك المحطات الفضائية التي وطأتها أقدام الرحالة ورفقته، وقد تضمن

---

[1] البستاني بطرس، **دائرة المعارف**، بيروت، **1884**، م: **8**، ص: **564.**

[2] كيليطو عبد الفتاح، **المقامات، السرد والأنساق الثقافية**، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، ط**1**، **1993**، ص: **127.**

[3] الموضوع الرابع، **طفولة قلم**، ص:**65.**

[4] السفر ظفر، **طفولة قلم**، ص**44.**

هذا المسار زيارات لمآثر عمرانية، ورياضات، وبساتين، ومناظر جميلة، ومساجد، وأضرحة، ومعاهد علمية، ومراسي، وتماثيل... وغيرها من الفضاءات التي أتقن الرحالة وصفها منبهرا بحسنها وجمالها، مما مكن الوصف من تحويل الرحلة إلى صورة مرئية تتوالى فيها المشاهد، وتتأرجح فيها المرئيات بين الجامد والمتحرِّك، بين الثابت والمتحول، فتنبعث في المكان الحركة والدينامية عبر تفاعل جميع مكوناته وعناصره فجعلته أجدر بالاقتحام، وبالتشوق إلى كشف خباياه واكتشافها.

بذلك تعتبر الرّحلة تجربة إنسانية تخص فردًا أو جماعة من الأشخاص، أقبلوا على الارتحال والسّفر من أجل غاية محددة ومعلومة، لذلك فإنَّها تُعد مسار تكوُّنٍ، وبحثٍ، وتعلّمٍ، يتجدد بتجدد العوالم، وبتنوع الفضاءات، فتصبح الرحلة خزّانًا معرفيًّا ومعلوماتيًّا يُسجِّل فيه الرحالة كل ما مرّ بذهنه، أو بسمعه، أو ببصره، ويتحوّل بوساطته من **"الجاهل إلى العارف، من المعلِّم إلى المتعلِّم، وبالتالي إلى مرسِل جديد يُعيد صياغة إرسالية نحو متلقٍّ يجهل عالم الرّحلة"**[1]

2-3-العودة: ينتهي السّفر بحصول القصد، وبالنجاح في الانتفاع بالرحلة **(**المكاسب العلمية والمعرفية**)**، مما يؤكد ما صرح به عباس الجراري في تصوره حول فوائد السفر بقوله: **" يسافر الإنسان، فيكتسب جليل العلوم والفنون، ويطلع على أحوال الناس، فيرى كيف يعيشون، وكيف يتعاملون، وكيف تسمو الأخلاق وتعلو الثقافة وتسير العوائد"**[2]**.**

عبر هذا البناء يُصبح للنص الرّحلي متلقٍّ خاص، طالب للمعرفة، ومخزّن لمعلومات مكانية، وعرفية، وطقوسية، لأنه ينتظر دائما **"وصفًا للبلدان التي زارها صاحب الرِّحلة [...] وينتظر القارئ كذلك ذكرًا لخصائص البلدان وعاداتها وطقوسها"**[3]**.**

---

[1] مؤدن عبد الرحيم، **رحلة أدبية أم أدبية الرحلة**، فكر ونقد، السنة: **2**، العدد: **20**، يونيو **1999**، **(**ص: **115).**

[2] السفر ظفر، **طفولة قلم**، ص:**45.**

[3] **-** مؤدن عبد الرحيم، **أدبية الرحلة**، دار الثقافة: ط: **1**، **1996**، ص: **23** نقلا عن كيليطو عبد الفتاح: الحديث عن الذات في كتاب التعريف بن خلدون، مجلة الجدل، ع: **6/5**، **1967**، ص: **5.**

3. الخطبة

تمثل الخطبة نوعا نثريا يقوم على فن الإلقاء باعتماد التواصل اللغوي الذي يمكّن الخطيب من تبليغ كلامه لجمهرة من الناس حول موضوع معين، لذلك تختلف الخطب باختلاف مناسبتها وموضوعها والهدف المراد منها. وفي كتاب **"طفولة قلم"** لا نظفر بلفظ الخطبة أو الخطابة وإنما يرد لفظ **"كلمات"** أو لفظ **"حديث"** مما يجعلنا نتساءل: **ألم يكن لدى عباس الجراري في فجر الكتابة وعي بالأجناس الأدبية أم أنه لم يكن يهتم بالتصور الجنسي للأنواع بقدر اهتمامه بالموضوعات الوطنية والقضايا الثقافية؟**

وبالنظر إلى هذه **"الكلمات"** أو **"الأحاديث"** التي هي في الأصل **"خطب"** البعض منها مدون وملقى، والبعض الآخر مدون فقط، فقد تختلف مناسباتها إذ تتوزع بين:

- **المناسبة الوطنية:** العرش والتحرير؛
- **الإصلاح:** الاهتمام بالعمال، والتأسي بالرسول عليه الصلاة والسلام، وتحفيز الشباب على خدمة الوطن؛
- **النهضة:** الاهتمام بالمؤسسات الثقافية والأدبية، وتقديم ستة مقترحات لتقدم الأمة؛

وتتميز هذه الخطب بخصائص بنيوية نذكر منها:

- الحفاظ على الخطاب المقدماتي الذي يتضمن الحمدلة والصلاة والسلام على أشرف المرسلين؛
- الالتزام بوحدة موضوع الخطبة؛
- التباين بين الطول والقصر بحسب ما يمليه مضمون الخطبة؛
- الحفاظ على الخصائص الشفهية للخطبة على الرغم من تدوينها، وذلك باعتماد صيغ الخطاب الدالة على المتلقي أو الجمهور المعني بالخطبة: مولاي صاحب الجلالة، أخواتي الاستقلاليات، وإخواني الاستقلاليين، إخواني...؛

- الاستدلال بآيات القرآن **"لأنه الموعظة الحسنة، والحجة البالغة، والحكمة الباهرة، والهادي إلى الرشاد، والمنجي من الضلال"**[1]؛
- التمثيل بمقاطع شعرية لتحقيق مقاصد؛ منها: إذكاء الحماسة واستنهاض الهمم، المدح وذكر المحاسن؛
- عدم التكلف أو الصنعة في الخطاب، إذ تتساوى الألفاظ بالمعاني حيث خيط ثوب اللفظ على جسد معناه.

4. الرسالة

المراد في الرسائل **" أمور يرتبها الكاتب: من حكاية حال من عدو أو صيد، أو مدح وتقريض، أو مفاخرة بين شيئين، أو غير ذلك مما يجري في هذا المجرى، وسميت رسائل من حيث إن الأديب المنشئ لها، ربما كتب بها إلى غيره مخبرا فيها بصورة الحال مفتتحة بما يفتتح به المكاتبات"**[2]

وبالنظر إلى الرسالة التي بعثها عباس الجراري لوالده عبد الله الجراري أثناء العدوان الثلاثي الغاشم، فإننا لا نجد معالم لمفتتح الرسالة، ويعود ذلك إلى أن:

- الرسالة هي مقتطف من مكتوب مطول، إذ يصرح المرسِل بذلك بقوله: **"من رسالة بعثت بها لوالدي"**[3]، فـ"من" تفيد التبعيض، وذكر الجزء من كل؛

- الرسالة تركز على موضوع واحد يتعلق بتطوع عباس الجراري في جيش التحرير، وتوجز الحديث عن وصف الحال والوضع في مصر، وذلك عبر توظيف الاختزال بقوله: **" قلت بعد أن وصفت الحالة طويلا..."**[4]

وما دامت الرسالة من مرسِل (الابن) إلى مرسَل إليه (الأب)، فإنها تدخل ضمن **الرسائل الإخوانية** التي تعبر عن الفرد في علاقته بذاته، وبشؤونه الخاصة

---

[1] الكلاعي أبو القاسم، **إحكام صنعة الكلام**، تحقيق، الداية محمد رضوان، دار الثقافة، بيروت، ط:**1**، **1966**، ص:**169**.

[2] القلقشندي أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرح: شمس الدين محمد محسن، دار الفكر، ط:**1**، **1987**، ص:**157**.

[3] لماذا تطوعنا في جيش التحرير؟، **طفولة قلم**، ص:**153**.

[4] نفسه، ص:**153**.

والعامة، وبوصف الحالة التي يوجد عليها. لذلك ارتكزت الرسالة على الحديث عن مرحلة تاريخية في مصر إبان العدوان الثلاثي، ويبرر عباس الجراري لأبيه سبب تطوعه في جيش التحرير، فاعتمد هذا التعليل على:

- البناء المنطقي الذي يتأسس على تركيب ثلاثي يتضمن:

أ- الأطروحة المضادة التي تقوم على احتمالين اثنين: الاختباء داخل البيوت، أو الفرار من أرض المعركة؛

ب- الأطروحة: التطوع في جيش التحرير المصري؛

ت- تركيب: خوض الكتيبة المراكشية المعركة.

- الأسلوب الإقناعي الذي يقوم على الهدم والبناء، هدم الأطروحة المضادة والدفاع عن الأطروحة؛

- انشطار الأساليب التعبيرية إلى طريقتين:

أ- الأسلوب الإنشائي الذي يقوم على الاستفهام الاستنكاري: لماذا تطوعنا في جيش التحرير؟ فماذا كان موقفنا يا ترى؟ فأيها سنختار؟ أسئلة يمتلك المرسِل الإجابة عنها لكنه يتوخى منها: التعليل من جهة، وحسن التخلص من جهة ثانية، والتشويق من جهة أخيرة؛

ب- الأسلوب الإخباري التقريري الذي يرتبط بوصف الاختيارات التي كانت أمام الكتيبة المغربية، وتعليل سبب التطوع في جيش التحرير.

- تكرار بعض اللازمات الكلامية التي تعمل بوصفها لاحما بين حلقات الرسالة الثلاث: الأطروحة المضادة، والأطروحة، والتركيب من قبيل: نختبئ في قعر ديارنا، نفر من أرض المعركة، نتطوع في جيش التحرير، نخوض المعركة، مما تكسب الرسالة إحكاما من حيث النسج، واتساقا من حيث البناء.

5. الترجمة الذاتية:

يعرف عباس الجراري الترجمة الذاتية بكونها ذاك **" التأليف الذي يسمونه الأوتوبوجرافيا أو الترجمة الذاتية أو الشخصية أو غير هذه من الأسماء، نكف عن شخص الكاتب الإنسان، ونرى سلوكه وأخلاقه، ونلمس غاياته وأهدافه، ما حقق**

منها وما لم يستطع تحقيقه، وما صاحب ذلك كله من توتر وكفاح وإحساس وآلام. وفيها نتعرف على شخصيته ومزاجه وعقليته، ونتتبع مصادر تكوينها ومراحل تطورها والأسباب العاملة فيها، لنقف بعد ذلك على رأيه وفكره وعقيدته" [1]

إن اهتمام الكاتب بالترجمة الذاتية هو ما دفعه إلى الحديث عن تراجم بعض الشعراء والأعلام المغاربة والمشارقة لكي يبين خصائص إبداعاتهم، ويجمل مختلف مصادرهم، ويبرز روافد معارفهم، من قبيل: أمير الشعراء، وأبو العلاء المعري، وكامل الكيلاني، وابن حبوس، والشابي. إضافة إلى الإشارة الخاطفة إلى مسار أعلام آخرين كان لهم باع كبير في الدرس النحوي الأندلسي، وفي نظم القريض الشعري المغربي. ويهدف من وراء ذلك إلى تحقيق المقاصد الآتية:

5-1-إعادة الاعتبار إلى رجالات المغرب والأندلس، والاعتراف بإرث نوابغ أفذاذ خلفوا إرثا أدبيا ضخما يحتاج إلى الجمع أو التحقيق أو الدراسة؛

5-2-الاهتمام بالأدباء الذين طالهم التهميش والنسيان في حياتهم وبعد مماتهم، الأمر الذي دعا عباس الجراري إلى التفكير في سبل جعل ذكرى هؤلاء الأدباء مخلدة في التاريخ وذلك من خلال:

- جعل الذكرى محفلا ثابتا له مواعيد قارة **" فتخلف من ورائها أفكارا جديدة ومعاني طريفة، تظهر حياة صاحبها في ثوب قشيب يشع المعرفة على مواطني الراحل ومعاصريه وعلى كل الأجيال، ويبين عن آثاره بعد أن يكون قد أكسبها الدوام والخلود. ولا غرابة وفي كل مرة تنضاف إلى مكتبته كتب جديدة تضم ما وصل إليه الباحثون والنقاد"**[2]؛

- الدعوة إلى تخصيص مؤسسات تهتم بأعلام الفكر والأدب بالمغرب، واستشراف إحداث مؤسسات من قبيل: وزارة الثقافة والإرشاد والمجلس الأعلى لرعاية العلوم والآداب؛

---

[1] الترجمة الذاتية، **طفولة قلم**، ص:**182.**

[2] رجالاتنا المنسيون، **طفولة قلم**، ص:**155.**

- التكتل في روابط وأندية توحد أهداف الأدباء والمفكرين المغاربة، وتبعدهم عن الشتات والخلافات الشخصية.

تمثل الكتابة الإبداعية لدى عباس الجراري تجريبا للكتابة، فرغم إبداعه في أنواع أدبية نثرية وشعرية إلا أن ذلك لا يخلو من تأمل فكري وتصور نظري مبثوثين في ثنايا هذه الإبداعات، لذلك فالمبدع يتوارى خلف جبة الباحث المهووس بالقضايا الأدبية والفكرية والوطنية، الأمر الذي جعله يُعرف بكونه ناقدا وأكاديميا، ولم يشع أمر إبداعه إلا في الآونة الأخيرة.

II. أصداء الفكر والبحث المعرفي

إن ذات التلفظ، إلى جانب كونها ذاتا تواصلية، هي ذات معرفية تكشف عن سجلاتها الفكرية والثقافية عبر ملفوظات خطابية تتداخل فيما بينها لتخلق تكاملا بين حقول معرفية مختلفة. وبالعودة إلى كتاب **"طفولة قلم"** لاستجلاء الذات المعرفية لدى عباس الجراري، فإننا سنبرز مجمل **"السجلات النصية"** [1] التي ارتكز عليها في بناء تصوراته النظرية والنقدية والثقافية على اعتبار أن أي بناء نصي يبنى على ثقافة سابقة تمثل مجموعة من الحمولات الثقافية والفكرية والعلمية التي تخلق وضعيات سياقية تسهم في تشييد معاني الأفكار، وفي تحقيق المقاصد المرجوة منها.

يمكننا استجلاء السجلات النصية التي يقوم عليها الفكر الجراري من خلال العناصر الآتية:

1) السجل اللغوي:

يبرز هذا الملمح في اهتمام الكاتب عباس الجراري بالقضايا اللغوية والنحوية، غيرة منه على اللغة العربية التي من منظوره يجب العناية بأساليب كتابتها كما نهتم باللغة الفرنسية، الأمر الذي دعاه إلى الحديث عن "مفاصل الكلام

---

[1] مفهوم "السجل النصي" استقيناه من تصورات آيزر ولفغانغ أثناء حديثه عن فعل القراءة، انظر: طليمات عبد العزيز، **فعل القراءة، بناء المعنى وبناء الذات، قراءة في بعض أطروحات ولفغانغ آيزر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، **1993**، صص:**155/154**.

ومواقفه"[1]، كما عُني ببعض الظواهر النحوية من قبيل درس النسبة[2]، ومنهج الأندلسيين في الدرس النحوي[3] متوخيا من وراء ذلك، إبراز اجتهادات المغاربة في بعض المسائل النحوية باتخاذهم العلوم الفقهية اللغوية مرجعا، وتأثير المدرستين الكوفية والبصرية على الدرس النحوي بالأندلس والمغرب.

2) السجل النقدي:

عالج عباس الجراري في هذا السجل بعض قضايا الأدب وظواهره، إذ عمل على تحديد مفهوم الأدب باعتباره **"كل الإنتاج العقلي والشعوري متمثلا في الميادين العلمية والفلسفية والأدبية"**[4]، وقام برصد تطور هذا المفهوم تاريخيا على مر العصور العربية، وحاول التمييز بين التاريخ العام والتاريخ الأدبي: **"فالتاريخ العام يبحث في الأشياء العامة المشتركة من نظم وحركات وثورات وغيرها من الظواهر والتيارات، سياسية كانت أو اقتصادية، ثقافية كانت أو اجتماعية(...). أما التاريخ الأدبي فهو يعنى بخاص الأشياء دون عامها وجزئياتها دون كلياتها، فهو يدرس المدرسة هذه والكاتب ذاك ليتوصل إلى خصائص كل منهما"**[5]، ويحدد مرجعيات تاريخ الأدب بالوقوف على نظريات كل من سانت بوف وهيبوليت تين وبرنوتيير، مما يؤكد إلمام الكاتب بما ورد في الثقافة المغربية من مناهج حديثة تقارب الأدب باعتباره انعكاسا للمحيط العام بأحداثه التاريخية ومؤثراته الزمنية.

كما سلط الضوء في مقالاته على أغراض الشعر العربي، فخص مبحثا بالحديث عن الغزل، وقسمه إلى ضربين: **" فأما الأول؛ فمصطنع لا ينبعث عن حب، ولا يصدر عن عاطفة، وهو الغزل الصناعي. أما الثاني؛ فصادر عن حب، قد يكون طبيعته العشق يقتصر فيه الشاعر على امرأة واحدة بعينها يحبها في وفاء**

---

[1] مفاصل الكلام ومواقفه، **طفولة قلم**، ص:**32.**

[2] النسب، **طفولة قلم**، ص:**224.**

[3] مناهج الأندلسيين في دراسة النحو، **طفولة قلم**، ص:**290.**

[4] في الأدب وتاريخه، **طفولة قلم**، ص:**138.**

[5] نفسه، ص:**141.**

وإخلاص وتضحية، وهو الغزل العذري، وقد يكون طبيعته اللهو والمتعة، يرضي به صاحبه شعوره متنقلا من محبوبة إلى أخرى غير متقيد بعشق أو وفاء، وهو الغزل الإباحي"[1]. ناهيك عن رصده لأسباب ظهور غرض الغزل بصنفيه، ومصادرهما، ومراحل تطورهما عبر العصور التاريخية لدى العرب. وفي هذا التتبع النقدي يبدو لنا تشبث الكاتب بتاريخ الأدب باعتباره ركيزة أساسية في معرفة الأدب، وإبراز خصائصه.

وفي معرض حديثه عن النقد الأدبي عن العرب، سعى إلى القبض على المعايير النقدية التي كان يتكئ عليها دارس الشعر ومتلقيه في مختلف مراحل تطور الشعر العربي، إذ ربط معيار الانطباعية والتذوقية بمرحلة الجاهلية، وألحق المعيار الديني ومعيار الطبع والتكلف بالمرحلة الإسلامية، واعتمد المعيار النحوي في العصر الأموي، أما في العصر العباسي فقد اتخذ النقد اتجاهين مختلفين، أحدهما ظل متبعا لنهج القدامى، في حين اعتمد الاتجاه الثاني على أسس علمية تستند إلى المناهج والتأليف وتصنيف الكتب وترتيبها.

كما عرف النقد العربي تطورا بعد ترجمة كتب أرسطو، مما أدى إلى دخول مباحث علمية ومعرفية إلى دائرة الأدب والنقد العربيين، مما يؤدي إلى انفتاح الدرس النقدي على البلاغة وقواعدها العامة. من ثمة استطاع هذا الانفتاح جعل النقد والبلاغة في تلاحم خدمة للدراسة الأدبية، مع مراعاة مجال واختصاص كل منهما **" فالنقد ينظر في الكلام بعد إنشائه، ويتخذ من قوانينه مقاييس لتقدير ما فيه من محاسن ومساوئ، وتضع البلاغة للأديب القوانين التي تساعده على التعبير الواضح الجميل"[2]**

هكذا يبين لنا الوعي النقدي لدى عباس الجراري أن تطور النقد الأدبي وارتقاءه إلى مستوى الموضوعية والنهج العلمي الدقيق لا يمكن إلا بتحويل النقد إلى ممارسة علمية تتكئ على مناهج نقدية تاريخية كانت أم نفسية أم اجتماعية، من

---

[1] الغزل العربي ين الجاهلية والإسلامية، **طفولة قلم**، ص:**160.**

[2] النقد الأدبي عن العرب، **طفولة قلم**، **(ص:222).**

أجل إصدار الحكم الفني وإبداء التقييم الجمالي، مع الاستعانة بالبلاغة لكونها رهينة الجانب الفني الذي لا يستقيم دون العناية بالجوانب اللغوية والنحوية والبيانية.

3) السجل الثقافي:

يميز عباس الجراري في الثقافة بين صنفين، هما:

- الثقافة الخاصة: وهي الثقافة المتميزة أو "الثقافة الممتازة". تتمثل في مجموعة المعارف التي تتصل بالتخصص؛

- الثقافة العامة: يشترك فيها جميع المثقفين، بل جميع المواطنين، وهي التي أقصد من العلوم والفنون والآداب. تتمثل في قدر متعارف عليه[1].

ونفسر عناية الكاتب بالشأن الثقافي، وبتحديد وسائطه المؤسساتية والتواصلية والقرائية بـ:

- إيلاء الاهتمام بالعلوم الإنسانية من أدب وفلسفة وفكر؛
- منح الفنون دورها في تهذيب النفوس ونشر القيم؛
- خلق التكامل بين العلوم والفنون لكي لا تضمحل الصفات الإنسانية من سلوكيات الأفراد والجماعات.

وفي هذا السياق، ستؤدي الثقافة وظيفتها المتمثلة في تشكيل وعي الأفراد، وبالتالي في النهوض بالمجتمع والعمل على إصلاحه، الأمر الذي دفع عباس الجراري إلى الدعوة لمكافحة الجهل والفقر، والاعتناء بالتعليم والعمل على تعميمه، وبث روح التربية الوطنية في المواطنين لكي يصبحوا على دراية بحقوقهم وواجباتهم.

4) السجل التنموي:

لا يمكن للثقافة أن تحقق أكلها دون التفكير في البنيات الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالفرد والمجتمع، لهذا قدم عباس الجراري ستة مقترحات لنهضة المغرب وتقدمه، وحصرها في: إنشاء الشركات والمصانع، الرفع من الأجور،

[1] في الثقافة، **طفولة قلم**، ص:**143**.

حماية ملكية الفلاح، التأمين وفتح صناديق التوفير، ضمان السكن اللائق والقضاء على دور الصفيح، الرهان على العمل والإنتاجية.

عبر هذه الاقتراحات، يبين لنا عباس الجراري كيفية إسهام الفكر في الخدمة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد، ولهذا يرفض فكرة الفن للفن، ويرفض كذلك مكوث المبدع في برجه العاجي، بينما يدعو إلى اقتراب الكاتب والمثقف والمبدع من هموم الجماهير، وإلى الانخراط في البحث عن حلول لها، بما يجعله مخَلَّدا بأعماله ذهنيا وتاريخيا.

5) السجل القيمي:

إذا كانت الثقافة تنتج الوعي الفكري فإن القيم تنتج الكائن/ الإنسان الذي يتفاعل وينفعل مع محيطه الخارجي، يؤثر ويتأثر بما يقع حوله من أحداث. لذلك يؤكد عباس الجراري على حمل الروح الإنسانية من خلال تشكيل ذات الفرد بما يلزمها من الأخلاق وحسن المعاملة. فكان يتوجه بمجمل خطاباته إلى الشباب من أجل دعوتهم إلى الصحبة الطيبة عبر اختيار الصديق، وإلى الشورى والتشاور من أجل الفلاح، وإلى التعلق بمبادئ الإسلام، وإلى التضحية من أجل التقدم، وإلى التحلي بالأخلاق الكريمة، إلى التفكير وطلب العلم، وإلى العمل والجد.

إن عملية بناء القيم عملية تتضافر فيها جهود أقطاب متعددة؛ منها: الأسرة، والمؤسسة التعليمية، والمجتمع، ووسائل الإعلام، وكذلك الأدب والفكر باعتبارهما إنتاجين يصدران من الإنسان ويوجهان إلى الإنسان.

تركيب:

نستشف من خلال قراءتنا لكتاب: **عباس الجراري، "طفولة قلم"** أننا أمام كاتب متعدد، ومن مظاهر هذا التعدد، أنه كاتب:

- ✓ **أديب:** لأن شغله الشاغل انحصر في تكوين الأديب المثقف الذي يخبر الفقه وعلم اللغة، والعروض، والشعر، والنثر، والمناهج النقدية؛

✓ **أكاديمي:** لتركيزه على البحث العلمي، ولشغفه بالدرس الأدبي والفكر النقدي، وربط الأدب بسياقاته المختلفة: التاريخية والسياسية والمذهبية، والفكرية؛

✓ **صحفي:** لاهتمامه بالإصلاح والنهضة التنموية اعتمادا على الجانبين الاجتماعي والأخلاقي هذا من جهة، ومن خلال إيجاد جسور المصالحة بين الجامع والجامعة، وبين الفقيه والمثقف، وبين القديم والحديث، وبين المغرب والمشرق، وبين المغرب والغرب.

تعد **الهوية المغربية** اللاحم بين مناحي هذا التعدد، إذ حرص عباس الجراري على الاعتناء بالتراث المغربي ورجالاته، كما أولى الاهتمام بالأدب المغربي وبأشكاله الخطابية المتباينة، وفي مختلف مراحله التاريخية دفاعا منه على الكيان المغربي، والهوية المغربية.

***

المصادر والمراجع

1. احميدة محمد، **من ديوان عباس الجراري**، منشورات النادي الجراري، العدد:**73**، الجزء:**1**، ط:**1**، **2017**.

2. البستاني بطرس، **دائرة المعارف**، بيروت، م: **8**، **1884**.

3.، **الجراري عباس ، طفولة قلم**، جمع وإعداد وتقديم د. سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري، رقم: **102**، ط:**1**، **2020**.

4. طليمات عبد العزيز، **فعل القراءة، بناء المعنى وبناء الذات، قراءة في بعض أطروحات ولفغانغ آيزر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية عين الشق، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، **1993**.

5. القلقشندي أحمد بن علي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، شرح: شمس الدين محمد محسن، دار الفكر، ط:**1**، **1987**.

6. الكلاعي أبو القاسم، **إحكام صنعة الكلام**، تحقيق، الداية محمد رضوان، دار الثقافة، بيروت، ط: **1**، **1966**.

7. كيليطو عبد الفتاح، **المقامات، السرد والأنساق الثقافية**، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، ط**1**، **1993**.

8. مودن عبد الرحيم:

- أدبية الرحلة، دار الثقافة، ط**1**، **1996**.

- **رحلة أدبية أم أدبية الرحلة**، فكر ونقد، السنة: **2**، العدد: **20**، يونيو **1999**.

9. نالينو كارلو، تاريخ الآداب العربية من الجاهلية إلى عصر أموية، دار المعارف، ط:**2**، **1970**.

10. يقطين سعيد، الأدب والمؤسسة، نحو ممارسة أدبية جديدة، منشورات الزمن، مارس، **2000**.

***

د. ادريس الشراوطي

- أستاذ باحث، القنيطرة.

- حاصل على الدكتوراه في الأدب العربي من كلية الآداب، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.

- شارك في العديد من الندوات، منها: ندوة الخطاب الأدبي والبلاغي في كتابات محمد الصغير الإفراني، بالكلية المتعددة التخصصات، بمدينة الرشيدية (2015).

- نشر عدة مقالات في مجلات مغربية، (المناهل، دعوة الحق).

- المنشورات: الكتب

1- إظهار الكمال في تتميم مناقب سبعة رجال، لعباس بن ابراهيم، تحقيق ودراسة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، (الرباط، 2013).

2- إحراز الخصل، في فهرسة القاضي أبي الفضل، عباس ابن ابراهيم المراكشي، تحقيق وتقديم، منشورات الرابطة المحمدية للعلماء بالمملكة المغربية، (الرباط، 2013).

3- كنّاشة عباس بن ابراهيم المراكشي، تحقيق وتقديم، دار المقتبس، (لبنان 2014).

4- فهارس النعيم المقيم في ذكرى مدارس العلم ومجالس التعليم، محمد بن محمد المرير، منشورات جمعية تطاون أسمير، (تطوان، 2014).

5- فهارس عمدة الراوين في تاريخ تطاوين، منشورات جمعية تطاون أسمير (تطوان 2015).

6- رحلة محمد بن علي دينية الحجازية « نشر الأعلام بإتمام المرام، في ذكر مراحلنا إلى مصر والحجاز والشام»، تحقيق ودراسة، منشورات النادي الجراري، رقم: 5 (الرباط 2020).

7- روض المقالة، أو سوانح القلم لعبد الله الجراري، إعداد وتقديم، منشورات النادي الجراري، رقم: **99**، **(الرباط، 2020).**

ضمن كتاب جماعي: **1-** قراءة في شعر الشاعرة سميرة فرجي، ضمن كتاب «احتفاء بالقصيدة المغربية المعاصرة»، تنسيق، د.عبد الله بنصر العلوي ود.محمد احميدة، إصدار النادي الجراري بالرباط والمركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق أوسطية والخليجية بفاس، **(الرباط، 2019).**

2- جعفر ابن الحاج السلمي الشاعر، ضمن كتاب «أقوم منهاج في تكريم جعفر ابن الحاج»، منشورات جمعية تطاون أسمير، **(تطوان، 2015).**

3- الدكتور محمد احميدة مديراً لمجلة «المناهل» المغربية، ضمن كتاب «الأدب المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب»، نشر كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، **(الرباط، 2014).**

***

الإرهاصات الشعرية الأولى للشاعر عباس الجراري

د. إدريس الشراوطي

إذا كان أصل الكتاب فِكرة، وأصل الدّوحة بذرة، وأصل المدينة حجَرة، فإنّ أصل الشّاعر طفلٌ وُهِب القدرة على قرْض الشّعر، فَصَقَلَ الموهبة بمحاولات شعريّة طفوليّة ضاع أكثرها، وبقي أقلّها، وعديد هم الشّعراء الّذين حدّثنا التّاريخ عن موهبتهم الشّعريّة الّتي تفتّقت منذ نعومة أظفارهم، كما هو الأمر مع الشّاعر الجاهليّ طرفة بن العبد الّذي قال وهو صغير:

يـــا لـــك مـــن قُـــبّرة بمعمـــر خلا لك الجوّ فبيضـي واصـفري
قـد رُفِـع الفـخّ فمـاذا تحـذري ونقّـري مـا شـئت أن تُنقّـري
قد ذهب الصّيّاد عنك فابشري لا بدّ يوما أن تُصـادي فاصـبري

وإذا كان عميد الأدب المغربيّ الدّكتور عبّاس الجرّاريّ يُعرف كاتبا مفكّرا، فإنّه شاعر كذلك، فكثير هم الكُتّاب المغاربة الّذين هم شعراء ولهم دواوين شعريّة، غير أنّ هذا الجانب بقي في الظّل، كما هو الأمر مع علّال الفاسيّ ومحمّد المختار السّوسيّ، وغيرهم كثير، وذلك راجع إلى أنّهم مَنحوا اهتمامهم للكتابة النّثرية الّتي اتّخذوها وسيلة لنشر الوعي في بلدهم المغرب، خاصّة وقد عاصروا مرحلة مخضرمة تأرجحت بين الخضوع للاستعمار وفجر الاستقلال.

ولكن، لكم في الزّوايا من خبايا، فأشعار هؤلاء الكُتّاب المغاربة لَفَتَت بدورها انتباه المتلقّين، لأنّ الشّعر غالبا ما يتّسم بالذّاتيّة ويعكس وجدان صاحبِه، ممّا يسمح بالكشف عن جوانب خفيّة قد لا تُبديها كتاباتهم النّثريّة.

وقد التفت النّادي الجرّاريّ العتيد إلى ما نَظَمَه فضيلة الدّكتور العميد عبّاس الجرّاريّ من أشعار، وأصدر منها لحدّ السّاعة جزأيْن بعنوان **"من ديوان عبّاس**

الجرّاريّ"[1]، من إعداد وتقديم مؤرِّخ النّادي الدّكتور الباحث الأستاذ محمّد احميدة، وهو عنوان يوحي بأنّ أجزاء أخرى آتية في الطّريق، وهو عمل يكشف عن شاعر تلقّى مبادئ النّظم العربيّ من منابعه الأصيلة الصّافية، جعلت منه شاعرا من الشّعراء المغاربة الّذين لا يزالون إلى يومنا هذا ينظمون الشّعر في الإيقاع الخليليّ، فكيف لمن يقول:

هجران[2]

هجرتِ وما تدرين أنّي حائر وقلبي مهموم وما أنا صابر
وعقلي كالمجنون أصبح ثائرا على كلّ ما حولي وفكري عاقر
وصدري غدا لا يستكين تنهّدا وعن سيل دمعي ليس تهدا المحاجر
غدا كلّ عيشي بعد هجرك داجنا وأضحت حياتي ليس إلّا أعاصر
لقد كنت أسلو عند قربك راضيا فأصبحت لا أسلو وبؤسي ذاعر

ألّا يكون شاعرا بالفطرة، نَظَم شِعرا مستويا شامخا أنيقا حُلوا عذبا منسابا من ذات شاعرة منذ نعومة أظفارها.

وقد كشف عن التّجربة الشّعريّة الطّفوليّة الشّبابيّة للشّاعر عبّاس الجرّاريّ الدّكتور سي محمّد أملح في الكتاب الّذي جمعه وأعدّ له وقدّم له "طفولة قلم"[3].

صحيح أنّ هذا الكتاب لم يضمّ بين دفّتيه سوى ستّ صفحات للجانب الشّعريّ لفضيلة العميد عبّاس الجرّاريّ إبّان طفولته وبداية شبابه، ولكنّها بكلّ تأكيد عنوان ملخِّص لما سيأتي بعدها من أشعار، ومن الجميل أنّ قطعة شعريّة واردةً في هذا الكتاب يُعبّر فيها صاحبها عن بداية تجربته الشّعرية منذ صغره، يقول:

الشّعر قد طلبتُهُ في صغري قرضتُهُ
كلامه ظريفٌ وحِفظه خفيفٌ

---

[1] ـ صدر الجزءان الأوّل والثّاني عام 2017، بدار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، منشورات النادي الجراري، من إعداد وتقديم الدكتور محمد احميدة.

[2] - من ديوان عبّاس الجرّاريّ: جـ، 1، ص 51.

[3] ــ طفولة قلم لعبّاس الجرّاريّ، جمْع وإعداد وتقديم د. سي محمّد أملح، مطابع الرّباط نت، الطّبعة الأولى 2020، منشورات النّادي الجرّاريّ رقم 102.

لِـــــذا أنـــــا أحببتـــــهُ وقطعـــــــا حبرتـــــــهُ
والآن قـــــــد شـــــــعرتُ بقلمـــــــي بـــــــدرتُ
بـــــــدأت رجـــــــازا فحـــــــزت الامتيـــــــازا
وهكـــــــذا ســـــــأبقى لكـــــي أحـــــوز السّـــــبقا

وسأحاول الوقوف عند هذه التّجربة الشّعريّة الطّفوليّة من ناحيتي الشّكل والمضمون، عساني أُظهر بعض مكنوناتها الّتي تكون بداية لأعمال قادمة:

الشّكل:

ضَمّ كتاب **"طفولة قلم"** قطعة شعريّة وستّ قصائد ونُتفة شعريّة، عدد أبياتها مجموعة خمسة وتسعين بيتا شعريّا **(95)**، وقد جاءت كالآتي:

قطعة شعريّة بعنوان **"الشعر"** من ستّة أبيات.

قصيدة موسومة بـ**"لُغز"** من ثمانية أبيات.

قصيدة **"بني وطني"** من ثلاثة عشر بيتا شعريّا.

قصيدة **"صرخة على لغة الضاد"** من ثلاثة وعشرين بيتا شعريّا.

قصيدة **"الرّجال أربعة"** من ثمانية أبيات.

قصيدة **"يوم العيد"** من عشرة أبيات.

نُتفة شعريّة بعنوان **"في طلب العلم"** من بيتين شعريّيْن ثمّ بيتين شعريّيْن آخريْن.

والملاحظ أنّ هذه الأشعار كلّها معنونة بعناوين ملخِّصة لمضامينها، ومؤرَّخة بتاريخ نظْمها، وهو العام **1954**م، ولا شكّ أنه قد نظم غيرها ممّا قد ضاع أو لم يخرج إلى حيّز الوجود بعد، مما يبيّن أنّ الشّاعر عبّاسا الجراريّ غزير العطاء الشّعريّ.

في المضمون:

تقوم مضامين الأشعار الواردة في كتاب **"طفولة قلم"** على الدّعوة إلى بناء نهضة الأمّة المغربيّة على أركان خمسة هي:

ـ الإنسان قبل العمران

ـ العلم

ـ الحرّيّة

ـ الأخلاق

ـ اللّغة

رغم أنّ أشعار الشّاعر عبّاس الجرّاريّ المنتمية إلى مرحلة الطّفولة وبداية الشّباب الواردة في كتاب **"طفولة قلم"** لا تتجاوز ثمانية عناوين، إلّا أنّها ضمّت مضامين متنوّعة، وإذا كان من عادة الشّعراء في هذه المرحلة أن يَنظُموا أشعارا مترجِمة لأحاسيسهم وعواطفهم، فإنّ أشعار الشّاعر عبّاس الجرّاريّ الطّفوليّة جاءت على العكس تماما، إنّها لسان ناطق بفكر مُتّقد وإحساس جارف بالمسؤوليّة الكبرى الملقاة على العاتق تِجاهَ قضايا الوطن بالأساس، فهذه قصيدة **"وطني"** صرخة نابعة من أعماق شاعر ساعٍ إلى التّغيير، بنشر الوعي في صفوف أبناء وطنه، كيف لا وهو آنذاك رازح تحت الاستعماريْن الإسبانيّ والفرنسيّ، ففي هذه القصيدة يدعو بني وطنه إلى طلب العلم، يقول في مطلعها: [1]

بنـــي وطنـــي مـــا لكـــم راكنـــينْ إلى الجهـــل منـــذ قـــديم السّـــنينْ؟

ويقول في البيت السّادس:

وشـــــادوا إلى العلـــــم راياتـــــه مرفرِفـــــة في احمـــــرار مكـــــينْ

وفي البيت الحادي عشر:

بتثقيـــــف أرواحنـــــا بـــــالعلوم فكُنّـــا جميعـــا مـــن الفـــائزينْ

فالشّاعر يرى أنْ لا مستقبل للبلد إلّا في نعيم العلم، وهي رؤيا استباقيّة للأستاذ عبّاس الجرّاريّ، ففي وقتنا الحاليّ بات مفهوم التّنمية ينبني على **"الإنسان قبل العمران"**، فالبلدان الّتي راهنت على ثرواتها الطّبيعيّة بقيتْ متخلّفة معتمدة على غيرها في كلّ حاجاتها، عكس الدّول الّتي أهّلت كفاءاتها البشريّة فقد قطعت أشواطا هائلة في طريق التّقدّم والازدهار.

[1] ــ طفولة قلم، ص، **79.**

وفي نفس المضمون تندرج القصيدة الموسومة بـ"**سيروا بنا**"[1]، هذا العنوان الّذي اتّخذه الشّاعر لازِمة كرّرها أربع عشرة مرّة، فهذا مطلعها تكرّرت فيه مرّتين:

سـيروا بنـا نحـو العُـلا فهـي مرتـع سـيروا بنـا فالقلـب ثمّـتَ مـودَعُ

ففيها إصرار ودعوة مُلحّة إلى ضرورة النّهوض والتّحرّك في سبيل الرُّقيّ والعزّة والتّقدّم والازدهار، فـ"**سيروابنا**" أمر حافل بالنّشاط والعزيمة،

سـيروا احفظـوا مجـدا بعلـم نـافع فبالاجتهـاد عـن الجهالـة نُقلـعُ

كما أنّ النُّتفة الشّعريّة "**في طلب العلم**"[2] من عنوانها يتّضح موضوعُها الّذي لا يكلّ الشّاعر أو يملّ من الدّعوة بإصرار إلى الإمساك بمشعل العلم والمعرفة والثّقافة، فلا مُنير لطريق الأمّة إلّا نبراس العلم، يقول فيها:

فطـالعْ مـن الأسـفار كـلّ نفيسـة ونقّب ففي الأسـفار حلـو المناهـل
وجـالسْ ذوي علـم وذاكـرْ بخـبرة تجـدّد لنـا عهـد العـلا والفضـائل

كما نُلفي في طيّ هذه الأشعار تمسّكا **بالحرّيّة** وتخلّصا من قيود فرضها الاستعمار الجاثم على صدر الوطن، وتقاليد بالية آن الأوان إلى تجاوزها، وينجلي ذلك في دعوته إلى الانطلاق في أحضان الطّبيعة الغَنّاء والاستمتاع بمفاتنها وروائعها، [3]

سيروا بنـا نحـو الرّيـاض فإنّنـا أزهـاره مـا دام البـدر مطلـع
سـيروا بنـا نحـو الجِنـان فإنّنـا عـلى أغصـانها نحـن نسـجع
سيروا بنا نقطف ثمـار حـدائق فقطوفهـا للـنّفس رِيّ يشـبع
سيروا بنا نحو السّماء نكـن لهـا كنجوم ليل في الدّجى هي تسطع
سـيروا بنـا صـوب أمّنـا فلأنّنـا لحـديثها ونكاتهـا نتقنـع
سيروا بنا للغـاب نحـن أسـودها فـدويّها وزئيرهـا لنـا مـدفع

---

[1] ــ طفولة قلم، ص، **82.**
[2] ــ نفسه، ص، **83.**
[3] ــ نفسه، ص **82.**

إنّ الشّاعر عبّاسا الجرّاريّ وهو يَنظُم هذه الأشعار، ورغم حداثة سنّه يُفصح عن ذاك الإنسان المهذَّب المهذِّب، ففي قصيدة **"الرّجال أربعة"**[1] تجد حديثه عن البِرّ **والأخلاق**، وكأنّه يرى ما سيعرفه المجتمع من تفكّك ومشاكل أسريّة أبعدت الأقرباء، وحوّلت البلد من مجتمع تكافليّ يعيش في دفْء أحضان كلّ أفراد الأسرة والعائلة والدّرب والحيّ، إلى بيوت متحجّرة الأحاسيس، مُغلقة أبوابها، محدودة العلاقات.

وفي هذه الأشعار دعوة إلى الحفاظ على لسان الأمّة العربيّة **"لغة الضّاد"**، كيف لا، والشّاعر دوحة من البستان الجرّاريّ الّذي حمل مشعل الحفاظ على أسس العروبة والإسلام، في مرحلة حرجة اتّسمت بالصّراع ما بين الارتماء في أحضان الغرب، أو التّمسّك بالهويّة الأصيلة، وهل قامت نهضة أمّة من الأمم في بلدان العالم إلّا على أساس **اللّغة** الأم، فقصيدة **"صرخة على لغة الضّاد"**[2] فيها رؤيا لما ستعرفه الأمّة من مسخ لغويّ جعلها غير قادرة على تحقيق نهضة شاملة تُخرجها من ظُلمة التّخلّف إلى نورانيّة التّقدّم، وإلى التّخلّص من تبعيّة طال أمدها، يقول فيها:

لســـــانُنا العربـــــيّ ... لســـــانُنا العربـــــيّ
علتـــــه عجمـــــة مـــــن ... عـــــاداه بالرّيـــــبِ
ألا أغيثـــــوه تنـــــــ ... جـــــوا مـــــن العطـــــبِ

ولأنّ النّفس بعدما تكدّ وتجدّ وتعمل بمثابرة ونشاط وعزيمة تحتاج إلى التّرويح عنها، واغتنام هُنيهة لتجديد طاقتها، فإنّنا نجد الشّاعر عبّاسا الجرّاريّ يهتمّ بالألغاز، لأنّها ممّا يُنشّط الذّهن ويحفّز الذّكاء، ويُعطي فرصة للاستمتاع بلحظات جميلة رفقة الأقران والخلّان، ففي قصيدة **"لغز"**[3] يقدّم لنا الشّاعر حكاية "الرّاعي والخروف والعشب والذّئب"، ذاك الرّاعي الّذي أراد عبور النّهر على متن فُلْك بالٍ لا قدرة له على حمل أكثر من اثنين، وهو لغز لا يزال صامدا إلى وقتنا

---

[1] ــ طفولة قلم، ص **81**.

[2] ــ نفسه، صص، **79-80**. وهي قطعة بناها على أبيات في الموضوع لوالده رحمه الله.

[3] ــ نفسه، ص **78**.

الحاليّ، وقد تحوّل إلى أشرطة في قنوات "اليوتيب"، ممّا يعكس ذاتا شاعرة مهتمّة بالإنسان روحا وجسدا.

وتزداد هذه المضامين وضوحا بالوقوف عند الخصائص الفنّيّة للأشعار الطّفوليّة للشّاعر عبّاس الجرّاريّ، ولا سيما في بِنيتيْها الإيقاعيّة والأسلوبيّة.

البنية الإيقاعيّة:

إنّ الشّاعر عبّاسا الجرّاريّ ينتمي إلى المدرسة الشّعريّة الجرّاريّة الّتي تُحافظ وتدعو إلى المحافظة على أسس القصيدة العربيّة الأصيلة القائمة على الوزن الخليليّ، ولذلك فلا غرْو أن تأتي كلّ أشعاره مستوفية لكلّ الأسس الشّعريّة التّقليديّة الموروثة، معنى ومبنى، ويتّضح ذلك جليّا من الوقوف عند أشعار كتاب **"طفولة قلم"** من ناحية بنيتها الإيقاعيّة الخارجيّة والدّاخليّة.

البنية الإيقاعيّة الخارجيّة:

يعتمد الشّاعر عبّاس الجرّاريّ على وحدة الوزن، القائم على بحر من البحور الخليليّة، فقد نَظَمَ قطعته الشّعريّة الموسومة بـ**"الشعر"**[1] في مجزوء الرّجز:

الشّـــــعر قـــــد طلبتـــــه في صـــــــغري قرضـــــــته

وقصيدة**"لغز"**[2] في بحر الرّجز:

لي حـديث معْـك يـا صـديقي مهيـــأ منـــذ قـــديم بـــاق

وكذلك قصيدة **"الرّجال أربعة"**[3] في نفس البحر:

أربعـــة بهـــم قـــوام الـــدارِ إن كنـت جـاهلا فـذا قـراري

بينما قصيدة **"بني وطني"**[4] فقد نَظَمَها في بحر المُتقارب:

بنـي وطنـي مـا لكـم راكنـينْ إلى الجهـل منـذ قـديم السّـنينْ

---

[1] ــ طفولة قلم، ص **78.**

[2] ــ نفسه، ص **78.**

[3] ــ نفسه، ص **81.**

[4] ــ نفسه، ص **79.**

فيما قصيدة **"يوم العيد"**[1] فقد جاءت في بحر الكامل:

عيـــد عليـــه تحيّـــة وســـلام هامـــت بـــه الكُتّـــاب والأقـــلام

بينما التّحفة الشّعريّة الموسومة بـ**"في طلب العلم"**[2] فقد نَظَمَها في بحر الطّويل.

ليكون الشّاعر عبّاس الجرّاريّ قد استعمل أربعة أبحر شعريّة في هذه الأشعار هي: الرّجَز والمتقارب ثمّ الكامل والطّويل، ممّا ينمّ عن قدرة في النّظْم في مختلف الأوزان الخليليّة حسَب ما أملاه السّياق العامّ للقصيدة، فالوزن يأتي مُنسابا عفويّا بعيدا كلّ البعد عن تكلّفه واختياره مسبقا وإفراغ الألفاظ فيه.

ويتجلّى الحفاظ على الأسس المتينة للشّعر العربيّ التّقليديّ في تطريز مطالعها بالتّصريع، وهو ديدن سار عليه الشّعراء منذ فجر هذه التّجربة الشّعريّة العربيّة العريقة، ومن أدلّة ذلك قوله في مطلع قصيدة **"بني وطني"**:

بنـــي وطنـــي مـــا لكـــم راكنـــينْ إلى الجهـــل منـــذ قـــديم السّـــنينْ

كما قامت هذه التّجربة الشّعريّة الطّفوليّة للشّاعر عبّاس الجرّاريّ على وحدة القافية والرّويّ، فهذه قصيدة **"يوم العيد"**الّتي مطلعها:

عيـــد عليـــه تحيّـــة وســـلام هامـــت بـــه الكُتّـــاب والأقـــلام

جاءت قافيتها مطلقة مردوفة موصولة بمد، ورويّها هو الميم.

وهذه قصيدة **"سيروا بنا"**[3] الّتي بدايتها:

سيروا بنا نحو العـلا فهـي مرتـعُ سيروا بنـا فالقلـب ثمـت مـودعُ

وردت قافيتها مطلقة مجرّدة عن الرّدف والتّأسيس.

وهذه قصيدة **"بني وطني"** الّتي مُستهلّها:

بنـــي وطنـــي مـــا لكـــم راكنـــينْ إلى الجهـــل منـــذ قـــديم السّـــنينْ؟

أتت قافيتها مقيَّدة مردوفة بياء.

---

[1] ــ طفولة قلم، ص **81.**

[2] ــ نفسه، ص **83.**

[3] ــ نفسه، ص **82.**

البنية الإيقاعيّة الدّاخليّة:

ومن جهة البنية الإيقاعيّة الدّاخليّة، فإنّ هذه الأشعار الطّفوليّة لم يركن فيها الشّاعر إلى هيمنة حركة على أخرى، وينجلي ذلك من أروائها الّتي جاءت أحيانا مضمومة، مثل:

الشّـــــعر قـــــد طلبتـــــهُ في صـــــــغري قرضـــــــتهُ[1]

وأحيانا أخرى مكسورة، كـ:

لي حـديث معْـك يـا صـديقي مهيـــأ منـــذ قـــديم بـــاقِ[2]

مرّة أخرى ساكنة، من قبيل:

بنـــي وطنـــي مـــا لكـــم راكنـــينْ إلى الجهـل منـذ قـديم السّـنينْ؟[3]

هذا مع احتفاء واضح بتكرار الصّوامت المجهورة، الّتي تتساوق مع مواضيع هذه الأشعار الّتي تحتاج إلى المناداة بأعلى صوت، إبلاغا لرسالتها الدّاعية إلى النّهوض وطلب العلم والتّشبّث بأسس الهويّة المغربيّة الأصيلة، فباستثناء المقطع الشّعريّ الأوّل **"الشّعر"** الّذي اختار له رويّا مهموسا "الهاء"، فإنّ الأشعار الأخرى كلّها جاءت أرواؤها مجهورة، وهي على التّوالي: (القاف ـ النّون ـ الباء ـ الرّاء ـ الميم ـ العين ـ اللّام)، كما قام الإيقاع الدّاخليّ كذلك على الاحتفاء بتكرار الكلمات، مثلما هو الحال في قوله في قصيدة **"صرخة على لغة الضّاد"**:

لســـــــاننا العربـــــــيّ دوّى مـــــــن الغهـــــــب
لســـــــاننا قرآننـــــــا أصـــــــيب باللّهـــــــب

وقوله في نفس القصيدة:

قومـــــوا اعملـــــوا للعُـــــلا فالمجـــــــد في التّعـــــــب
اِثْعَـــــبْ تجـــــدْ راحـــــة تُنجيـــــك مـــــن التّعـــــب

---

[1] ــ طفولة قلم، ص 78.

[2] ــ نفسه، ص 78.

[3] ــ نفسه، ص 79.

فضلا عن تكرار التّوازي الّذي حضر غيرما مرّة، مثلما هو الأمر في قصيدة **"يوم العيد"**:

يـوم لـه عنـد الشّـعوب مزيّـة وكيـف ذاك ودونـه الأيّـام
يـوم لـه عنـد الأماثـل عـزّة وإلى التّعـاون كلّهـم مقـدام

وفي قوله في قصيدة **"سيروا بنا"**:

سيروا بنـا نحـو الرّيـاض فإنّنـا أزهـاره مـا دام البـدر مطلـع
سـيروا بنـا نحـو الجنـان فإنّنـا عـلى أغصـانها نحـن نسـجع

البنية الأسلوبيّة:

إنّ الـمتمعّن في هذه الأشعار ليستشفّ تلك المزاوجة بين الأسلوبيْن الخبريّ والإنشائيّ في تناغم أبعد الرّتابة عن سيرورة تدفّق المشاعر والأحاسيس، وواضح أنّ الشّاعر عبّاسا الجرّاريّ في هذه القصائد غالبا ما يبدؤها بالأسلوب الخبريّ ويختمها بالأسلوب الإنشائيّ، حيث يُخبر المتلقّي عمّا يُساور وِجدانه، ثمّ ينتقل إلى الأسلوب الإنشائيّ مستعملا الأمر أو النّداء أو الاستفهام تحفيزا للقارئ حتّى يتفاعل مع طبيعة مواضيع هذه الأشعار الّتي تغلب عليها القضايا الرّاهنة للأمّة، كي ينهض نهضة تُحيي البلاد والعباد، فهذه **"قصيدة بني وطني"** المتكوّنة من ثلاثة عشر بيتا شعريّا استغرق الأسلوب الخبريّ أحد عشر بيتا، وختمها ببيتيْن شعريّين مستعملا فيهما أسلوب الأمر:

لنعمـلْ بجـدّ وحـزم لكـي نكـون دوامـا مـن السّـائدين
وعونـا مـن اللـه خالقنـا نُرجّـي سـعادة في كـلّ حـين

والأمر نفسه مع قصيدة **"صرخة على لغة الضّاد"** الّتي تضمّ ثلاثةً وعشرين بيتا شعريّا، أبياتها الأربعة عشر الأولى أسلوبها خبريّ:

لسـانـنا العربـيّ دوّى مـن الغهـب

بينما الأبيات التّسعة الأخيرة فقد جاءت أساليبها كلّها إنشائيّة، تراوحت أحيانا بين الأمر:

ألا أغيثـوه تنـا جـوا مـن العطـب

وبين النّداء:

يـــــا أمّـــــة العـــــرب صـــــونيه مـــــن خـــــرب

بل إن قصيدة **"سيروا بنا"** قد هيمن عليها هيمنة مطلقة الأسلوب الإنشائيّ، بداية بالعنوان **"سيروا بنا"**، ومرورا بالقصيدة كلّها، وذلك يُفصِح عن حماسة الشّاعر الّتي يطمح بها إلى أن يرى بلده المغرب يرفل في نهضة تسمو به إلى الصّفوف الأولى بين الأمم المتقدّمة المزدهرة.

اِستنتاج:

وصفوة القول فإنّ شعر الشّاعر عبّاس الجرّاريّ الوارد في كتاب **"طفولة قلم"**، على قلّة مادّته، النّابع من ذات شاعرة لا تزال في مرحلة الصّغر وفجر الشّباب، لعنوان للرّسالة الكبرى الّتي حملها سليل المدرسة الجرّاريّة الّتي حملت على عاتقها همّ الجهاد بالقلم، دفاعا عن هويّة مغربيّة أصيلة اكتوت بلهيب استعمار إسبانيّ فرنسيّ سعى إلى طمس أركانها، ولكن هيهات هيهات مع وطن معطاء ولّاد، أنجب أجيالا من العلماء الشّعراء أمثال عبّاس الجرّاريّ، الّذي تُبشّر إرهاصاته الشّعريّة بمُثقّف كبير واعد، واقف على أساس متين تشرَّبَ مبادئ الوطنيّة الصّادقة من الوالد الأديب العالم المفكّر عبد الله الجرّاريّ، وبذلك تكون هذه الأشعار لِسانا مُعبّرا عن مرحلة فيصليّة في تاريخ المغرب، تأرجحت ما بين التّخلّي عن أسس هويّته، وبين التّمسّك بثوابت وطن شامخ توارث الصّمود والوقوف بكلّ شجاعة في وجه التّيارات الجارفة الّتي لم تزعزع أركانه، وذلك بفضل أهرامات فكريّة يُعدّ الشّاعر والمفكّر والأديب عبّاس الجرّاريّ من أبرزها.

***

المصادر والمراجع:

ـ طفولة قلم، عبّاس الجزّاريّ، جمع وإعداد وتقديم د. سي محمّد أملح، منشورات النّادي الجزّاريّ رقم 102، مطابع الرّباط نت، الطّبعة الأولى 2020.

ـ من ديوان عبّاس الجزّاريّ، الجزء الأوّل، إعداد وتقديم الدّكتور محمّد احميدة، منشورات النّادي الجزّاريّ رقم 73، الطّبعة الأولى 2017، دار أبي رقراق للطّباعة والنّشر، الرباط.

ـ من ديوان عبّاس الجزّاريّ، الجزء الثّاني، إعداد وتقديم الدّكتور محمّد احميدة، منشورات النّادي الجزّاريّ رقم 77، الطّبعة الأولى 2017، دار أبي رقراق للطّباعة والنّشر، الرباط.

***

د. أسماء الريسوني

- أستاذة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.

- عضو في فريق البحث في الإبداع النسائي بكلية الآداب، تطوان.

- عضو في مجلس كلية الآداب بتطوان (2018).

- عضو في هيئة التدريس بماستر الأدب المغربي في العصر العلوي؛ الأصول والامتدادات، بكلية الآداب، تطوان.

- عضو في هيئة تحرير مجلة « منارات » المحكمة، يصدرها فريق البحث في الإبداع النسائي بكلية الآداب، تطوان.

- أشرفت وتشرف على عدة رسائل وأطاريح جامعية.

- شاركت في العديد من الندوات والأيام الدراسية واللقاءات العلمية، منها:

1- المشاركة في اليومين الدراسيين حول الشعر المغربي بكلية الآداب، تطوان، 2016.

2- الندوة العلمية في موضوع: الأسس اللغوية والبلاغية لتحليل الخطاب، كلية الآداب، تطوان، 2016.

3- ندوة بلاغة السيرة الذاتية، كلية الآداب بتطوان، 2018.

4- فعاليات مؤتمر كاتبات العالم في نسخته العربية، 2018.

5- ندوة السرد المغربي المعاصر اتجاهات ورؤى، تنظيم الجمعية المغربية لخدمة اللغة العربية، 2020.

من أعمالها المنشورة:

أ- الكتب:

1- نظرات في النقد الأدبي عند الأستاذ محمد بن تاويت التطواني، منشورات ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية، 2016.

2- التراث الأدبي واللغوي لمحمد بن تاويت التطواني: دراسة تحليلية نقدية، منشورات مكتبة سلمى الثقافية، 2017.

ب- ضمن كتاب جماعي:

1- القصيدة المغربية بين التجديد والتجدد. **(تكريماً للشاعر حسن الأمراني)**، منشورات فريق البحث في الإبداع النسائي ومكتبة سلمى الثقافية، **2017.**

2- بلاغة السيرة الذاتية، منشورات إفريقيا الشرق وفريق البلاغة وتحليل الخطاب، **2017.**

جـــ- المجـــلات:

1- مفهوم الشعر عند عبد الله كنون، مجلة « الهدي »، ع، **8**، **2016.**

2- تجليات السجن والسجان في محكي الذات الأنثوي بالمغرب، مجلة «منارات »، ع، **2**، مارس **2019.**

- الطقس في السرد السيري: دراسة أنثربولوجية، مجلة « عيون »، ع، **2**، دجنبر **2019.**

***

كتابات الشباب في الحماية وفجر الاستقلال
" طفولة قلم" لعباس الجراري أنموذجا

د. أسماء الريسوني

تتغيى هذه الدراسة مقاربة نموذج من كتابات الشباب المغاربة في فترة حاسمة من تاريخ المغرب الحديث، وأقصد بها فترة الحماية وفجر الاستقلال. ولا شك أن النظر في الكتاب الموسوم بـ "طفولة قلم" للأستاذ عباس الجراري، الذي جمعه وأعده وقدمه سي محمد أملح[1]، سيمكن القارئ من التعرف على طبيعة الانشغالات التي كانت تؤرق عباس الجراري بصفته شابا مغربيا، عكس في كتاباته المبكرة تطلعات بني جيله وطموحهم، كما ضمنها أفكاره وتوجهاته وحدد فيها مقاصده وأهدافه.

ويمكن اعتبار الكتاب سيرة علمية ترصد بواكير الكتابة عند رجل أثرى المشهد الثقافي المعاصر ببلادنا وأثر فيه؛ تأليفا، تدريسا وتأطيرا.. حتى أضحى يعرف بعميد الأدب المغربي، لغزارة كتاباته وتنوعها وعمقها. والملاحظ أن هاته السمات التي ميزت كتابة الرجل نجدها حاضرة في إنتاجه المبكر المعروض في "طفولة قلم"، والذي تناول فيه مواضيع متعددة نجملها في: الوطنية، الأدب، النقد، الإخوانيات، الإسلاميات، التأريخ، الرحلات واللغة. ولا يفوتنا في هذا المقام أن نثبت كذلك تنوع تلك الكتابات ما بين المقالة، الدراسة، العرض والكلمة أو الخطبة.. إضافة إلى النظم.

ولا يجب أن يغيب عن البال، ونحن بصدد الحديث عن إرهاصات الكتابة عند عباس الجراري، أن الرجل إنما هو سليل أسرة عريقة جمعت ما بين الجاه والعلم والنسب؛ فوالده هو عبد الله الجراري[2] أحد أعلام المغرب البارزين في العصر الحديث؛ فهو العالم الفقيه المقرئ الخطيب المؤرخ الذي تقلد مناصب سامية

---

[1]- منشورات النادي الجراري رقم 102. الطبعة الأولى. 2020.

[2]- عباس الجراري. العالم المجاهد عبد الله بن العباس الجراري. شخصيات مغربية رقم 7. دار الثقافة. الطبعة الأولى. 1985.

تربوية ودينية متعددة، وخلف مصنفات كثيرة في مختلف فنون القول، منها ما هو مطبوع ككتاب: "التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين" وغالبيتها ما تزال مخطوطة تنتظر من يتولاها بالتحقيق ليخرجها إلى عموم القراء.

من ثم تتضح أهمية الاطلاع على كتاب "طفولة قلم"، سيما وأنه يضم بين دفتيه الكثير من إنتاج عباس الجراري في مرحلة التعلم؛ سواء في المغرب أم في مصر، مما أضفى عليها طابع الاختلاف والتنوع كما أسلفنا، إن من حيث الشكل والطبيعة أو من حيث المضمون والقضايا المثارة، تبعا للفترة التي كتبت فيها وللظروف التي أحاطت بإنتاجها، وأعني بها من جهة فترة أواخر الحماية وفجر الاستقلال التي شهدت غليانا على الصعيد السياسي والاجتماعي والثقافي. كما أقصد بها من جهة ثانية، مرحلة دراسة الرجل في الجامعة المصرية وتتلمذه على نخبة من روادها من أمثال: حسين نصار، سهير القلماوي وعبد الحليم النجار.

وهكذا يخوَّل للمطلع على الكتاب التعرف على أحد الشباب الفاعلين في الحركة العلمية التي كان يشهدها المغرب آنذاك، خاصة وأن عباس الجراري – كما سبقت الإشارة إلى ذلك – نشأ في بيت علم وسياسة وجهاد، من ثم فمن المنتظر أن تكون كتاباته في تلك الفترة انعكاسا لما كان يراه ويعيشه في محيطه، من حديث نهضوي وإصلاحي بين رجالات المغرب، سواء في النادي الجراري الذي أسسه والده قبيل ولادته ببضع سنين أي سنة **1930**، والذي كان يؤمه خيرة العلماء والأدباء من المغرب وخارجه..**1** أم برفقة والده في الأسفار، كما تشي بذلك هاته الجمل المبثوثة بين ثنايا الموضوع الرابع: " اذكروا كيف قضيتم عطلتكم الصيفية"؛ يقول:

" سافرت مع أبي في رفقة بعض أصدقائه المثقفين، وقصدنا في سيارة خصوصية عاصمة العلم المغربية مدينة فاس الجميلة... كانت تروج مذاكرات علمية متنوعة.. كنا نقضي أوقاتنا بعضها داخل المنزل في المذاكرات الشيقة والمناظرات العلمية الصافية.. غادرنا المدينة الفاسية متوجهين في سيارة عمومية

[1]- محمد احميدة. من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب: النادي الجراري بالرباط لمؤسسه العلامة عبد الله الجراري. الطبعة الأولى **2004**.

إلى العاصمة المغراوية... قضينا في هذه المدينة نحو الأسبوع.. وكنتَ تجدنا كل مساء في أكبر مكتبة هناك نتصفح الكتب الجليلة والمجلدات القيمة.. وصممنا على أن نغادر وجدة قاصدين تلمسان.. أخذنا في إنشاء الأشعار وإنشادها والأحاديث العلمية الرائقة، ننسى بها بعض ما يساورنا من التعب.."[1].

يتبين مما سبق أن فتى ترعرع في هذا المناخ العلمي حري به أن يتفتق نبوغه مبكرا، ويبدأ قلمه بالسيلان قبل الأقران، ولم تزده الدراسة في الجامعة المصرية إلا تدفقا وانسيابا. لذلك فإن عملي في هذه الدراسة سينطلق من هذا الطرح لينكب على الإجابة عن الأسئلة الآتية:

إلى أي مدى استطاعت كتابات عباس الجراري المجموعة في كتاب "طفولة قلم" أن تكشف عن طموح الشباب المغربي في المجالات المتعددة: السياسية، الاجتماعية والعلمية.. وما هي خصوصياتها المنهجية والمعرفية؟ وما هو الهاجس المعرفي الذي سيطر على كاتبها؟؟

للإجابة عن هذه الأسئلة، سنحاول التركيز على أهم ما تثيره هذه الكتابات من قضايا فكرية في علاقتها بالإنسان المغربي؛ فردا وأمة. وهذا ما سنعمل على دراسة أهم تجلياته من خلال الوقوف على مظاهر وسمات **الخطاب الإصلاحي والنهضوي** المبثوث في تلك الكتابات.

لا يخفى عن أي مهتم أن المرحلة التي زامنت الكتابات المجموعة في "طفولة قلم" إنما هي فترة أواخر الحماية وبدايات الاستقلال؛ حيث البلاد تعاني من براثن الجهل والفقر ومختلف مظاهر التخلف. من ثم انبرى جملة من دعاة الإصلاح في البلاد إلى استنهاض الهمم، وبث الوعي بين عموم المواطنين، قصد اللحاق بركب الحضارة والتقدم.. من هؤلاء نذكر: علال الفاسي، محمد الحجوي، محمد المكي الناصري وغيرهم.

ولا يفوت قارئ الكتاب الذي نحن بصدد دراسته، أن تستوقفه آراء في الإصلاح، تنم عن غيرة الكاتب على بني وطنه، وطموحه إلى الرقي بهم وإلى تحقيق

---

[1]- طفولة قلم. ص 65- 67.

نهضة عامة للبلاد والعباد، تهم مختلف مناحي الحياة، لإيمانه بأن **" تطور الأمم وتغيرها شرط من شروط وجودها وبقائها في هذا المعترك الإنساني المتضارب.. (فنجد) أمة تخطو أشواطا بعيدة نحو الرقي، فتتقدم سائرة لركب المدنية الحافل. وأخرى تسير ببطء في تغيرها وتتخلف عن ركب الحضارة، فتتأخر عنه ويفوتها. ونبحث في الداء العامل، فنكشف عن الفقر والجهل؛ جرثومتين ناخرتين في هيكل هذه الأمة المتخلفة.. "[1].**

لقد شخَّص الكاتب في النص أعلاه عوامل التخلف الذي يطال الأمم، واختزلها في عاملين اثنين هما الجهل والفقر، وبذلك وضع يده على الداء الذي ينخر جسد الأمم المتخلفة، الذي يتحتم استئصاله لضمان تقدمها، وهو الداء الذي نجده متفشيا في بنية الأمة المغربية.

وانطلاقا من تأملنا في الفكر الإصلاحي عند عباس الجراري الشاب يمكننا التمييز ما بين ما يتحتم على الدولة تحقيقه للمواطن، وما يتعين على الفرد القيام به تجاه وطنه وأمته. وهو ما سنقف عليه بتفصيل فيما يلي:

I - واجبات الدولة تجاه المواطن:

بث عباس الجراري في كتاباته المجموعة في "طفولة قلم" جملة من الآراء التي تنم عن رغبة صادقة في الإصلاح، قصد ضمان الرخاء والعيش الكريم للإنسان المغربي. ولعل هذا كان هو أساس كل فكر إصلاحي ونهضوي يصادفنا في تلك الكتابات. من ثم نجده يعد مواطن الخلل في المجتمع المغربي التي يتوجب على المسؤولين في الدولة المغربية التدخل لإصلاح أضرارها، التي تمس الحاجيات الأساسية للمواطنين.

وهكذا، كتب في هذا السياق، بحثا حدد فيه سبل تحقيق الإصلاح الاجتماعي والقضاء على أحد عوامل التخلف ألا وهو الفقر. فقدم للحكومة ستة مقترحات من شأنها – حسب رأيه – ضمان العيش الكريم للمواطن المغربي، وهي مقترحات تمس جوانب متعددة منها: الجانب الصناعي، الفلاحي، السكني،

[1]- نظرة حول الإصلاح. ص 123.

الصحي وغيرها، كما تدل على ذلك الجمل الآتية المقتطفة من أحد كتاباته في الموضوع:

" ينبغي تنمية الإنتاج والثروة العامة ليزيد كسب الفقير ويتسنى له إشباع حاجياته..

ينبغي رفع الأجر إلى حد يساعد العامل على سداد حاجياته الضرورية..

ينبغي العمل على توزيع الثروة الزراعية وحماية ملكية الفلاح..

ينبغي إنشاء دور تأمين وفتح صناديق التوفير تحمي العامل من آثار البطالة والشيخوخة والآفات التي تعترضه..

ينبغي (بناء) مساكن صحية والقضاء على مدن القصدير، حتى يحمى الفرد من كثير من الأمراض الناتجة عن الفقر.. "[1].

هكذا نلاحظ أن الكاتب وهو يضع يده على بؤر الفساد التي تنخر المجتمع، وينبه الدولة على ضرورة التدخل لتدارك الأمور، كان يهدف إلى وضع حد لتفشي مظاهر الفساد في مختلف القطاعات الحيوية في البلاد، وهي المظاهر التي من شأنها – إن لم يتم تطويقها - أن تزيد الأمور استفحالا والفقر استشراءً والمجتمع تخلفا.

والطريف في الأمر، أننا نرى الشاب لم يكتف بالوقوف على بؤر التخلف، بل قدم للدولة الحلول المناسبة لكل قطاع بحسب خصوصياته، والتي بتطبيقها يروم تحقيق الكرامة للمواطن المغربي عاملا كان أم فلاحا. فلنستمع إليه وهو يعطي مسوغات توزيع الثروة الزراعية وحماية ملكية الفلاح؛ يقول: **"لتلافي تلك الآثار السيئة التي تنشأ عن سوء توزيعها، بتقسيم الملكيات الزراعية الكبيرة وبيع أقسامها للفلاحين الفقراء وعمال الزراعة. وتتولى الدولة أو صندوق التعاون الزراعي دفع القروض الزراعية. ولا ينجح مشروع توزيع الأراضي، فيحسن جمعها وضمها وتوزيع إنتاجها"[2].**

---

[1]- ستة مقترحات لتقدم الأمة المغربية. ص **125 – 127.**

[2]- نفسه. ص **126.**

يتضح مما سبق أن المقترحات جميعها تهدف إلى ضمان العيش الكريم للمواطن المغربي، ويلاحظ تركيز عباس الجراري بصفة خاصة على فئة العمال وصغار الفلاحين، لأنها كانت تمثل في تلك الفترة الفئة الكادحة في المجتمع التي تعاني التهميش والتخلف، والتي من شأن إيجاد حلول لمشاكلها أن يؤدي إلى الرقي بالبلد، لذلك جعل عباس الجراري الدولة هي المتكفلة بذلك والمسؤولة عنه؛ فهي من عليها **" أن تحقق التضامن بين أفراد الأمة لتحقيق الأمل الحيوي وتطبيق العدالة الاجتماعية"[1].**

وجدير بالذكر أن تحقيق النهضة للوطن كانت مرتبطة في فكر الشاب بالولاء للملك محمد الخامس، واعتباره زعيم البلاد الذي يقود معركة التحرير أولا ثم يتولى الإصلاح فيما بعد. كما تشي بذلك هاته المقتطفات من كلمته أمام الملك ممثلا طلبة المدرسة اليوسفية؛ حيث قال: **" إن الطلبة ما نسوا ولن ينسوا ما لأبوتكم التوجيهية نحو تكوين نهضته وبعث همته من أثر فعال سيتضاعف في هذا العهد الجديد، الذي حملتم مشعله الهادي إلى شعبكم الوفي"[2].**

لقد أدرك الكاتب أن مجتمعا ينخره الجهل والتخلف لن يحظى بمكانة بين الأمم، وأن أي محاولة للحاق بركب الحضارة إنما تقتضي البدء من الإصلاح الداخلي، لهذا تعالت صيحاته أولا من أجل الكشف عن بؤر الفساد ثم قصد العمل بعد ذلك على معالجتها أو بترها، بتدخل من الدولة وفي الآن نفسه بهمة المسؤولين الشرفاء، بتوجيه من رمز المغاربة وقائدهم ألا وهو الملك محمد الخامس، الذي استطاع انتزاع الاستقلال من المستعمر الغاشم، والذي يعول عليه للقيام بالإصلاح الشامل، وهو ما من شأنه أن يعود بالنفع على البلد، لأن المغرب بلاد **"كثيرة الخيرات، طيبة الثمرات، ترتقي إلى مصاف الدول الراقية المتقدمة، إذا شمر أبناؤها عن ساعد الجد وعملوا بحزم وإخلاص على استثمارها واستغلالها"[3].**

---

[1]- ستة مقترحات لتقدم الأمة المغربية. ص **127.**

[2]-الكلمة الخامسة. ص **108.**

[3]- نفسه. ص **127.**

وبهذا، يكون الخطاب النهضوي عند عباس الجراري يمس الجماعة والفرد على السواء؛ أي المواطن والأمة معا. لذلك نراه يقدم إلى المسؤولين – كما رأينا - مقترحات تفيد تقدم البلاد من جهة، ونجده من جهة أخرى يخاطب الأفراد ويوجههم إلى ما يضمن النهضة لمجتمعهم، وهو ما سنقف عليه بتركيز فيما يلي:

II - واجبات الأفراد تجاه الوطن:

بالنظر في الفكر النهضوي الإصلاحي عند الرجل نلاحظ أنه عول فيه على الشباب، واعتبر إصلاح المجتمع وتخليصه من مظاهر الجهل والتخلف لن يتحقق إلا بهمتهم وإرادتهم وعزيمتهم، لذلك نستطيع أن نقول مطمئنين: إن الخطاب الإصلاحي في " طفولة قلم" يقوم أساسا على الاهتمام بالشباب، وإعداده ليحمل مشعل النهضة التي يتطلع إليها المغاربة جميعهم؛ كما يتجلى بوضوح من قوله هذا: **"نحن أبناء اليوم رجال الغد المأمول، الذي يعتمد علينا وطننا في أن نمده ونكون رهن إشارته ليعيش سعيدا"[1].**

إذن، إن حب الوطن هو الهاجس الموجه لهذا النداء الذي خاطب به الفتى أقرانه، حاضا إياهم على الاهتمام بكل ما من شأنه أن يقدم الخلاص للأمة المغربية التي كانت تعيش في هذه الفترة، مختلف مظاهر القمع والفقر والضلالة. من ثم نلاحظ إقباله على استنهاض همم رفاقه من الطلبة، داعيا إياهم إلى أن يستقبلوا **"عهدا جديدا هو مستهل حياة مظهرها نشاط دائم وحركة مستمرة؛ عهدا ينتظر منهم المداومة على العمل المثمر والمثابرة عليه، والإكباب على الدرس باجتهاد ونشاط متواصلين؛ عهدا ينتظر منهم بذل قوى فكرية... ونفض غبار الكسل والميل إلى الراحة... وكيف وهو عهد ينبض قلبه بقوة الحداثة وحيوية الفتوة وجهاد الشباب الذي لا يعرف إلا الأمام، ولا يؤمن إلا بالأعمال المجدية المثمرة..."[2].**

هكذا يتبين لقارئ "طفولة قلم" مدى استثمار عباس الجراري للعروض الملقاة في سياق الأنشطة المدرسية، من أجل الإفصاح عن أفكاره النهضوية، النابعة

---

[1]- أبناء اليوم... رجال الغد. ص 92.

[2]- الإقبال على عهد جديد. ص 85.

من غيرته على وطنه ورغبته الحثيثة في الرفع من شأنه وإلحاقه بركب المدنية. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تشبعه بمبادئ الحركة الوطنية الإصلاحية، التي تجرعها في مجالس والده الخاصة والعامة على السواء، كما ينم كذلك عن تفاعله مع قضايا المجتمع. وهو ما يؤكد قيمة الشباب في أي تغيير تطمح إليه الأمة. لهذا نراه لا يفوت فرصة كي يذكر أقرانه بضرورة تحمل مسؤوليتهم قصد النهوض بالوطن.

والملاحظ أن عباس الجراري وهو يخاطب الشباب يركز على ضرورة تحليهم بسمات بعينها هي :

1-العلم كما رأينا، وكما نعثر عليه مبثوثا بين ثنايا هذه القصيدة التي عنوانها " بني وطني"، يقول:[1]

بنـي وطنـي مـا لكـم راكنـين إلى الجهـل منـذ قـديم السـنين
نسـيتم مجـدا وعـز الألى أشـادوا وكـانوا مـن الطـامحين

....

بنـي وطنـي مـا لكـم راكنـين إلى الجهـل منـذ قـديم السـنين
نسـيتم مجـدا وعـز الألى أشـادوا وكـانوا مـن الطـامحين
وتـاريخ مغربنـا حافـل ينـادي ومـا زلـتم راقـدين
ولكـن حمـدنا الإلـه الـذي هـدانا فكنـا مـن المهتـدين
بتثقيـف أرواحنـا بـالعلوم فكنـا جميعـا مـن الفـائزين
لنعمـل بجـد وحـزم لكـي نكـون دوامـا مـن السـائدين
وعونـا مـن اللـه خالقنـا نُرجِّـى سـعادة في كـل حـين

يظهر من هذه الأبيات أهمية إقبال الشباب على التعلم في الفكر الإصلاحي عند عباس الجراري الفتى، ويؤكد على فضيلة العلم في الرقي بالأمم. ثم إننا نلمس أيضا في تلك الأبيات نفَسا من فخر الفتى بذاته وإحساسه بالزهو، في سياق إشارته لولعه بالعلوم؛ فحين كان بصدد تنبيه غيره على فضائل العلم، لم يفوت الفرصة لكي

[1]- بني وطني. ص 79.

يشير إلى كونه من الذين اختاروا طريق العلم، قصد تحقيق غاية مجيدة ممثلة في الفوز ثم في السؤدد.

هكذا نستنتج أن عباس الجراري وهو يدعو إلى النهل من العلوم وبذل الجهود للارتواء منها، كان يدرك أهمية ذلك في سبيل خلاص للوطن، كما كان على وعي بأنه لا بد من تضافر جهود جميع الشباب لتحقيق هذا الهدف السامي، الذي من شأنه أن يرقى بالأمة المغربية ويعيد لها مجدها بين الأمم.

لهذا نراه متفائلا فيما بعد، من تأسيس الجامعة المغربية بعد الاستقلال، طالما أن **" تأثير تعليمها سيكون كبيرا جدا في نفوس الشباب المقبل عليه وفي حياة المغرب العقلية والفكرية؛ فهو يتيح لطلاب المعاهد الدينية أن يلتقوا بإخوانهم طلاب المدارس الحديثة ويتعاونوا معهم في الدروس والبحث، مما ستتقارب بفضله الوجهات.. وتزول العزلة التي كانت مفروضة على العقول"**[1].

وإذن، فقد راهن عباس الجراري على الجامعة المغربية وراهن على إنجازاتها، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن تأسيسها كان عقب الاستقلال؛ حيث البداية الحقيقية للإصلاح الذي يجب أن يشمل الميادين المختلفة، من ثم نلاحظ في الخطاب النهضوي عند الشاب ترحيبه بتأسيس الجامعة المغربية، وعقده آمالا كبيرة عليها، تتمثل أساسا في تكوين الشباب المغربي بغض النظر عن تعليمهم إن كان تقليديا أم حدثيا، تكوينا يساير ما هو سائد في العالم المتحضر. وهو ما من شأنه أن يحقق جملة الأهداف المنتظرة من أي جامعة وهي: **" أن تنجب جيلا من علماء المستقبل مستعدا في كفاءة واقتدار أن يحمل شعلة المعرفة، ويخلف من سلفه في تحمل إسهام المغرب في تقدم العلوم والفنون والآداب**[2]**"**.

واللافت للنظر أن عباس الجراري كثيرا ما كان يقرن العلم بالعمل في خطاباته الموجهة للشباب، وقد مرت بنا إشارات إلى ذلك؛ من مثل ما ورد في الأبيات السابقة: **" لنعملْ بجد وحزم.."** وكذا ما جاء في عرضه في نشاط مدرسي،

---

[1]- الجامعة. 177-178.

[2]- نفسه. ص 177.

تحدث فيه أمام زملائه عن خصوصية العهد الذي يعيشونه: **" هو عهد.. لا يؤمن إلا بالأعمال المجدية المثمرة."** من ثم تنبثق السمة الثانية التي يرى عباس الجراري ضرورة تحلي الشباب بها، وهو ما سنقف عليه بتفصيل فيما يلي:

2- سمة العمل كما تفصح عن ذلك بوضوح قولته الآتية:

".. لا يخفى أن العصر عصر جد وعمل، عصر كد واجتهاد، وأن الحياة في صميمها قائمة على العمل ومرتكزة عليه: فهي لا ترحب إلا بالعاملين والمجدين. والإنسان خلق ليكون عاملا، بل ما أنشئ إلا لذلك.. لقد أصبح العمل ميسرا سهل التناول لما يتوفر عليه العصر الحديث من انتشار العلوم وشيوع المخترعات والمكتشفات؛ على أن أبواب المجد ومكاسب العز وينابيع الأحدوثة ومحاسنها مفتحة المصارع اليوم أمام الجميع، يلجها كل من كدّ وجدّ، ويحرمها كل من ركن إلى مهازل الحياة وسفاسفها.."[1].

هذا نداء وجهه الفتى لأقرانه قصد حثهم على الكد والعمل وعدم الاستسلام للكسل والخمول والتواكل، لأنه كان يؤمن بالشاب المغربي، ويثق في إمكاناته، من ثم نراه لم يألُ جهدا في سبيل دعوة أقرانه إلى العمل وتذكيرهم بأهمية ذلك، بالنسبة إلى تحقيق نهضة البلاد والعباد. خاصة وأن الفترة إنما هي فترة حماية واستعمار، كما أنها أيضا فترة تكاثرت فيها الاختراعات والمستحدثات الطارئة على الحياة العصرية.. من ثم نجده في الآن نفسه، يحث مخاطبيه من الشباب على عقد العزم من أجل استثمار مستجدات العلم الحديث، في تطوير ذواتهم، وذلك لن يتحقق إلا بالجد والمثابرة على العمل والإصرار، الشيء الذي سينعكس إيجابا على نهضة وطنهم.

إن الشاب وهو يحض أقرانه على الاستفادة من مظاهر العلم الحديث، كان يؤمن بالتطور العلمي وبمخترعاته. وبذلك تكون أفكاره الإصلاحية منفتحة على كل جديد من شأنه أن يفيد في تحقيق الرخاء للوطن، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سعة أفقه وبعد نظره، رغم يفاعته وحداثة سنه. كما يدل أيضا على ثقته

---

[1]- أبناء اليوم... رجال الغد. ص 92.

بطاقات الشباب، لذلك نراه يبث فيهم روح الحماس من أجل القيام بالعمل المجدي النافع للإنسانية جمعاء؛ **" هكذا أبناء اليوم، نكون رجال الغد المأمول، الغد الجميل، الغد المليء بشتى المتمنيات، الذي كم تاقت أعيننا لرؤيته، واشتاقت آذاننا لسماعه، وتمنت أرواحنا لقاءه القريب. هذه هي الحياة، وهذا هو العيش. هكذا، نكون رجالا وخير الرجال؛ بل كواكب سماوية مشرقة تضيء العالم أجمع وينتفع بنبراسها كافة البشر...**

إخواني الشباب، فإلى العمل المثمر. فما ذلك اليوم ببعيد[1]".

يتضح مما سبق أن عباس الجراري كان يؤمن بقدرات الشباب في الخلق والإبداع والتفوق، إذا توفرت لديهم الرغبة والإصرار، وأتيحت لهم فرصة التعلم في الجامعة الحديثة، وتهيأت لهم ظروف العيش الكريم.. لذلك أطلق دعواته الإصلاحية مخاطبا المسؤولين كما مر بنا لتهييء المناخ الملائم الذي يلهم الشباب، ومنبها هؤلاء في الآن نفسه على ضرورة المثابرة والصبر على العمل والكد لتحقيق التميز الذي سيمتد إشعاعه إلى خارج الوطن.

وهكذا، كانت أفكار عباس الجراري الإصلاحية كثيرا ما تهتم بـ " صنع الشباب المغربي" إن على مستوى توفير ظروف العيش الكريم أم على الصعيد العلمي: تحصيلا وإنتاجا. لأن الرجل كان يطمح إلى خلق جيل جديد، تكون النهضة المغربية على يديه؛ جيل **" يكون قد تقدم خطوات بعيدة نحو الرجولة التي من حميد صفاتها الجد في السعي والعمل بنشاط دائب ومواجهة الصعوبات واقتحام العقبات بشجاعة وثبات وعزم، مع الحرص على المبادئ التي تضيء الطريق بنبراسها وتهدي إلى أحسن سبيل"[2].**

ولعل هذا الاهتمام بالشباب هو الذي جعلنا نكتشف في أفكار الشاب النهضوية مناداته بضرورة التحلي بمكارم الأخلاق، كما لمسنا ذلك في النص

---

[1]- أبناء اليوم.. رجال الغد. ص 94-95.

[2]- الإقبال على عهد جديد. ص 85.

السابق. وهذه هي السمة الثالثة التي تميز رأيه الخاص بالشباب الذي نجده مبثوثا بين ثنايا كتاباته في " طفولة قلم".

3- الخلق الحسن: هذه لبنة أخرى من اللبنات التي تشيد صرح الشباب المغربي، نادى بها عباس الجراري في كتاباته ورددها غير ما مرة، علها تجد آذانا صاغية من بني جيله، نظرا لأهميتها في تكوين شخصيتهم وتحديد آفاق مستقبلهم وتأثيرها في نهضة مجتمعهم. يقول في هذا الصدد:

".. ولا ننسى أننا في طور الشباب.. وأنه ينبغي أن نتحلى بالأخلاق الكريمة الفاضلة، ونردد مع أمير الشعراء:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيـت فإن هم ذهبت أخلاقهـم ذهبـوا

فالأخلاق الحميدة أساس السعادة وينبوع العز والكرامة.. فيجب علينا أن نسلك سيرة الذين جابهوا الحياة.. ففازوا في الميدان بحلية المكارم وماجد الأخلاق.."[1].

إذن، إن عباس الجراري أدرك ما لفضائل الأخلاق من أهمية في رفعة الأمم، شأنه شأن جميع دعاة الإصلاح الذين ركزوا على ضرورة التحلي بالمكارم والفضائل، لهذا نجده وهو يحض أقرانه ويحفزهم على الالتزام الأخلاقي، يستشهد ببيت شعري شهير لأحمد شوقي، مما يقوم دليلا على أهمية ثقافة المشرق في دعواه الإصلاحية، وذلك لملامسة وجدان أقرانه والتأثير في عقولهم. خاصة وأن منهم من تستهويه حياة اللهو والمتع. من ثم أفرد حيزا كبيرا في آرائه الإصلاحية قصد التنبيه على أهمية التحلي بحميد الخصال، كما هو واضح من قوله الآتي:

"ولشدة الأسف، كثيرا ما يبدو على بعض الطلبة ميل إلى الانحلال والانحدار. وقد استسلم للراحة واللهو، يضيع أوقاته الثمينة فيما لا طائل تحته من لهو ولعب وتسلية، وفي بعض الأحيان بما يفسد الأخلاق غير مكترث لضميره وعقيدته ومبدئه. بل ناس أنه على أبواب الرجولة التي تفرض أن يتحلى بالمحامد والفضائل، إذ هي أساس نهضة الأمم ورقيها؛ بل عليها تنهج سبل البعث على

---

[1]- أبناء اليوم.. رجال الغد. ص93.

التقدم والنجاح، حتى يتسنى للطالب بناء صرح متين لمستقبله الحافل المجيد، الذي يضعه في مصاف جيله المنتظر، بل في مقدمة العاملين من أبنائه الأوفياء لجهودهم وبلادهم معا. فإلى الأمام حتى النهاية معشر الشباب"[1].

هذه صرخة صدرت من أعماق عباس الجراري الفتى، وهو يرى أحوال البعض من أقرانه وتدهور أوضاعهم، غيرة على الوطن وعلى الشباب في الآن نفسه، والطلبة منهم تحديدا، لارتباط كل منهما بالآخر، لأن الطلبة هم رمز الشباب المتعلم الواعي. ولأن إصلاح البلد ونهضته لن يتحققا إلا بصلاح الشباب وتحليهم بمكارم الأخلاق. لهذا ركز الفتى في أفكاره النهضوية على ضرورة تحلي هؤلاء الشباب بحميد الخصال؛ علما وعملا -كما سبق أن رأينا- وأخلاقا وهو ما نعمل على إبرازه في هذا المقام.

ويلاحظ في النص أعلاه أن عباس الجراري يحدد الأخلاق في: ما ارتضاه الضمير، ثم المبادئ فالعقيدة. ولما كانت المبادئ في فكره المبثوث بين ثنايا كتاباته في "طفولة قلم" إنما يقصد بها مبادئ الدين الإسلامي، أدركنا مدى تركيزه على أهمية تشبت الشباب بالقيم الإسلامية، الشيء الذي تؤكده كلماته الآتية:

" إخواني الشباب،

لنفخر بمبادئ هذا الدين الطاهرة، ولنتحل بتشبتنا بمثله العليا. ولتكن ذكرى المولد النبوي الشريف هذه ذكرى لنا، إخواني الشباب، تحيي في نفوسنا أعظم الآمال وتحثنا إلى أقصى الغايات وتهدينا إلى مراقي العزة والكمال؛ حتى نكون خير خلف لخير سلف"[2].

لقد استثمر الشاب مناسبة المولد النبوي ليوجه كلمة إلى زملائه يفصح فيها عن قناعاته الفكرية والدينية والنهضوية، والتي تصب جميعها في ضرورة اقتداء الشباب بسيد الشباب ألا وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، الذي كان

---

[1]- أبناء اليوم.. رجال الغد. ص 85.

[2]- محمد رمز الشباب وقائده. ص 120.

"يلقّن أصدقاءه الشباب من العلوم أنفعها ومن الأخلاق أكرمها، ومن الآداب أفضلها"[1].

هكذا يتجلى البعد الديني في الخطاب الإصلاحي عند عباس الجراري الفتى، وهذا ليس بالأمر الغريب عنه، طالما أنه تلقى تعليما تقليديا يقوم على حفظ القرآن الكريم وإن كان ولج المدرسة اليوسفية، وطالما أنه تربى في كنف أسرة اشتهرت بالفقه والتدين والعلم. من ثم نستطيع أن نقول مطمئنين: إن الآراء النهضوية التي نلمسها في "طفولة قلم" هي نابعة من روح الدين الإسلامي، الذي آمن بالشباب، وحض على التعلم، كما دعا إلى العمل والأخذ بالأسباب وعدم التواكل، مع التحلي بمكارم الأخلاق. من ثم نلاحظ أنه أرجع عوامل انحطاط الأمة الإسلامية إلى ابتعادها عن تعاليم الدين الحنيف، كما هو واضح من قوله الآتي:

".. ولكن المسلمين أضاعوا ما كرم به الإسلام، وفرطوا وقاطعوا وتدابروا وأهملوا دينهم.. فلم يكن لذلك نتيجة غير ما نحن عليه الآن.. وتمكنت الأمم الإفرنجية من تلكم الأحكام الإسلامية.. ومبادئه العادلة، ودرستها دراسة دقيقة وتشبعت بها؛ فسادت بذلك وتربعت على عرش العالم.."[2].

بهذا نخلص إلى أن الخطاب الإصلاحي المبثوث بين كتابات "طفولة قلم" إنما هو خطاب صدر عن شاب متعلم طموح ذي أفق رحب، وجهه أساسا إلى الشباب. وأن هذا الشاب كان يسعى إلى أن تتحقق النهضة لوطنه ولبني وطنه، لإيمانه بذاته المغربية واعتزازه بها، الأمر الذي كثيرا ما كان يصادفنا بين ثنايا كتاباته، يقول مثلا في هذا السياق:

".. فمنذ كان المغرب ومنذ كان المغاربة وهم أبطال أشاوس في جبين الأطلس الجبار لا ينفخ نافخ أو يتأسد متأسد يريد سلبه حريته.. إلا ووجد كُماته في المضمار يقظين نابهين.."[3].

---

[1]- محمد رمز الشباب وقائده. ص **119.**

[2]- حول الشورى والتشاور. ص **91.**

[3]- نتائج الكفاح. ص**109.**

لقد كان فخر الفتى بوطنه نابعا من اطلاعه على تاريخه السياسي الحافل بالبطولات والأمجاد، كما أن معرفته بماضي بلده العلمي جعله يقبل على استنهاض همم الشباب لكي يكونوا مثل آبائهم الذين أسسوا جامع القرويين **" في منتصف القرن الثالث الهجري ليكون معهد علم ومسجد عبادة. وقد حملت الجامعة القروية لواء الثقافة العربية الصحيحة قرونا طوالا، حين كانت زاهرة ناهضة، يرفع المغرب بفضلها رأسه عاليا في ميدان المعرفة العالمي"[1].**

إن حب الوطن هو الهاجس المسيطر والمحرك لكل دعوة إصلاحية نادى بها عباس الجراري، فهدفه تمثل في أن يحظى بلده وأهله بالمكانة التي يستحقانها بين الأمم. لذلك عول على الشباب ودعاهم إلى الإقبال على التعلم والانكباب الدؤوب على العمل مع التحلي بالقيم الفاضلة للدين الإسلامي.

من ثم يتضح بجلاء أن الفتى يمتلك شخصية المثقف المغربي، الفخور بوطنه، المعتز بامتداده العربي حيث **"روح العروبة الصادقة وقد تغلغلت في النفوس الحرة وسكنت في القلوب الأبية"[2]**، والمتشبث في الآن نفسه بقيم دينه الإسلامي، التي تبنتها الدول الغربية **" وتشبعت بها؛ فسادت بذلك وتربعت على عرش العالم"[3].**

ثم إن الشاب حين كتب أفكاره النهضوية، كان نموذجا للمثقف المغربي المشارك الذي كانت له مساهمات في كثير من فنون القول؛ فكما ألف الأبحاث؛ فقد كتب الخطبة (الكلمة) والمقالة وهما جنسان نثريان، وفي الوقت نفسه حبر المنظومات من شعر ورجز. فإذا علمنا ذلك، وعلمنا أيضا أن المغاربة إنما نظموا الشعر إظهارا لمهاراتهم، كما عبر عن ذلك أحمد البلغيتي في قوله:

ما نظمت القريض أبغي به الفخـ ـــــر ولا ســـائلا فضـــول نـــوال
شـــغلتني عنـــه العلـــوم ولـــم أر ض أســـــمى بشـــــاعر ســـــوال

---

[1]- الجامعة. ص178.

[2]- حول المعهد المصري في الرباط. ص121. وينظر قصيدة صرخة على لغة الضاد. ص79-80.

[3]- حول الشورى والتشاور. ص 91.

إنما قلت ما نظمت من الشعـــــ ـــــر ولوعـا ورغبـة في الكمـال..[1]

أدركنا أن عباس الجراري الفتى إنما نظم ورجز سيرا على نهج المثقفين المغاربة الكلاسيكيين، يتأكد هذا الرأي مما نعثر عليه مبثوثا في نظمه؛ من مثل قوله:

الشـــعر قـــد طلبتـــه في صـــغري قرضـــته
كلامـــــه ظريـــــف وحفظـــــه خفيـــــف
والآن قـــد شعـــرت بقلمـــي بـــدرت
وهـــكذا سأبقـــى لكـــي أحـــوز السبـــق[2]

وجدير بالذكر أن الفتى وإن كان يمتلك شخصية المثقف المغربي الكلاسيكي فإنه لم يبق محصورا في ذاك النمط من التأليف؛ إذ نراه انفتح - في كتاباته وفي خطابه النهضوي الذي يهمنا في هذا المقام- على ثقافة الشرق والغرب. يتأكد ذلك من كتابته للمقالة وكذا من تنوع مرجعياته التي تشي باهتمامه بآراء الآخر وتوظيفها في خطابه؛ من مثل استشهاده بقولة لـ**عيسى عليه السلام**[3] وأخرى لـ**" أحد مهرة الساسة الإنجليز"**[4] وبيت لأحمد شوقي كما سبق وأن رأينا.

حقا إن هذا الانفتاح لم يكن مطردا لكنه كان ملاحظا، لأن مرجعياته الرئيسة ظلت مركزة في الثقافة التقليدية؛ ممثلة أساسا في نص القرآن والحديث والشعر القديم وأمهات كتب التراث العربي التي كان يستقي منها نصوصه، كنص الكندي وابن مقلة وعمرو بن سعيد وبشار بن برد وكثير عزة وعلي بن أبي طالب وصفي الدين الحلي وغيرهم من الذين ورد ذكر أخبارهم في موضوع واحد.[5] لكن اللافت للنظر هو عدم توثيق مرجعياته فيها. وهو ما يفيد نهجه نهج العالم المغربي

---

[1] - عباس الجراري. الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. الجزء الأول. مكتبة المعارف. الرباط. الطبعة الأولى 1979. ص 200.

[2] - الشعر. ص 78.

[3] - اذكروا كيف ينبغي اختيار الصديق. ص 72.

[4] - حول الشورى والتشاور.ص 91.

[5] - اذكروا كيف ينبغي اختيار الصديق. 72-77.

التقليدي في تآليفه. وهذا رأي ينسحب على مختلف كتابات الشاب قبل المرحلة الجامعية، والتي كانت معتمدنا الرئيس في تحليل خطابه النهضوي. الشيء الذي سيصبح حاضرا بقوة في كتاباته إبان مرحلته الجامعية وبعدها، بفعل اطلاعه على ضوابط البحث العلمي ومنهجيته وبفعل نضجه المعرفي والمنهجي.

ومجمل القول: إن عباس الجراري سليل أسرة عريقة، تربى في بيت الفقهاء وجالس العلماء، وشاركهم أحاديثهم ومسامراتهم، حِلهم وترحالهم، نواديهم ومجالسهم منذ الصغر، فتكوّن لديه وعي بالهدف من الحياة الذي أعلن عنه في قولته **" كل منا، بل كل إنسان يأمل في الحياة ساعيا أن ينال المجد، ويترك الأثر الطيب والذكر الحميد، ويعيش في دائرة السعادة والرفاهية"**[1]، لذلك بدأ مبكرا في الكتابة وانغمس في معالجة قضايا الأمة. وإن في كتاباته المجموعة في "طفولة قلم" خير دليل على ذلك – وإن كانت انتقائية [2]وليست جامعة لمختلف ما جاد به قلم الرجل في مقتبل العمر- لكونها تمثل تأريخا لطبيعة القضايا التي كانت تؤرق الشباب المغربي في فترة الحماية وفجر الاستقلال، لما تضمنته من خطاب نهضوي عُني بالشباب أساسا، هدفه إصلاح المجتمع والرقي به حتى يحتل المكانة التي تليق به بين الأمم. لذلك نرى أنه كشاب ولد في بلد محتل ومتخلف، ساهم بكتاباته المبكرة في الفكر النهضوي المغربي، وراهن على تكوين شباب قادر على تحقيق نهضة الوطن، متسلحا بالعلم والجد وفضائل الأخلاق ومعتزا بملكه وعروبته ودينه.

***

[1]- أبناء اليوم.. رجال الغد. ص 92.

[2]- سي محمد أملح. "عباس الجراري شخصية ولدت في عالم الكتابة مكتملة". طفولة قلم. ص 14.

المصادر والمراجع:

المصدر:

عباس الجراري: طفولة قلم. جمع وإعداد وتقديم سي محمد أملح. منشورات النادي الجراري رقم 102. الطبعة الأولى. 2020

المراجع:

عباس الجراري.

-الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. الجزء الأول. مكتبة المعارف. الرباط. الطبعة الأولى 1979.

-العالم المجاهد عبد الله بن العباس الجراري. شخصيات مغربية رقم 7. دار الثقافة. الطبعة الأولى. 1985

محمد احميدة. من تاريخ الأندية الأدبية في المغرب: النادي الجراري بالرباط لمؤسسه العلامة عبد الله الجراري. الطبعة الأولى 2004

***

د. سعاد الناصر

-أستاذة جامعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.
-رئيسة فريق البحث في الإبداع النسائي بكلية الآداب، جامعة عبد المالك السعدي، تطوان.
- مشرفة على ماستر الكتابة النسائية في المغرب بكلية الآداب، تطوان.
- مديرة مجلة « منارات»، مجلة علمية محكمة، تطوان، صادرة عن فريق البحث في الإبداع النسائي.
- عضو في هيئة تحرير مجلة « المشكاة ».
- رئيسة تحرير جريدة « ملامح ثقافية » الصادرة بتطوان.
- عضو تحكيم في لجنة الدراسات الأدبية والنقدية لجائزة المغرب لسنة 2019.
-أشرفت وتشرف على أطاريح جامعية في مجال الدراسات الأدبية والنقدية والتحقيق.
-شاركت في العديد من الندوات العلمية واللقاءات الثقافية، داخل المغرب وخارجه.
- للأستاذة سعاد الناصر كتابات في مجال السرد، ومما صدر لها في هذا الباب:
1- إيقاعات في قلب الزمن، 1995.
2-في معراج الشوق أرتقي، مجموعة قصصية، صدرت عن مكتبة سلمى الثقافية، 2016.
3- كأنها ظلة، رواية، 2019.
- ولها في مجال الكتابة الشعرية:
1- ديوان «لعبة اللانهاية».
2- ديوان «فصول من موعد الجمر».
3- ديوان «سأسميك سنبلة»، 2003.
4- ديوان «هل أتاك حديث أندلس»، 2009.

ومما صدر لها في مجال الدراسات:

1- قضية المرأة... رؤية تأصيلية، مؤسسة « كتاب الأمة » القطرية، 2004.
2- بلاغة القص في القرآن الكريم وآفاق التلقي، كتاب الأمة، 2014.

3- نساء في دائرة العطاء، قصة المرأة في القرآن الكريم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت، 2011.

4- محكي المقاومة في السرد النسائي المغربي، منشورات كلية الآداب، تطوان، 2016.

5- الرحلة التطوانية إلى الديار الفرنسية، محمد الصفار، تحقيق، 1996.

***

كتابة الذات وذات الكتابة في طفولة قلم

د.سعاد الناصر

تروم هذه الدراسة تقصي إشكالية بالغة الأهمية تتعلق بمقصدية معدّ كتاب "طفولة قلم" وجامعه سي محمد أملح وعلاقتها بنصوص منتقاة بدقة وعناية، تكشف البدايات الأولى لأحد علماء المغرب الحديث، وما تتضمنه من أشكال كتابة الذات، وتفتّح نواتها المعرفية والنقدية. وذلك بالتركيز على نقطتين أساسيتين: العتبات النصيّة في طفولة قلم واختزال المقصدية ؛ تمظهرات كتابة الذات الانتقائية في بدايات ذات الكتابة وتشعباتها عند عباس الجراري.

1 ـ العتبات النصية في طفولة قلم واختزال المقصدية:

تمثّل العتبات النصّية مداخل هامة تجذب القارئ للولوج نحو عوالم الكتاب وأسراره. ويعرفها جيرار جنيت بأنها "ما يحيط الكتاب من سياج أولي وعتبات لغوية وبصرية، تتيح فرصة الاختيار والدخول إلى عالم الكتاب أو التراجع عنه"[1]. وأولى هذه العتبات الغلاف، فهو يمثّل العتبة النصّية الأولى التي تقع عليها عين المتلقّي. وتعتمد واجهة غلاف كتاب "طفولة قلم" على التواصل العلاماتي من خلال الكتابة والصورة واللون، بوصفها مجموعة من العتبات تولج القارئ لعالم الكتاب وطبيعة محتوياته، أما ظهر الغلاف فيعتمد على التواصل العلاماتي من خلال الكتابة المسيّجة فقط.

ويتصدّر الكتابة العنوان، فهو من أهمّ العتبات النّصيّة التي عدّها الدرس النقدي الحديث قاعدة تواصلية تمكّن القارئ من توقّع أبعاد دلالية، لما تكشفه من إمكانيات فهم المحتوى وتأويله[2]، كما أنّه مجموعة من العلامات اللسانية[3] التي تشكل عتبة اختزالية تنبئ عن الموضوع. وفي طفولة قلم يتصدّر العنوان واجهة

---

[1] ـ SEUILS, Gérard Genette, 1987,P7.

[2] ـ ينظر: عتبات النص، البنية والدلالة، عبد الفتاح الحجمري، ط1، شركة الرابطة، البيضاء، 1996، ص16.

[3] ـ La marque du titre , leo heok, p17.

الكتاب، تعلوه مباشرة اسم الكاتب عباس الجراري. وتختزل دلالة العنوان البدايات الأولى لحمل القلم، فهو يكني بالطفولة المعاني الملازمة لمعناها الحقيقي، في إشارة واضحة للمرحلة الأولى التي تُكوّن شخصية الإنسان الناضج خلال مرحلة الطفولة، فتسمها بميسمها الأبدي اللازب، وحين اقترنت الطفولة بالقلم، فإنها فتحت أمام أفق انتظار القارئ وعدا بالاطلاع على نصوص مؤسسة لذات عباس الجراري كاتب النصوص، وما تشكّله من خلفية عميقة لتكوينه العلمي. خلفية احتضنتها مؤسسة عريقة في حياته الأسرية، وعن ذكراها التسعيني انبثقت فكرة الكتاب التي تسجّلت في أعلى واجهته "تخليدا للذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراري، 1930 ـ 2020". وهذه المصاحبة بين عوالم اهتمامات الكاتب والأسرة الجرارية والنادي الجراري الثقافي، كانت مقصدا أساسا تبناه سي محمد أملح للكشف عن بواكير المسيرة العلمية لعميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري. ويتضح ذلك في أسفل واجهة الكتاب بإثبات الخطوات التي قام بها في الكتاب "جمع وإعداد وتقديم،د.سي محمد أملح" ضمن "منشورات النادي الجراري رقم 102".

وتشكّل الصورة في الغلاف علامة أيقونيّة لا يمكن أن تنفلت من تورّطها في لعبة المعنى[1]، حيث يتمّ من خلالها الإيحاء بمجموعة من الأفكار والدلالات، وفي غلاف طفولة قلم نجد أنها تحتوي على صورة في وسط الواجهة، تمثّل أنموذجا من كتابات عباس الجراري الأولى بخط يده. وترتبط الصورة بالعنوان بعلاقة مباشرة، تستند لعناصر تأويلهما، الخاضعة للحمولات المرجعية التي راكمتها تجربة عباس الجراري العلمية منذ انطلاقاتها الأولى في عالم البحث العلمي والكتابة بالقلم. وإذا كان العنوان اختزالا لبدايات مسير الكاتب، فإن ارتباطه بالصورة تشي باختياره منذ طفولته، المسلك الذي سيسلكه في الحياة، وهو مسلك الكتابة بالقلم. وتوظيف الصورة للكتابة بالقلم، بوصفها علامة ممتلئة دلاليا، تجعلنا ندرك، إضافة إلى ذلك، أن الفضاء في الغلاف منفتح على فضاءات أوسع، يرمز له اللون الأبيض، الكاشف

[1] ـ سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم، قدور عبد الله ثاني، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، 2005، ص22.

عن الوضوح والاستمرارية، بوصفه القاعدة الأساس الذي ستنكتب فيه كل الكتابات الموجودة في واجهة الغلاف.

أما ظهر الغلاف، فقد قُسّم إلى قسمين: قسم يتضمّن أقوال مجموعة من أساتذة الطالب الجامعي عباس الجراري، يزكونه، ويشيدون بتميّزه وعمق بحوثه، وفي ذلك دلالة ذات أهمية كبرى على أن الدراسات والمقالات التي يعد بها جامعها ومقدمها في هذا الكتاب، تستحق التأمل، وأنّها تلبّي رغبة متلقّي كتابات الجراري في الوقوف على مستوى بواكير إنتاجه. وقسم آخر يتضمّن فقرة من تقديم سي محمد أملح تختزل مضمون الكتاب، وتمثيل نصوصه لكتابات كثيرة كتبها الجراري في مرحلة عمرية مبكرة.

ومن العتبات النصية المهمة أيضا، المقدمة. فهي لا تختلف كثيرا عن عتبة العنوان وصورته، إلا في نوعية العلامة التواصلية التي يعتمدانها، فالمقدمة تعتمد على اللغة المكتوبة في توجيه المتلقي والتأثير فيه، وهي خطاب مواز، يمهّد للكتاب المقدّم، ويكشف عن مقصديته. كما يحاول نسج علاقة، من وجهة نظر كاتبها، بين المتلقّي والكتاب، بتقديمه لآليات مسبقة لقراءته، تسعف على فهمه وتفسير حيثياته. وباستقراء المقدمة التي قدّم بها سي محمد أملح كتاب "طفولة قلم" نجد أنه قسمها إلى قسمين:

قسم مختصر تحدث فيه، بعد البسملة والتصلية، عن النواة التي انبثقت عنها الدوافع الأساسية من تأليف هذا الكتاب، وعن هيكلته وبنائه وفق ترتيب زمني معين.

وقسم آخر عنونه ب "عباس الجراري شخصية وُلدت في عالم الكتابة مكتملة"، سيتحدّث بنوع من التفصيل عن العوامل التي أسهمت في بروز النبوغ المبكر للعلامة عباس الجراري، وطبيعة التكوين العلمي الذي تلقاه، وأهّله بعد ذلك للانطلاق في عوالم الكتابة العالمة والرصينة، والمساهمة بدور كبير وفعّال في النهوض بالحياة الثقافية والفكرية والأدبية في المغرب.

وقد قامت هذه المقدمة بمجموعة من الوظائف، منها الوظيفة التأصيلية، التي أجابت عن سؤال: لماذا تأليف هذا الكتاب. وهو من أوائل الأسئلة التي

يطرحها القارئ أثناء قراءته لأي كتاب. وقد أجاب سي محمد أملح عن دواعي تأليف طفولة قلم، وأهميته وجدّة موضوعه، وخطة التأليف فيه.

والوظيفة التواصلية التي تقوم على فعل التواصل بين مؤلف الكتاب ومتلقّيه، وتجيب عن سؤال عتباتي مهم: مَن الشخص الذي رغب في تأليف الكتاب، وهنا نجد أن الرغبة كانت مشتركة بين سي محمد أملح وعباس الجراري، من أجل إضاءة زاوية معتمة تتعلّق ببواكير الإنتاجات الجرارية، وفهم السياق الذي ينخرط فيه الكتاب.

والوظيفة التكوينية، وهي التي تكشف عن ظروف تكوّن الكتاب، وخلفيته التاريخية والمعرفية، وتنوع موضوعاته في طفولة قلم، كما كشفت عن الأسس والمقومات التكوينية لصاحب النصوص المتضَمَّنة في الكتاب.

ومثل هذه الوظائف التي قامت بها المقدمة، أظهرت لنا الخلفية المعرفية والرصيد التاريخي الذي كوّنه سي محمد أملح عن العلامة عباس الجراري، وحفّزته لإثارة موضوع بداياته الأولى، وتحمل في الوقت نفسه السؤال النقدي المشترك، الذي يضيئ عتمات مرحلة مهمة من مراحل حياة المغرب الثقافية والعلمية، متمثَّلة في شخصية، تحمل بصمتها الإصلاحية والتجديدية، كما تحمل هويتها الثابتة عبر مختلف المراحل والعصور.

2ـ تمظهرات كتابة الذات الانتقائية في بدايات ذات الكتابة عند عباس الجراري:

إن كتابة الذات عموما، تحيلنا مباشرة على نوع أدبي يُعرف بالسيرة. وهي جنس أدبي نشأ منذ القديم، وقد عرّفها أهم منظريها في العصر الحديث فيليب لوجون بأنها "تتجسّد في تاريخ إنسان مشهور عموما، يكون مرويا من قبل شخص آخر، أو من قبل شخصه"[1]، الأمر الذي يعني أنه إذا كان رهان كتابة السيرة الذاتية جعل الأنا محورا وهدفا للخطاب، فإن السيرة الغيرية شكل من أشكال السيرة التي تجعل الآخر محورا وهدفا للخطاب، يسعى فيه الراوي لانتقاء جانب حيوي ومعرفي معين من جوانب حياة شخصية من الشخصيات، يعتقد بأهميته وضرورة تقديمه[2]

[1] ـ السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، ترجمة عمر حلي، ط1، الدار البيضاء، 1994، ص10.

[2] ـ تمظهرات التشكل السير ذاتي، محمد صابر عبير، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005، ص143.

للكتابة عنه. وبذلك تخضع السيرة الغيرية لمجموعة من الخطوات المتعارف عليها، وهي انتقاء شخصية معروفة، جمع المعلومات عنها، وترتيبها وفق منهج معين، ثم صياغة الأحداث مع تحري الدقة والموضوعية. وتعتمد على المدونات والتوثيق الموضوعي والملاحظات والقراءات وغيرها من الوسائل المعتمدة من خارج الذات المتحدث عنها.

كما أن هناك أنواعا كثيرة من السيرة الغيرية، كالسيرة الغيرية الشعرية والسيرة الغيرية الروائية والسيرة الغيرية النقدية وغيرها من أنواع السيرة، تكون من جهة حسب الزاوية التي يريد منها الكاتب النظر إلى الشخصية المكتوب عنها، وما يريد إبرازه من حياته، ومن جهة أخرى تغطي السيرة جوانب من جوانب اهتماماته سواء كانت إبداعية أم علمية. وهذا ما قام به سي محمد أملح في كتاب طفولة قلم، حين وجّه عنايته لاختيار تسليط الضوء على البدايات العلمية الأولى لعباس الجراري في مجال الكتابة والنشر، ذلك أن أي شخصية عالمة ومثقفة، تثير في رأيه استفهامات حول "طفولة قلمها، وبواكير إنتاجها"، من هنا جاءت فكرة هذا الكتاب، لأنه سيكشف "زاوية أخرى من المسيرة العلمية لعميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري، الذي تشعبت كتاباته وتعددت وتنوعت إلى درجة يصعب معها الإمساك بكافة خيوطها".

ويمكن تحديد عناصر السيرة الغيرية في طفولة قلم، من خلال ثلاثة عناصر: الميثاق العلمي والميثاق المرجعي والانتقاء.

1 ـ الميثاق العلمي: الميثاق هو عقد يتعاهد عليه شخصان أو أكثر من أجل عمل مشترك، وهو هنا بمثابة هوية تساعد القارئ على تلقي الكتاب على نحو القصدية التي يقصدها الكاتب، وتحديد الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه. فمصطلح "عقد يستتبع ويفترض وجود قواعد صريحة ثابتة ومعترف بها، لاتفاق مشترك بين المؤلفين والقراء، بحضور الكاتب الشرعي الذي يتم التوقيع عنده على نفس العقد وفي نفس الوقت"[1]. والميثاق العلمي في طفولة قلم يتوافق مع العناصر التالية:

[1] ـ السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، مرجع سابق، ص13.

ا ـ شكل اللغة: نثري علمي؛

ب ـ الموضوع: جانب من حياة شخصية عالمة، لها وزنها الاعتباري في المحافل الوطنية والدولية؛

ج ـ وضعية المؤلف: عدم تطابق بين المؤلف والشخصية المتحدث عنها؛

د ـ الإقرار بالطابع العلمي للكتاب من خلال التقديم، وما تضمّنه من مقالات ودراسات، منتقاة أخضعها سي محمد أملح للترتيب الزمني، وقسّمها إلى مرحلتين: المرحلة الثانوية وعنونها بفجر الكتابة والمرحلة الجامعية وعنونها بضحى الكتابة.

2 ـ الميثاق المرجعي: يرتبط الميثاق المرجعي ارتباطا وثيقا بالسيرة، لأنه يحيل على الواقع الذي استنبط منه الكاتب معلوماته عن الشخصية. لذلك هو خاص بالمعلومات التي يتوخى منها الحقيقة التاريخية والدقة العلمية. ولذلك نجد أن سي محمد أملح في طفولة قلم اعتمد على مرجعية تاريخية ودقيقة، للتدليل على المرجعية التاريخية الدقيقة التي اعتمدها في جمع نصوص العلامة عباس الجراري، التي ترجع إلى بداياته الأولى مع الكتابة والقلم. فمنذ الصفحة الأولى للكتاب، نجد أقوالا مثبتة لمجموعة من العلماء والأساتذة الذين درس عباس الجراري على أيديهم مثل الدكاترة حسين نصار وسهير القلماوي ويوسف خُليف وعبد الحليم النجار، وكلهم يشهدون على تميّز الدراسات التي كان يقدمها الجراري حين كان طالبا باحثا في جامعة مصر، وعلى نبوغ صاحبها. بل إن سي محمد أملح حرصا على الدقة والتوثيق المضبط، أتبع كل الدراسات بهوامش وإحالات تبين زمان ومكان نشرها، الأمر الذي يجسّد الميثاق المرجعي لطفولة قلم، وطبيعة مادتها التاريخية التي تعتمد على التوثيق والدقة.

وبالرجوع إلى تقسيمات الكتاب وتشعباتها، يتضح لنا أن سي محمد أملح اعتنى بمجموعة من النصوص لتكون شاهدة على اختياره لشخصية عباس الجراري، بوصفها "شخصية وُلدت في عالم الكتابة مكتملة"، وعبّرت بنوع من الموضوعية والمصداقية عن اهتمامات الشخصية ونبوغها المبكر في الوقت نفسه.

ففي القسم الأول "فجر الكتابة" ساق مجموعة من المقالات من الكتابات التي كتبها الجراري في المرحلة الثانوية، وقسمها إلى خمسة أقسام، توقفنا على

"تنوع الموضوعات والقضايا التي شغلت بال الكاتب الفتي، وبينت الأسس التي قامت عليها الشخصية الجرارية في بادئ نشأتها، وهي أسس متينة انبثقت عن مقومات الهوية الثابتة، حيث تنبني على التشبث الواضح بأصول الدين الإسلامي الحنيف، والتشبع الجلي بمبادئ الوطنية الحقة، والغيرة الكبيرة على الثقافة العربية في شتى مجالاتها، خصوصا الأدبية منها"[1].

فهذه المقالات والدراسات عكست الانشغالات العلمية التي انشغل بها، وهو لم يتعدّ بعد المرحلة الثانوية من دراسته، كما رصدت طبيعة تكوينه العلمي المتين، الذي لم يقتصر على المدرسة فقط، وإنما على برنامج دراسي جمع بين النمط التقليدي المكون من حلقات الدرس في المساجد، وأخذه عن والده حصصا منزلية تعليمية في مجموعة من العلوم اللغوية والشرعية، وحضوره مجالس العلم والأدب معه، وبين النمط النظامي في المدرسة. وهذا الجمع أكسبه تكوينا علميا رصينا ومتميزا، وأبرزت عن نواة تجربته في مجال الكتابة والنشر، سواء على مستوى الأفكار والدلالات والموضوعات، أم على مستوى طبيعة الأسلوب واللغة، كما كشفت عن مبدع شاب يتقد وطنية وغيرة على لغته ووطنه وأمته أجمع.

وإذا كانت الموضوعات في القسم الأول عامة، وتركز على مجال اللغة والإصلاح والتحرر فإن القسم الثاني ركّز على موضوعات أدبية ولغوية، وانشغالات نقدية دقيقة، إلا أن انشغالات اللغة والإصلاح والتحرر بمعناه الواسع الذي يشمل كل مناحي الحياة، كان مصاحبا له في مختلف الدراسات والمقالات التي جمعها بوصفها نماذج تمثل طبيعة كتابات عباس الجراري في تلك المرحلة المبكرة من حياته، والتي صاحبته في مختلف كتاباته بشكل أم بآخر، ولعل خير دليل على ذلك، كتبه "الحرية والأدب"[2] و"الثقافة في معركة التغيير"[3] و"الفكر والوحدة"[4] و"الإصلاح

---

[1]ـ طفولة قلم، ص25/24.

[2]ـ صدر عن دار الأمنية، الرباط سنة 1971.

[3]ـ صدر عن دار النشر المغربية، البيضاء، سنة 1972.

[4]ـ صدر عن مطبعة المعارف، البيضاء، سنة 1984.

المنشود"[1] وغيرها من الكتب التي تُبين تشعب انشغالاته وإنتاجه بين الدراسة الأدبية والبحث في التراث العربي، والفكر الإسلامي وقضايا الأدب واللغة والثقافة.

وهذا يعني أن ذات الكتابة ليست طفرة بدون جذور، أو تنشأ اعتباطا، وإنما لها مجموعة من الأسس التي تُبنى عليها، وتُكوّن شخصية الكاتب ورؤيته النقدية والجمالية، منذ بداياته الأولى. تحمل صبغة الكاتب الذاتية، وتوجهاته الموضوعية والفكرية، التي تصاحبه طيلة حياته.

***

المراجع المعتمدة:

ـ تمظهرات التشكل السير ذاتي، محمد صابر عبير، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005.

السيرة الذاتية، الميثاق والتاريخ الأدبي، فيليب لوجون، ترجمة عمر حلي، ط1، الدار البيضاء، 1994.

ـ سيميائية الصورة، مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم، قدور عبد الله ثاني، دار الغرب للنشروالتوزيع، وهران، 2005.

ـ طفولة قلم، عباس الجراري، جمع وإعداد وتقديم د. سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري رقم 102، ط1، 2020.

ـ عتبات النص، البنية والدلالة، عبد الفتاح الحجمري، ط1، شركة الرابطة، البيضاء، 1996.

ـSEUILS, Gérard Genette, 1987.

La marque du titre , leo heok ـ

***

[1] ـ صدر عن منشورات النادي الجراري، الرباط، سنة 2005.

د. أمل بنويس

- أستاذة باحثة، حاصلة على الدكتوراه (تخصص المسرح).

- أستاذة ملحقة بالبعثة الفرنسية، ثانوية ليوطي، الدرا البيضاء.

- أستاذة عرضية ضمن هيئة تدريس ماستر مكونات الأدب العربي في المغرب الحديث والمعاصر، التابع لشعبة اللغة العربية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة (20-2021).

- عضو فريق البحث في الأدب المغربي، كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.

- عضو لجنة التحكيم في المهرجان الدولي لمسرح الطفل، فاس، 2012.

- عضو لجنة التحكيم لجائزة تازة للإبداع الأدبي، دورة مسرح الطفل: دراسات وإبداع.

- شاركت في العديد من الندوات العلمية واللقاءات العلمية، منها:

1- الندوة التلفزية «المسرح العربي الجديد» في مهرجان أيام الشارقة المسرحية، الدورة **23.**

2- ندوة «الأدب المقارن وحوار الثقافات»، كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، الرباط، **(2015).**

3- مهرجان المسرح العربي، الدورة الثامنة، الكويت، **(2016).**

4- مهرجان المسرح العربي، دورة عز الدين المجوبي، الجزائر، **(2017).**

5- الملتقى الدولي للفنون وحوار الحضارات، مراكش، المغرب، **(2017).**

6- الندوة الدولية حول «تفاعل الأدب والفنون المجاورة»، كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، **(2017).**

- من أعمالها المنشورة:

أ- الكتب: الحداثة العالقة، مأزق الطليعة في المسرح العربي، دار روافد، القاهرة، **2019.**

ب- ضمن كتاب جماعي:

1- تحولات الفرجة وفرجة التحولات، منشورات المركز الدولي لدراسات الفرجة، طنجة، **2013.**

2- الجماليات المسرحية في تجربة المخرج محمد بلهيسي، منشورات مقاربات، فاس، **2017.**

3- التفاعل بين الأدب والفنون المجاورة، دار عالم الكتب الحديثة، **2018.**

4- الأدب المغربي الحديث والمعاصر: أسئلة وقضايا، منشورات النادي الجراري، رقم: **93**، **2020.**

- ولها عدة مقالات منشورة في مجلات مغربية ومشرقية

****

"طفولة قلم" وبدايات تشكل المشروع الفكري عند عباس الجراري

د. أمل بنويس

استأثر المنجز الفكري لعميد الأدب المغربي الدكتور **عباس الجراري** باهتمام لافت، مقارنة بعدد كبير من مجايليه ومتاخميه الثقافيين في الساحتين الأدبية والجامعية، ولم يقتصر هذا الاهتمام بكتاباته وإنتاجاته في حقل الأدب والشعر والنقد والتاريخ فحسب، بل امتد إلى حقول معرفية وتخصصات فكرية أخرى ارتبطت بإشكاليات الحداثة والتنوير والنهوض الحضاري في العالم الإسلامي، واهتمت بمسألة تجديد الثقافة واستراتيجيات التقدم الحضاري وتحقيق شروط النهضة للأمة والخروج من وضع التبعية والتخلف.

وبالنظر لخصوصيات الخطاب الفكري والأدبي للدكتور عباس الجراري، والمتسم بموسوعيته وتعدد مشاربه ومجالاته المعرفية، وكذا انسجام رؤيته الثقافية وشمولية مشروعه الحضاري، يكون الباحث الذي يخوض في دراسة آثار هذا الرجل ملزما بإدراك مقاصد هذا الخطاب، وحصر آليات اشتغاله وفهم تداعياته وأسبابه، دون فصل للقضايا المدروسة عن سياقها العام سواء كانت أدبية أو فكرية أو ثقافية أو غيرها، تفاديا للوقوع في الاختزال والتجزيء؛ وفق هذا التصور، اخترت في هذه الورقة تقديم قراءة في كتاب "***طفولة قلم***"[1]، وهو مؤلف من إعداد وتقديم الدكتور سي محمد أملح، يجمع بين دفتيه بواكير المقالات والإسهامات الأدبية والفكرية التي جاد بها الدكتور عباس الجراري وهو شاب في مقتبل العمر، أي خلال سنوات تمدرسه بالتعليم الثانوي والجامعي.

وقد يتساءل البعض *لماذا بواكير الكتابة عند عباس الجراري بالذات موضوعا لكتاب؟ وما القيمة التي ستضيفه إلى مسار شخصية راسخة في مجال الأدب والفكر العربي والمغربي على حد سواء، شخصية أغنت المكتبة المغربية*

[1].عباس الجراري، **طفولة قلم**، جمع وإعداد وتقديم د.سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري-رقم **102**- الطبعة الأولى دجنبر **2020**.

العربية بمؤلفاتها القيمة في مجال الدراسات النقدية والفكرية والأدبية والتاريخية والتي تفوق الثمانين كتابا ناهيك عن المخطوطات، كما استنزفت أقلام الكتاب والباحثين والمختصين، من خلال كتب وبحوث وعدد غير يسير من الأطاريح ؟ ألن تشوش صورة الكاتب المبتدئ المتلمس لسبل البحث ومدارجه الأولى، صورة عميد الأدب المغربي والأستاذ الأكاديمي المتمكن ذي المكانة العلمية المتميزة، الذي وسم تاريخ الفكر والنقد العربيين منذ عقود من الزمن؟

جوابا عن كل هذه التساؤلات نقول: إن تاريخ الفكر البشري هو تاريخ تطوري بالأساس، يقتضي التجاور لا التجاوز، البناء لا الهدم، الاستمرار لا التوقف.. لذلك فما قد يكتبه الكاتب في شبابه، لا ينفصل بالضرورة عما حققه في مرحلة نضجه وكماله، بل لعل ذلك القديم قد شكل أرضية صلبة ونواة حقيقية لمشروع ثقافي شامل انتهى إلى الاكتمال ووصل إلينا في أبهى صوره وأكملها خلال مرحلة لاحقة، إن ما يوصف بالكتابات الأولى هو في الواقع ترجمة لأفكار آمن بها الكاتب في مرحلة من مراحل حياته العلمية والثقافية، فراح يطورها عبر سيرورة من العمليات والمحطات المعرفية المختلفة، نشدانا للاستفادة والإفادة، شأنه -في رعاية الفكرة- شأن من يزرع شتلة ويرعاها، فتزداد جذوعها قوة وأوراقها كثافة كلما سقاها، لتزهر كرما وتجود على الآخرين بثمارها.

لذلك فلا مناص -ونحن نجول في طيات هذا الكتاب- أن نتوسل في قراءتنا بمنهج شمولي يلحق مضمون مواد هذا المؤلف بما تلاه من مضامين الكتب اللاحقة للدكتور عباس الجراري، لأنه حتى ولو اختلف الأسلوب والمنهج وتطورت الديباجة وجادت العبارة، إلا أنها تبقى أفكارا أملتها نفس الذات المدركة للوجود، ونفس الوعي بالأشياء، نفس هجست بغايات واحدة، شغلت بال صاحبها واستجابت لأفق انتظاره تلميذا في سنوات تعلمه الأولى، فطالبا بالجامعة، ثم مفكراً وباحثا راشدا خاض تجربة ثقافية وتربوية وسياسية مخصوصة، اكتسب معارفه في كنف أسرة عالمة ومثقفة قدمت له التوجيه والدعم والتشجيع، وصقل خبراته في محراب الجامعة ومنبر الاجتهاد والبحث العلمي.

إن الكتاب الذي بين أيدينا لا يُستثنى، من حيث أهميته، من ذاك المنجز المتنوع والقيم لعميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري، فهو لا يكتفي بالكشف عن بدايات تفتق الإبداع عند هذا الرجل فحسب، وإنما يجعلنا نؤمن بأن النبوغ، أي نبوغ، يكون منشؤه الإرادة والعزيمة والمعرفة الصحيحة والتوجيه السديد، وأن تطور الفكر لا يتأتى إلا بالجد والكد والاجتهاد؛ صحيح أن مواد هذا المؤلف قد خطتها أنامل الدكتور الجراري، خلال مرحلة شبابه وبالضبط ما بين سن السابعة عشرة والرابعة والعشرين، لكنها في نظري إنتاجات على درجة عالية من الأهمية، ولو أنها افتقرت في بداياتها المدرسية إلى وضوح المنهج وعمق المناولة، وذلك أمر منطقي لا نغفل معه أنها محاولات أنجز جزء كبير منها خلال مرحلة التعليم الثانوي، فكان من الطبيعي أن تبدو مواد القسم الأول من الكتاب، أقل تماسك من حيث الشكل والأسلوب والمنهج عن مواد القسم الثاني الذي يجمع موادا كتبت خلال مرحلة التعليم الجامعي، حيث بدأ تمرس الكاتب على إنجاز البحوث الأكاديمية والدراسات المطولة وفق أسس متينة وعلمية غاص بها في تخصصات أكاديمية مرتبط جلها بمجال الدراسات الأدبية والنقدية والثقافية.

قسمت مواد الكتاب إذا إلى قسمين: عنون جامعها القسم الأول بـ: **"فجر الكتابة"** وضم إحدى وثلاثين مادة أدبية ومقالة كتبت خلال مرحلة التعليم الثانوي وبالضبط مابين سنة **1954** و**1956**، أما القسم الثاني فقد حمل عنوان **"ضحى الكتابة"** وجمع أهم البحوث والمقالات التي أنجزت أو نشرت خلال مرحلة الدراسات الجامعية وبالضبط ما بين أكتوبر**1957** وأبريل**1961**، حين كان عباس الجراري يبلغ من العمر أربعة وعشرين سنة.

يتضمن القسم الأول من الكتاب ستة أروقة أو أبواب، اختص الرواق الأول بجمع المقالات المنشورة بمجلة **"هنا كل شيء"**، والثاني بالموضوعات التي حررت أثناء فترة مرضه وباقتراح من والده، والثالث بالمحاولات الأولى في قرض الشعر، أما الرابع فتعلق بالعروض التي شارك بها الكاتب في الأنشطة المدرسية، والخامس بالكلمات التي حررها الكاتب عند إعلان الاستقلال،والسادس والأخير في هذا

القسم لكلمات شارك بها في أنشطة المدرسة الحسينية بالقاهرة، في حين تضمن القسم الثاني الذي جمع إنتاجات المرحلة الجامعية رواقين فقط جمع الأول المقالات المنشورة بالجرائد المغربية والثاني بحوثا مطولة أنجزت بجامعة القاهرة.

وإذا كان تصنيف هذه المواد قد راعى التدرج الزمني لظهور المقالات أو نشرها،فإنه لم يغفل كذلك تقاربها الموضوعي أو الشكلي، وهو مجهود يشكر عليه الدكتور "سي محمد أملح" الذي قام بجمع وإعداد وتقديم الكتاب لتسهيل رحلة القارئ بين أروقته دون أن يتيه أو يضيع في جغرافية مواده العديدة أو تختلط عليه المجالات والمواضيع، فتجد القارئ يستشف سريعا ذلك الخيط الناظم الذي يجمع بين المواد ويجعلها منسجمة ومتكاملة، وكذلك يلمس موسوعية الاشتغال من خلال تعدد المجالات المطروقة وكثرة الأنواع الأدبية التي خاض فيها عباس الجراري رغم حداثة تجربته في الكتابة، منتقلا بين فكر وأدب وسياسة وتاريخ وثقافة عامة وأيضا بين الأنواع الأدبية المختلفة من مقالة وشعر ورحلة وعرض وكلمات إذاعية..

ومع أن الفرق جلي بين القسمين الأول والثاني، والتمايز بينهما واضح على مستوى الشكل والمضمون والمنهج، إلا أن أهمية هذه المواد وقيمتها المعرفية وتنوعها، كلها أمور تشي بجهد كبير بذل في سبيل التعلم والبحث والتمرس على الكتابة والإبداعين الأدبي والنقدي خصوصا في مرحلة التعليم الثانوي، كما تفصح عن استعداد مبكر لدى الكاتب للانفتاح على المجالات والتخصصات المتعددة، والذي يعزى لعوامل أجملها الدكتور السي محمد أملح في ما يلي:

1-عامل ذاتي مرتبط باستعداد الفتى عباس الجراري الفطري وذكائه وسرعة بديهته وتعلمه...

2-عامل أسري، يتمثل في نشأة الأستاذ عباس الجراري في أحضان أسرة عالمة تحت رعاية والده العلامة عبد الله الجراري...

3- عامل ثالث مرتبط باحتضان الصحافة وقتئذ للأقلام الناشئة والشابة من خلال تشجيعها والأخذ بيدها في مجال الكتابة...[1]

[1] **طفولة قلم**، ص: **9-10-11.**

وهي كلها عوامل من شأنها أن تحفز الإبداع وتزرع روح التحدي والمثابرة وتراكم المبادرات، خصوصا إذا ما تعلق الأمر بإرادة وعزيمة قويتين ورغبة حثيثة في تحقيق التفوق والنجاح، لذلك شكل الكتاب طبقا شهيا للقارئ، يحرك فضوله ورغبته في التعرف على ما خفي من حياة الأستاذ عباس الجراري، ورصد تطور الكتابة عنده من خلال الاطلاع على إنتاجاته الإبداعية الأولى التي تعود لمرحلة الشباب، وهي مرحلة ينظر إليها عادة كفترة انتقال يكتنفها اللهو والمتعة والتجريب، والواقع أنها كانت غير ذلك بالنسبة لعميد الأدب المغربي، إذ أنها وسمت بالاجتهاد والنهم المعرفي ونشدان الإجادة والتفوق وكثرة التمرين على الكتابة وطرق كل أبواب المعرفة ومجالاتها سياسية كانت أو ثقافية أو أدبية أو غيرها.

وقد لا نختلف في أن القدرة على الجمع بين كل هاته المجالات ليست بالأمر اليسير على تلميذ في سنوات تعليمه الثانوية وحتى الجامعية، ولا بد أن التوجيه والتمهير الدائمين أهلاه لدخول عالم الكتابة مبكرا بل وخوض مغامرة النشر في الجرائد والمجلات إلى جوار كبار الكتاب والأقلام خلال سن صغيرة، وهذا، ما كان ليتحقق لولا دعم وتوجيه الوالد المثقف العلامة عبد الله الجراري، وهو أمر صرح به الكاتب عباس الجراري عدة مرات ضمن هذا الكتاب، ولولا طموح ابن نجيب كان يسير على درب الاجتهاد باقتداء النموذج ومرافقة العلماء في جولات وأسفار وأسمار أدبية وعلمية، تمثل مقالة "السفر ظفر"[1] خير دليل ومثال على ذلك.

هذا الكتاب إذا، لا يكتفي بالكشف عن موهبة مبكرة لدى الشاب عباس الجراري فحسب، فهو من جهة أخرى يمثل أرشيفا مهما للباحثين والمهتمين بالتاريخ والجغرافيا والسياسة والمتتبعين لمسارات الرجل الإبداعية شعرا ورحلة ومقالة، ذلك أن مواد الكتاب غالبا ما تنطوي على قدر هائل من المعطيات والمعلومات والأحداث التي استحضرها الكاتب من التاريخ العربي الإسلامي والمغربي، ووقائع الاستعمار، وضمّنها مقالاته ومحكياته خصوصا محكيات السفر،

[1] مادة نشرت بمجلة "**هنا كل شيء**"، العدد **31**، بتاريخ **31** أكتوبر **1954**م.

التي زخرت بوصف للأماكن والجغرافيات وذكر لتقاليد وعادات ومعتقدات بعض المناطق مما زاره رفقة والده في المغرب والجزائر، معتمدا في سرده لغة منمقة وعذبة تصل للقارئ بليونة فتتحصل لديه متعة ورغبة في استمرار السرد، سرد الماضي وعوالمه الغابرة السحرية وهي كلها معطيات قد تشكل مادة لبحوث اجتماعية وتاريخية وأنثروبولوجية مهمة.

(طفولة قلم)وبداية تشكل المشروع الفكري

تمنحنا المسافة التي تفصلنا زمنيا عن تاريخ كتابة مواد "طفولة قلم" أن نستشف من طياته، الإرهاصات الأولى لتشكل المشروع الفكري والإصلاحي للدكتور عباس الجراري، وهو المشروع الذي اكتملت صورته واتضحت مبادئه جلية في كتب عديدة لنفس الكاتب[1]، كتب اهتمت على الخصوص بقضايا الفكر الإسلاميّ الحديث، والعولمة، وأبدت موقفها بوضوح إزاء مسالة الهوية والحداثة الغربية، واللائكية، وإشكالية الأصالة والمعاصرة، وغيرها من القضايا التي تقتضي، بالإضافة إلى سعة الإطلاع والمعرفة إحاطة دقيقة بمقتضيات التاريخ، والفلسفة، والاجتماع، والسياسة، وفهم لطبيعة العلاقات الحضارية والثقافية بين الشعوب والأمم.

هذه الإرهاصات تجلت في عدد من مقالات ومواد الكتاب الذي بين أيدينا، حيث أنه تطرق لإشكاليات مهمة، كقضية الإصلاح والتقدم ومسألة الثقافة

---

[1]. يمكن في هذا الصدد العودة لبعض كتب الدكتور عباس الجراري ومنها:

(هويتنا والعولمة)منشورات النادي الجراري، مطبعة الأمنية، الرباط **2000.**

(الإسلام واللائكية، معرفة الإسلام)منشورات النادي الجراري**26**،مطبعة الأمنية، الرباط **2003.**

(لا تطرف ولا إرهاب في الإسلام)منشورات النادي الجراري **2004.**

(الدولة في الإسلام – رؤية عصرية**)**منشورات النادي الجراري**2004.**

(بين التنمية والثقافة)منشورات النادي الجراري**68**، مكتبة دار السلام، الرباط **2016,**

(الأخلاق أساس كل إصلاح)، منشورات النادي الجراري**65**، مكتبة دار السلام، الرباط **2015**

(حاجة الفكر العربي الاسلامي إلى حداثة أصيلة)، منشورات النادي الجراري**74**،مكتبة دار السلام، الرباط **2017**

*والتراث وغيرها من المواضيع، ومنها المقالة المعنونة بـ: "**نظرة حول الإصلاح**"[1]، وفيها -كما يشير العنوان- يقدم الشاب عباس الجراري تصوره لمفهوم الإصلاح وسبل تحقيقه في المجتمع، حيث يؤكد على مسألة القضاء على الفقر والجهل،ويجعلها شرطا أساسيا لتحقيق تطور الأمم ورقيها الحضاري والفكري، وأنه لا يمكن لأي إصلاح أن يتحقق إلا إذا تم خلق نظم لبناء علاقات وقيم اجتماعية جديدة[2]، ولأنه يعي أن مسالة التحديث هي مسألة إشكالية تختلف حولها المواقف والآراء، فقد عضد موقفه بالحجج والبراهين، مستحضرا -في منهج مقارن بسيط- الآراء المختلفة للمصلحين حول سبل تقدم الأمم، مصنفا إياهم في قطبين، الأول يجعل التعليم وبث روح الوطنية في نفوس الناشئة من أولى الأولويات لتلافي التأخر والانحطاط، وقطب آخر يرى في القضاء على الفقر أقرب الطرق وأجداها لمناهضة التخلف، بحجة أنه يستحيل تعليم قوم بطونهم جائعة وأجسامهم مريضة وعقولهم عليلة.. وهذا الرأي الثاني هو الذي مال إليه موقف الكاتب باعتباره **مسايرا لحكم المنطق العقلي**[3]، داعيا إلى ضرورة الاجتهاد من أجل إيجاد الوسائل الجديرة لمساعدة الفقراء بعيدا عن منطق العطايا والإحسان.*

هذا الاهتمام المبكر بقضايا الأمة وسبل الخروج من التخلف والانحطاط، وتحقيق التنمية والتقدم، هو ما سيتأكد في مقالة أخرى في ذات المرجع، تحمل عنوان: **"ستة مقترحات لتقدم الأمة المغربية**[4]، وهي تتكامل من حيث المضمون مع سابقتها، وفيها يحاول الكاتب بسط تصوره للإحسان المفضي لتحقيق التنمية، وهو حسب طرحه إحسان من نوع آخر، لا يعود الكسل والاتكال ومد اليد وإنما إحسان يقوم على تطوير الأعمال والمنشآت والمشاريع، حيث يقول:

"ينبغي تنمية الإنتاج والثروة العامة ليزيد كسب الفقير ويتسنى له إشباع حاجياته وضرورياته... بأرخص ثمن وأيسر طريق، وذلك بتشجيع مختلف

---

[1]. للإطلاع على المقال يرجى العودة لكتاب **"طفولة قلم"** مرجع سابق، ص: **123.**

[2]. **نفسه.**

[3]. **نفسه**، ص: **124.**

[4]. بحث ألقي بتاريخ **29- 09- 1956.** انظر **طفولة قلم**، ص:**125.**

الصناعات واستعمال أحدث المخترعات مع توجيه الإنتاج والسير به على أسس من التعاون، ودرء الحرية المطلقة في الاقتصاد، تلك الحرية التي تكون الاحتكار الخاص عن طريق تضخم الرأسمالية، فيزيد غنى الأغنياء وفقر الفقراء،.."[1]

وهذه القولة وحدها تؤكد أن كاتبها على وعي بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الراهنة، ويدرك أهمية الرهان التقني في تحقيق أي تقدم منشود، وخطورة التحولات العالمية نحو اللبرالية، فنجده يحذر بشكل استباقي من كل اندفاع نحو الاشتراكية المتطرفة أو اللبرالية المفرطة التي من شأنها تعميق الهوة الطبقية والتفاوتات الاجتماعية بين الأفراد، ويدعو بالمقابل إلى نهج سياسة إنتاجية لاستثمار موارد البلاد الطبيعية واستغلالها، وإنشاء الشركات والمصانع الوطنية في المدن والقرى، وضرورة الرفع من الأجور كي تصبح كافية للعمال لتأدية حاجاتهم الضرورية، وتوزيع الثروة الزراعية وحماية ملكية الفلاح وتقديم الدعم المالي الضروري له، والقروض الزراعية لإنجاح المشاريع، ولم يغفل الشاب عباس الجراري، ضرورة إنشاء مؤسسات للتأمين وصناديق للتوفير، والسكن اللائق ومستلزمات التطبيب ضمانا لحياة اجتماعية كريمة للجميع، وقد ربط كل هذه المقترحات بضرورة انخراط الجميع في العمل والرقي بالبلد، وفق مقتضيات فريضة الزكاة التي تفترض تقاسم النعم ومنها المعرفة والتجربة لتعم الفائدة، معتبرا أن **المساهمة في الإصلاح الاجتماعي فرض عين لا فرض كفاية**[2]، وبذلك يربط كل إصلاح ممكن بمقاصد الشريعة الإسلامية وتعاليمها الدينية كما يجعل المسؤولية جماعية وكذلك الفائدة.

من المقالين اللذين سبق ذكرهما نفهم انخراط الكاتب عباس الجراري مبكرا في سجالات عصره الفكرية خصوصا في مرحلة ما بعد الاستقلال، وما تلاها من حراك اجتماعي وسياسي وفكري، واضطلاعه بالدفاع عن قضايا مجتمعه ورغبته في ترسيخ أسس التنمية الضرورية التي تواكب العصر دون أن تهمل الراسخ من

---

[1] طفولة قلم، ص: **126.**

[2] نفسه، ص: **127.**

القيم والمبادئ، كل ذلك من خلال تبني خطاب معرفي وبرهاني متصل بواقع المجتمع المغربي ومعطياته، يستدعي أسئلة الراهن الحي وإشكالات ما بعد الاستقلال، فجاء خطابه حجاجيا يروم الإقناع، ويتوسل بلغة بسيطة بعيدة عن التكلف البلاغي أو التجريد الفلسفي لتحقيق مقصدية الكاتب.

وبالعودة إلى مؤلفات الدكتور عباس الجراري حول القضايا نفسها، أي: التقدم والتنمية والحداثة نجد أن تصوراته اللاحقة لم تختلف كثيرا عما صدح به قلمه شابا بهذا الخصوص، إذ لازال يؤكد على ضرورة الانفتاح على ما يتيحه العصر من إمكانات من أجل تحقيق التقدم، مع التحلي بفكر معاصر وبعمل دؤوب وإبداع في البحث عما يناسب هذا الفكر اجتماعيا وثقافيا وسياسيا واقتصاديا بما يضمن للفرد حريته وكرامته وكذا للجماعة [1].

وإذا كان الكاتب عباس الجراري لم يشر في مقالتيه الآنفتي الذكر إلى تصوره وموقفه من التراث، فإنه قد عبر عنه عدة مرات في سياقات أخرى من خلال اشتغاله على هذا التراث نفسه في عدد من المقالات والمواد، خصوصا تلك التي كتبت خلال فترة التعليم الجامعي، التي يبدو أنها قد أثرت كثيرا في تكوين شخصيته ككاتب ونحتت معالمه كأكاديمي يمتلك منهجا في البحث ويتوسل برؤية محكمة لدراسة القضايا المطروحة، هكذا وعوض الاكتفاء بالدعوة إلى ضرورة العودة إلى التراث ونفض الغبار عليه، انطلق من نفسه واهتم قبل الآخرين بدراسة الإرث الثقافي والأدبي العربي والمغربي على حد سواء، محاولا إماطة اللثام عنه وكشف خفاياه، فهَم كطالب نهم للمعرفة إلى البحث والتنقيب في صفحات التاريخ الأدبي القديم، طارقا عددا من المجالات المرتبطة بالثقافة والأدب والشعر العربي القديم والمعاصر، فخاض في **أصالة القوافي والأوزان الشعرية العربية**[2]، **وقضايا**

---

[1] **حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حداثة أصيلة**، ص **7**.

[2] المقالة نشرت بجريدة العلم، العدد **2695**، بتاريخ **28** ربيع الأول **1377** موافق **22** أكتوبر سنة **1957**م. **طفولة قلم**، ص: **131**.

الغزل العربي، والتجديد الشعري (ذكرى أمير الشعراء[1]) والأدب المغربي والنقد العربي ومناهج الأندلسيين، كما دعا إلى العناية **بالأدباء والعلماء المغاربة المنسيين[2]** أمثال محمد بن عيسى الصنهاجي، وأبي جعفر وابن عطية، ومحمد بن حبوس، وأحمد الجراوي، ومالك بن المرحل وغيرهم.

لقد عبر الأستاذ عباس الجراري عن موقفه من القديم بشكل واضح، واعتبر الغموض والإبهام ونسيان العصور الأدبية المغربية القديمة مرده أساسا إلى إهمال التراث والتاريخ، واعترف أن النهضة لا يمكن أن تتحقق إلا بمحاولة استدراك هذا النسيان وهذا الخطأ معبرا عن ذلك بقوله: **"كثير من الكتاب والشعراء يتطلعون إلينا من وراء القبور، وينتظرون منا،ونحن نبعث نهضتنا، نقيم لهم ذكرى تعيد حياتهم إلى النفوس، بعد أن أماتها الإهمال وطمس المعالم"[3]**، ويضيف في ذات السياق بلهجة أكثر حدة: **"ويل لأمة أهملت بعث تراثها وإحياء أمجادها..."[4]**

وكأنه هنا يستنهض همم الباحثين للخوض في قضايا التراث ويحملهم مسؤولية ضياع إرث عريق، واعتبار هذه المهمة شرطا أساسيا لنهضة الحضارة التي لا تستقيم في نظره إلا بإعادة الاعتبار لمن سبقونا في العلم والمعرفة في مختلف المجالات الأدبية والفنية والعلمية والتعليمية، ويجعل مسؤولية إشعاع الأدب القديم والتعريف بإنجازات السابقين مسؤولية ملقاة على عاتق الأدباء والدولة على حد سواء، ولتجاوز ذلك يدعو لتكريس ثقافة الاعتراف والتكريم من جهة ولخلق سياسة ثقافية واضحة تدعم التراث وتحافظ عليه، من خلال إحداث مجلس أعلى لرعاية العلوم والآداب يختص بالإشراف على مختلف الفنون، ويسهر على إحياء التراث

---

[1] نشرت بجريدة **العهد الجديد** العدد **813**، **1959**، **طفولة قلم**، ص: **148.**

[2] يمكن العودة هنا إلى المقال "رجالاتنا المنسيون" **طفولة قلم**، ص : **155**

[3] نفسه، ص: **156.**

[4] نفسه، صفحة **158.**

وبعثه ونشره من جديد، وذلك من شانه -في نظره- أن يوثق **"الصلة بين حاضر يحثنا على النهوض، وماض نستمد منه القوة والحياة"**[1].

على ضوء ما سبق يتضح أن الدكتور عباس الجراري، شأنه شأن الكثيرين من مثقفي زمنه، اهتم بالتراث في الفكر العربي المعاصر، وحاول مساءلة الحاضر واستشراف المستقبل، في إطار الحملة الفكرية التي نشطت مع مطلع القرن التاسع عشر واهتمت بقضايا النهضة والحداثة العربية وقضايا التحديث، فتأطر بدوره ضمن أحد أقطاب الفكر النهضوي العربي وفق ما تستوجبه قناعاته وأفكاره وإيديولوجيته، وعوض القطيعة مع التراث أو التطابق التام معه، اتضح اختيار الانتماء للقطب التوفيقي المتصالح مع التراث، والانضمام للقائلين بضرورة الجمع بين الوجوه المشرقة من تراثنا والمطابقة معها، والأخذ من تراث الغير ما يبدو معينا على استعادة شروط القوة الحضارية وتعزيز الثقة بالتراث الإسلامي، بما يضمن حفظ الهوية وصون الأصالة، ويرقى بالأمة إلى مدارج التقدم.

بهذا المعنى، يغدو الاهتمام بالتراث ضرورة حضارية متى أريد تحقيق النهضة، وهو نفس الموقف الذي تبناه محمد عابد الجابري بعده، حيث اهتم بدوره بالتراث وانطلق منه مشكلا قاعدة لخطابه الفكري، معتبرا إياه بمثابة ضمير الأمة أو مرآة تعكس الآمال الممكنة أو ما ينبغي أن يكون[2]. هذا التصور الذي تبدو إرهاصاته الأولى بادية للعيان في مقالات الدكتور عباس الجراري الأولى، وهو ما لا تزال مؤلفاته المتأخرة تعالجه بشكل مخصوص، موجهة عنايتها دائما للتراث وضرورة مراجعته وفهمه وحل إشكالاته في سبيل **"إيجاد حداثة جديدة تكون البديل الذي يخرج الفكر العربي الإسلامي من الحيرة التي تستبد به والاضطراب الذي يعانيه.."**[3] على مختلف المستويات سياسية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو إبداعية، دون انفصال عن العالم وما فيه من جديد وما يحدث فيه من تغيير؛ وهو بذلك لا يقصد

---

[1] **طفولة قلم**، مرجع سابق، ص **157.**

[2] محمد عابد الجابري، **من أجل رؤية تقدمية لبعض مشاكلنا الفكرية والتربوية**، مطبعة دار النشر المغربية، البيضاء **1973**، ص **68.**

[3] **حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حداثة أصيلة** - ص **10.**

السير على منوال الحداثة الغربية، فظروف نشأتها حسب الجراري مختلفة عن واقع المجتمعات العربية الإسلامية، وقيمها مختلفة عن ثوابتنا ومقوماتنا سواء ما اتصل منها بالدين أو اللغة أو التراث أو التقاليد؛فالحداثة التي يقصدها هي حداثة يصفها بـ**"الأصيلة"**، هي حداثة تنطلق من دراسة التراث في أصوله ومرجعياته وتقوم بتصفيته من الشوائب سواء على مستوى الفكر أو المنهج، وكذا تجديد الخطاب الديني والاجتهاد الفقهي كي يواكب العصر[1].

ومازال الدكتور عباس الجراري يؤكد، في سياقات حديثه عن الفكر العربي الإسلامي ومسألة تحديثه، ضرورة مراجعة التراث ونقده بجرأة وشجاعة ومعرفة صحيحة، دون أي شعور بالنقص، حتى نتبين أسباب التأخر الذي يعانيه، وهو بمسألة النقد والتشريح، يضيف الأهم لتصوره السابق بخصوص العودة للتراث، وإمكانية فحصه ونقده بجرأة.

انطلاقا مما سبق، يمكن الجزم بكثير من الوثوق، أن الإنتاجات الأولى للدكتور عباس الجراري، لم تكن فقط مجرد تداريب على الكتابة والتأليف، وإنما شكلت اللبنة الأولى لمشروع ثقافي وفكري واضح الأركان، يخوض في القضايا الأدبية والفكرية والدينية والسياسية والاجتماعية دون مركب نقص، وهو المشروع الذي سيتعزز لاحقا ويشتد عوده وتتحدد ملامحه في كتابات لاحقة اكتملت معها معالم النضج الأكاديمي ودربة الرجل وتمرسه داخل أسوار الجامعة وبين الكتب والخزانات العربية والمغربية، وهذا لا ينفي الحكم الذي أطلقه "الدكتور سي محمد أملح" واصفا الأستاذ الدكتور عباس الجراري في تصديره لـ**"طفولة قلم"** بكونه شخصية ولدت في عالم الكتابة مكتملة[2]، متشبعة بقيم ثقافية وحضارية عربية وإسلامية أصيلة انعكست بشكل واضح في كتاباته فحملت -بالإضافة للرغبة في تقاسم المعرفة والإفادة ونشر العلم- ذلك الهم المتقد لإصلاح للفرد والمجتمع.

***

[1] حاجة الفكر العربي الإسلامي إلى حداثة أصيلة.

[2] نفسه، ص: 9.

د. عبد الله لحميمة

- أستاذ باحث بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، القنيطرة.

- حاصل على الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، تخصص: الرواية المغاربية المعاصرة، **(2011)**.

- رئيس شعبة اللغة العربية بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالقنيطرة.

- عضو في مختبر اللغة والإبداع والوسائط الجديدة، جامعة ابن طفيل، القنيطرة **(2012-2015)**.

- عضو في فريق البحث «المدرسة وبدائل التعلم» بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، القنيطرة، **(2017-2020)**.

- شارك في العديد من الندوات العلمية والأيام الدراسية، منها:

1- ندوة حول الرواية المغربية، نظمت بجامعة ابن طفيل، القنيطرة، عنوان المشاركة «الخصوصية والتجريب في الرواية المغربية»، «بحر الظلمات»، نموذجاً **(2004)**.

2- المؤتمر الدولي الأول لقضايا البيداغوجيا والديداكتيك، تنظيم: فريق البحث «المدرسة وبدائل التعلم»، بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، القنيطرة **(2019)** عنوان المشاركة «تدريسية النص السردي، مقترحات لتفعيل الرغبة في التعلم».

- **الخبرات العلمية:** المشاركة في لجنة التحكيم في بحوث اليوم الدراسي الوطني في موضوع: «المدرسة وبدائل التعلم، رؤى نقدية استشرافية» بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين، القنيطرة، **(2018)**.

المشاركة في لجنة التحكيم في بحوث المؤتمر الدولي الأول لقضايا البيداغوجيا والديداكتيك، من تنظيم فريق البحث «المدرسة وبدائل التعلم» بالمركز لمهن التربية والتكوين، القنيطرة، **(2019)**.

- المنشورات:

1- الكتب: الرواية المغاربية المعاصرة: دراسة تأويلية، دار النايا للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، **2014**.

2- ضمن كتاب جماعي: **-** نحو سرد مضاد لأدلجة التاريخ السياسي: قراءات في رواية الناجون، الناشر: الراصد الوطني للقراءة والنشر، **2016.**

- إشكالية المنهج في الدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، مؤتمر النقد الأدبي السادس عشر، منشورات جامعة اليرموك، الأردن، **2018.**

- الدافعية داخلية المنشأ وبدائل التعليم والتعلم في المدرسة العمومية المغربية. الناشر فريق البحث «المدرسة وبدائل التعلم» بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين بالقنيطرة، **2018.**

- الدافعية داخلية المنشأ وأسئلة الألفية الثالثة. الناشر: فريق البحث «المدرسة وبدائل التعلم»، **2019.** بالإضافة إلى مقالات منشورة في بعض المجلات المغربية والمشرقية.

- للأستاذ عبد الله لحميمة مجموعة من النصوص الشعرية، نشر بعضها في جريدة «المستقبل».

***

الدكتور عباس الجراري بين هواجس البدايات واستنارة القصد
دراسة نقدية في كتاب "طفولة قلم"[1] للدكتور عباس الجراري

د. عبد الله لحميمة

1-ديباجة:

نشأ النقد المغربي الحديث في سياق ثقافي تنازعته اتجاهات فكرية ورؤيوية مختلفة: - الدراسات البلاغية التقليدية، - بداية ظهور بواكير الدراسات التاريخية الحديثة. ويمكن عد كتاب **"النبوغ المغربي"** لعبد الله كنون بمثابة المفصل الذي يشهد بدايات ظهور الدراسات الحديثة، مخضلة برؤى نقدية واعية وسابرة لقضايا الثقافة والمجتمع يومئذ، والتي يمكن عدها بمثابة الأساس الصلب لمرحلة التأسيس للنقد المغربي الحديث، المحتجن لمختلف الشواغل المعرفية والاجتماعية والسياسية. والتي ما انفك الأدب يتفاعل معها إبداعا وتأويلا وإضاءة إلى يوم الناس هذا.

والباحث المتأمل للكتابات النقدية والأدبية التي طفقت في الظهور في تلك الحقبة، يلحظ بيسر بالغ أنها تساكنها ذانك الاتجاهان. إلا أن ذلك التساكن العميق، لم يكن بشكل منفصل؛ بل كان بشكل متجانس، إذ نجد في كتابات المرحلة حضور المقولات النقدية لكلا الاتجاهين، والقضايا المرتبطة بها. وقد التحفت تلك الكتابات بما يمور في الحياة الاجتماعية من أحداث ومعطيات زمانية وسياسية وتاريخية.

ولا مرية في أن ذلك التداخل بين الاتجاهين، يعكس، في عمقه، طبيعة المرحلة الانتقالية الهامة التي عرفها النقد المغربي الحديث يومئذ، والتي كانت تضارع

---

[1]- عباس الجراري؛ طفولة قلم، جمع وإعداد وتقديم: د. سي محمد أملح (منشورات النادي الجراري، ع: 102، ط. 1، دجنبر 2020).

التحولات السياقية الكبرى التي اكتنفتها؛ التحولات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي كابدها المغرب الحديث.

ولا مندوحة من أن تباشير التجربة التأليفية عند الدكتور عباس الجراري والتي خرجت من رحم هذه الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي عرفها المغرب قبيل الاستقلال وأثناءه، قد مثلت بصورة كثيفة تلك المرحلة، وطبيعة الأصوات الاجتماعية التي كانت تصطرخ في أوارها، وتجأر بتؤدة نحو إسالة ينبوع الحرية والوطنية في نفوس الشباب، وأزهم على الانخراط الواعي في سيرورات التحول هذه، وتحصبن المكتسبات الوطنية والثقافية والمعرفية لمغرب الاستقلال.

وعلى الرغم من كثافة اللحظة، وتسارع إيقاع تلك التحولات، فإننا نلحظ أن الدكتور عباس الجراري، قد استطاع الانخراط في موجة التحولات المصطخبة يومئذ، برحابة أفقه المعرفي والمنهجي، المزؤود بمرجعيات تراثية أصيلة من جهة، وبالجوانب الإجرائية للنقد الأدبي الحديث، التي أفرزتها النهضة الثقافية والأدبية التي نفشت في سماء الثقافة المغربية وقتئذ، والمتحدرة عن التفاعل الواعي الذي ميزه مع الجذور المعرفية للثقافة الغربية، ومع التخصيصات والتنويعات الرؤيوية للثقافة المشرقية.

وهكذا أجلت لنا كتابات المرحلة للدكتور عباس الجراري سعيها الدؤوب نحو تشكيل نشاط تحليلي قادر على اكتناه هويات النصوص الأدبية وشبكة العلاقات المنسلكة فيها ثقافيا واجتماعيا وسياسيا. وهو ما يبشر بميلاد قلم نقدي جاد وواع يروم تشييد شروط إنتاجه وإنتاجيته، مساهما، بذلك، في تنضيد النسق الثقافي والرمزي الذي ينحت منظوره في كنفه، وتشكيل الكفاية التفسيرية القادرة على إنتاج معرفة بالنصوص الأدبية المختلفة، وتجديد رؤيتها الفنية بالمضمون الاجتماعي والثقافي والسياسي الذي يحتجنها. وأسهمت هذه الأنشطة المختلفة في تنضيد الحدوس النقدية، وتشبيكها بعملية التذوق الواعية للأعمال الأدبية. وهذا ما تبديه كتابات الدكتور عباس الجراري ومؤلفاته المتواترة في الأدب العربي والتراث الشعبي. إذ يمثل مسار الكاتب الصورة الأكثر انسجاما وانتظاما في التعبير

عن هذا التصور للمقاربة المنهجية للموضوعات والقضايا الأدبية، في صلاتها بموضوعات الحضارة والهوية التاريخية للمغرب منذ أحقاب. وهو ما أسس لخصوصية مائزة، دمغت كتابات الدكتور عباس الجراري، وشكلت ركيزة تجربة نقدية واعية بخصوصية الأعمال الأدبية واشتراطاتها الإنتاجية المتماحكة مع ما يمور في أتون المجتمع من تحولات ومتغيرات مختلفة ومتباينة.

2- عباس الجراري وقضايا الإصلاح والتنوير:

لعل هذا التسييق الذي توقفنا عنده أعلاه، يقدم عناصر مضيئة حول الشواغل الاجتماعية والثقافية التي جابهها الدكتور عباس الجراري، والظلال التي أرخت سدولها على ما جريات الواقع الاجتماعي في المغرب الحديث. حيث يجلي الباحث في مقالته **"أبناء اليوم.. رجال الغد"** أن الإنسان بطبعه يسعى دوما نحو التميز والمجد، والتحلي بقيم العمل والإخلاص والمسؤولية، حيث اعتبر أن العمل هو المسلك الوحيد لبناء الحياة والمستقبل. فالباحث عن المجد والعلا، هو الذي يكابد من أجل الوصول إلى النجاح، ولا يرضخ لمهاوي السقوط ومهازل الحياة اليومية. ويتفاعل مع ما يعتمل في الحياة من مسالك السمو والمعرفة التي باتت مفتحة أمام الجميع.

ولذلك يلح الدكتور عباس الجراري على ضرورة امتلاك الإنسان لهدف في حياته، وأن ذلك الهدف هو الذي يؤز الفرد نحو البحث النهوم عن الدوافع التي تعمل على تشكيل الاستبصار الحياتي، والتحلي بالبعد التبصري في مساراته واختياراته ويظل ذلك الهدف موجها لكل أنشطته في الحياة، حيث الإصرار على تجاوز أكمات الحياة وصعابها الكأداء، وصولا لتحقيق ذلك الهدف. وأن التضحية والصبر هما مضمارا النجاح ومدمكاء التفوق وهنا يقول المتنبي:

إذا كانـــت النفـــوس كبـــارا تعبـــت في مرادهـــا الأجســـام

إلا أن الكاتب يصر على شبك هذا الجهد والعمل الدؤوب بالأخلاق الرفيعة، إذ يشير إلى ضرورة ربط العلم بالأخلاق، قصد بناء إنسان متوازن فرديا واجتماعيا.

وهنا يمكن الإلماع إلى الحكمة اللماحة التي ظلت ترشح منذ أحقاب من بيت أحمد شوقي:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ويعرج الدكتور عباس الجراري على مسألة غاية في الأهمية وهي العلاقة التي ينبغي ان تسود بين المعلمين وطلابهم. إذ إن صفة التلمذة ينبغي أن تقوم على أساس التوقير والتبجيل، والاسترشاد بجميل توجيهات معلميهم ونصائحهم. والابتعاد عن المثبطين وناكصي الهمم. وقد حاجج الدكتور عباس الجراري عن ذلك بنضالات الشعب المغربي والحركة الوطنية التي تحلى مناضلوها بالعزيمة والصبر والثبات، حتى ظفروا بالنصر المبين، الذي كلل تعبهم، وتوج كدهم وذودهم عن الحياض والحمى.

وفي مقالته الموسومة بـ**"نظرة حول الإصلاح"** يشير الدكتور عباس الجراري إلى ضرورة تطويق المشكلات الاجتماعية التي تعن لدى المجتمعات، وبخاصة مشكلتا الفقر والجهل. فمضمار التطور هو السمة الملازمة لطبيعة الحياة. إلا أن غاية الأمر تتحدد في ضرورة معرفة وتيرة ذلك التطور، إذ إنها "وتيرة التطور"، تتحكم في مستوى التقدم لدى المجتمعات. ويربط الدكتور عباس الجراري بين حتمية التطور والتعليم. حيث إن حلحلة تلك المشكلات الاجتماعية النافشة في المجتمع، قصد تحجيم تأثيرها الاجتماعي والاقتصادي، بغية النوء بأسباب النمو والتقدم لا يتم إلا بالمرور عبر تعليم أفراده.

ولا مشاحة في أن طريق الإصلاح مزدانة بالعراقيل والأعطاب، لذلك على المرء والمجتمع والفاعلين التسلح بالعزيمة القوية لتكسير كل تلك الأكمات والأين الناتئ لتحقيق الطموحات الفردية والجماعية. وكما قال الشابي:

ومن لم يحب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

ويومئ الباحث إلى أن مشكلة التعليم تعد وصمة كبيرة في كيان أي مجتمع، إذ هو المسلك الوحيد الكفيل بذرء أسباب التقدم في أوصال المجتمع. ولا يتسنى تحقيق ذلك إلا بجعل التعليم في متناول كل أفراد المجتمع وطبقاته، لينهل من

ينابيع الثقافة بعدالة. أما مشكلة الفقر، فيرى الباحث أنه لا يمكن قبول فكرة المساعدات التي تعطى للفقراء سواء منها المنتظمة أو المناسباتية، بل يصدح بضرورة البحث عن سبل فعالة وناجعة لتطويق هذه الظاهرة الاجتماعية وتسوير آثارها السلبية على الصحة والعيش. ومرد ذلك -حسب الدكتور عباس الجراري- إلى أن تلك المساعدات ستعودهم الكسل والخمول، وتغرس في نفوسهم عادة الاستجداء التي سارت مستفحلة باضطراد في ثنايا المجتمع اليوم.

وفي مقالة **"الجامعة"** يحاول الدكتور عباس الجراري إيضاح مسألة أساسية، وهي اعتبار الجامعة بمثابة المصفاة المعرفية التي تعمل على تحصين النسق الثقافي للأمة والمجتمع من الأفكار الهدامة والإيديولوجيات الزائفة، في مقابل تنضيدها لصرح معرفي ونقدي رصين، رهين بتمكين الشباب من المعارف التي تؤهلهم لولوج الحياة العملية باقتدار. حيث توفر الجامعة نخبة من المثقفين والأساتذة الذين يعملون على إسالة المعرفة للطلاب، وتنمية فكرهم وطموحاتهم، وتجويد معارفهم وأفكارهم، وتغرس نوازع البحث العلمي والمعرفي في نفوسهم، عوض شحنها بالأفكار الناجزة والجاهزة. وعلى الجامعة أن تكون محفلا لتنمية الحس النقدي، والحث على التكوين الذاتي عبر صقل مواهبهم ومهاراتهم البحثية. على عكس واقع الجامعة المغربية اليوم الذي عرف تراجعا مريعا في التأطير العلمي والأكاديمي للباحثين، وعدم تشجيع البحث العلمي والأكاديمي الرصين، مما دفع جملة من الكفاءات الوطنية، التي كانت تسهم في التأطير والتكوين بفاعلية، إلى الهجرة إلى الخارج، أو تقاعد خيرة الكفاءات التي كانت حصنا منيعا للجامعة، أضف إلى كل ذلك، انعزال الباحثين والأكاديميين داخل الجامعة، وعدم كتابتهم عن قضايا الثقافة والتربية التي تلامس شغاف المجتمع، وهمومه وقضاياه. وبالتالي إنتاج رطانة منهجية ونقدية متعالية عن المجتمع وثقافته. وهي معضلات تنبه إليها الدكتور عباس الجراري مبكرا منذ الستينيات من القرن الماضي، وكأنها نظرة نبوئية متقدة تشخص حالة الجامعة المغربية اليوم.

علاوة على تأكيد الباحث على مبدأ الاستقلالية الفكرية والإدارية، وأنظمة التكوين، مما يسنح للمشتغلين داخله بهامش كبير من الحرية الأكاديمية والعلمية والمعرفية المشتبكة بالمسؤولية المجتمعية. واعتماد خريجي الجامعات في الوظائف وتقديم أصحاب الكفاءات على غيرهم. وهي نظرة لماحة من الدكتور عباس الجراري إلى أن التقدم الحضاري والثقافي رهين بهذا الإجراء لا غير. وهذا مظن أساس لتخريج جيل طموح، تواق إلى الخلق والابتكار، واستكناه الخفايا والأسرار. وعلى الجامعة أيضا، أن تنفتح على المجتمع بمختلف مؤسساته، وتباشر قضاياه، وتوفر له إمكانية تنضيد المعارف والأفكار بغية تطوير مستويات الوعي الاجتماعي لديه.

ويظهر من خلال هذه الأفكار التي اندرجت في السياق الإصلاحي في فكر الدكتور عباس الجراري، أن الرجل كان يتسم بحس وطني عميق، ومسؤولية اجتماعية واعية بما يحدق بالمغرب يومئذ من مآزق وأكمات. علاوة على امتلاكه لنظرة حادبة تجاه مختلف القضايا الاجتماعية والثقافية، والتي ما يزال أثرها صالحا لواقعنا اليوم.

3- قضايا نقدية وأدبية:

إن الباحث المتأمل للمقالات النقدية والأدبية التي لم شملها الباحث سي محمد أملح في هذا الكتاب، يدرك منذ الوهلة الأولى أن الدكتور عباس الجراري، على الرغم من الانشغالات الاجتماعية والإصلاحية والوطنية التي كان منخرطا فيها، كان له جانب آخر مضيء وبشدة، وهو الجانب العلمي الأكاديمي. حيث ناقش جملة من القضايا النقدية والأدبية التي راجت في عصره، واستكنه عمقها وقدم ملاحظات هامة حولها. حيث اشتبك في مقالته الموسومة بـ **"في الأدب وتاريخه"** بجملة من المقولات النقدية من قبيل مفهوم **"الأدب"**، حيث تتبع تشابكاتها الدلالية منذ القدم إلى عصره، ولاحظ أن دائرة المفهوم كانت تتسع حينا، وتضيق أحيانا. وبعد تحييد كل العوالق الدلالية المشتبكة بالكلمة، وعمله على اختزال تلك الاستعمالات المفهومية المختلفة، والتي أسهمت في تشويه الدلالة

الأصلية لمفهوم الأدب، ترسبت نظرته عند اشتمال الكلمة لكل ضروب الثقافة وأنواع الفكر والإبداع.

وعرج بعد ذلك على ضبط العلاقة بين مفهوم تاريخ الأدب والتاريخ العام. وهو ما أماط اللثام عن أشكال اللبس التي تغشت الحقلين المفهوميين. إذ إن الأدب في عمقه تعبير فني عن الحياة الإنسانية، وما يمور فيها من أحداث ووقائع واضطرابات، والتي انعكست على التاريخ العام بحوادثها وبواعثها ومؤثراتها.

وأشار الدكتور عباس الجراري في هذه المقالة إلى المتصورات النقدية التي طبعت النقد التاريخي عند كل من سانت بيف وهيبوليت تين، حيث يشبكان العمل الأدبي بسياقاته التاريخية وجنس صاحبه وما تندغم به من طباع السلالات البشرية وأمزجتها.

وإذا كان تأثير الحوادث والتواريخ ينطفئ ويزول، فإن تأثير الأدب يستمر ويدوم، بحكم الفعالية الفنية التي تميزه عن غيره من النتاجات الإنسانية.

وعليه، فتاريخ الأدب يتناول النتاجات الأدبية ليتوصل إلى مجمل الخصائص التي يتميز بها كل صنف من الصنافات والاتجاهات الأدبية متعددة المنابع والمشارب. والنص الأدبي بوصفه وثيقة تنعكس فيها صورة الحياة الاجتماعية التي ينتج الأدب في مرابضها، وتنعكس فيها أيضا صورة صاحبه وما عرفه في حياته من تجارب وخبرات، وما كابده من آلام ومشاق ومتاعب. ولذلك يشترط في مؤرخ الأدب حيازته لذوق أدبي رفيع، يستضيئ به في تذوق الأعمال الأدبية والحكم عليها. والنتيجة من ذلك أن الأدب لا يمكن أن يؤرخ له غير الناقد الأدبي، وذلك لامتلاكه ذوقا أدبيا. أما المؤرخ العام، فلا يشترط فيه توفره على الذوق ولا مثل ذلك الإدراك، لذلك يتسم بحثه بالموضوعية نسبيا.

وتمثل هذه الأفكار الناصعة، نباهة الدكتور عباس الجراري، وهو يقدم للقراء وقتئذ هذا المتصور المنهجي الجديد، الذي استطاع تحويل المنظور النقدي من النزعة البلاغية والتقريظية، إلى ترسيخ مبادئ القراءة المنهجية للنصوص الأدبية،

وما تعتمل فيها من أحداث ومعطيات سياقية تشكل مدخلا لوضعها في سياقها التاريخي واتجاهها الأدبي.

ويذهب الدكتور عباس الجراري في مقالته **"الترجمة الذاتية"** إلى أن الفهم الذاتي للعمل الأدبي يتطلب سبر أغوار شخصية الأديب وعوالمها الخبيئة، وما ثقفه من أفكار وقضايا، وتعرف المؤثرات الاجتماعية والتاريخية التي استردتها تجربته الإبداعية، وكذا الخبرات التي نهل منها نسوغ تلك التجربة.

وهذا الغوص الواعي في مختلف نواحي الحياة التي عاشها المؤلف، وكابد صعوبتها ومشقاتها وآمالها وآلامها، تقدم إضاءة حثيثة لما لتلك الأحداث والتجارب من أثر بالغ على إبداعه وتوجيه أفكاره. وعلى الرغم من الأهمية البالغة للترجمة الذاتية فإن الدكتور عباس الجراري يشير إلى أن معظم الكتاب لا يكادون يحققون مبدأ الصدق الفني في كتاباتهم الذاتية، حيث يغفلون جوانب معينة في تاريخهم، في مقابل تبئير سرودهم على أحداث وجوانب أخرى، ثم ابتعادهم عن الطابوهات التي ما تزال تعتصر سياقاتنا الثقافية والاجتماعية والتاريخية. وهي نظرة استباقية ذات سمت نبوئي من لدن الدكتور عباس الجراري حول ما سيسمى لاحقا **بـ"التخييل الذاتي"**، الذي طوع نسوغه المعرفية والفكرية كل من سيرجي دوبروفسكي وفانسنت كولونا. حيث ذهبا إلى أن السيرة الذاتية دائما لا تقول كل شيء عن حياة مؤلفيها، ولذلك ينبغي أن نسم الكتابة من هذا النوع بالتخييل الذاتي وليس السيرة الذاتية.

وينتقل الكاتب إلى تقديم نماذج مؤسسة للترجمة الذاتية في تراثنا العربي، وما سجله المؤلفون فيها من حوادث مضيئة لحيواتهم الاجتماعية والجوانب المعتمة فيها، إلا أنهم لم يقدموا جزءا هاما من تلك الحيوات التي ظلت غافية ومغشاة بضوابط أخلاقية وسلطوية مختلفة.

ويشير الدكتور عباس الجراري في مقالة **"البرج العاجي ضروري للأديب"** إلى أن الفهم الحقيقي لغاية الأدب، ينم عن جذوره العميقة المشتبكة بأتون الحياة وأوصالها المتشعبة. فالفن والأدب كانا على الدوام سابرين للحياة، ومستكنهين

لقضاياها وأنساقها وأنساغها. إن الأدب والفن في عمقهما فلسفة الحياة الإنسانية العملية. يشخص المبدع والفنان من خلال خبراته وتجاربه الخاصة والعامة حقيقة إنسانية كبرى.

ونتوقف عند مفهوم **"البرج العاجي"**، فالدكتور عباس الجراري لا يعتبره انعزالا عن هموم المجتمع وصوته ومنظوره، كما أنه ليس تطويقا للذات بعيدا عن شواغل المجتمع وقضاياه، وإنما هو تلك اللحظات التأملية التي ينفرد فيها الكاتب مع صفائه الداخلي وأحاسيسه المرهفة، ويخلي ذهنه من إسار الحياة اليومية، لينوس بتلك الأحداث والقضايا المؤرقة، قصد إماطة اللثام عن شبكة العلاقات الخفية التي تنتظم وفقها تلك الأحداث المصطرعة في ثنايا المجتمع، إن التجربة الفنية والأدبية للمبدع، على الرغم من الموهبة العالية لأصحابها، تظل دوما في حاجة إلى صقل وتجويد، ولا يتم ذلك الصقل إلا عبر التأمل الصافي وغير الكدر للحياة، بوصفه لحظة وعي حاد وعالي سابر لكثافة الحياة، وسماكة الشعور. ولا يتم ذلك الوعي الحاد بالأشياء وثقل العالم إلا في لحظات التأمل المنئية بصاحبها عن حالات الكدر والجأر والاصطخاب. وتكون تلك اللحظات من الوعي مزدانة بالإحساس الكثيف والانفعالات المرهفة، والمصغية لأنين الأشياء المصطخب، والتي تنطوي على عمق التجربة الإنسانية المواراة بالأنساغ والأنساق والدفق الشفيف للرؤى والسيرورات الاجتماعية المتشاكلة.

ويقر الباحث في مقالته **"هل لنا أدب مغربي"** بأن النتاجات العلمية التي عرفها المغرب قبل القرن التاسع عشر، لم تخرج عن النتاجات والمنظومات المتصلة بمباحث الشريعة والدين. أما الإنتاج الأدبي الصرف فكان تقليديا يحاكي الأدب الشرقي تارة أو الأندلسي تارة أخرى.

وعلى الرغم من ما كان يلتحف بتلك النتاجات من عادات وطقوس قديمة حافظ عليها الأمازيغ نأيا منهم عن الامتزاج العرقي. إلا ان هذا التحجيم بات يزول بشكل حثيث في العصر الموحدي، حيث ظهرت بعض الحركات الأدبية والفلسفية التي طفقت في البروز يومئذ.

أما في العصر المريني، فقد عرف الأدب أزهى عصوره بسبب تضئيل ذلك التفاوت، وبداية الامتزاج بين الأمازيغ والعرب، ومشاركتهم في الحياة الأدبية والسياسية والاجتماعية. فطفق الشعراء الأمازيغ والعرب في نظم الشعر باللغة العربية تحت تشجيع ملوك بني مرين لذلك، وتنضيد مجالسهم بخيرة العلماء والفقهاء والأدباء. ومن من نبغوا في هذا العصر نذكر على سبيل التمثيل لا الحصر: مالك بن المرحل السبتي، وعبد العزيز الملزوزي، وأحمد بن أبي طالب اللخمي السبتي.

وبعد طمور الحركة الفنية والأدبية في العهد الوطاسي، نظير الاضطرابات والقلاقل التي عرفها المغرب في عهد الوطاسيين، عادت الأمور للاستتباب في عهد الدولة السعدية، فتفتحت مواهب الأدباء والفنانين مرة أخرى، وعادت قرائحهم للإبداع والصدح بالقيم الفنية والحضارية للمغرب الجديد في عهد السعديين.

وظلت تلك الحركة مستمرة في العصر الأول للدولة العلوية، بفضل تشجيع الملوك العلويين للشعراء والكتاب. إلى أن ساءت الأحوال مرة أخرى جراء الحماية الفرنسية على مغربنا الحبيب.

وعلى الرغم من هذه القتامة والجهامة، فلم يخل عصر من العصور من المواهب، التي كانت تلقف ما يصل إليها من آثار أدبية مشرقية وأندلسية. ورغم هذا الطمور الظاهر في الحياة الأدبية، فإنها كانت تنطوي على استعدادات نافرة بما سيأتي، حيث تفتقت مواهب الشعراء والأدباء والكتاب في فترة الحماية؛ للذود عن الوطن والعرش، وشحذ عزيمة جيش التحرير والحركة الوطنية. وما كان لتلك الكتابات من أثر بالغ في توجيه النفوس وتهذيبها، وحفزها على مواصلة العمل والنضال من أجل نيل الاستقلال، وتسييد العرش العلوي والالتفاف به، فكان ذلك مدعاة لانتعاش الأدب والفكر الأدبي وتبرعم فروعه وأفنانه بمختلف الأشكال.

وقد أذن الأمر بميلاد نهضة أدبية فكرية لامست حساسيتها مختلفة مناحي الحياة يومئذ. فطفقت جملة من الجرائد والمجلات في الظهور، مما سمح بشيوع

الأفكار والأشعار والكتابات وانتشارها. وأسهمت هذه النهضة في ظهور جيل من القراء الناهمين والنابهين، الذين تلقفوا تلك الكتابات بلهفة وحرارة بالغين. وظهرت الإذاعة المغربية التي زانت تلك العطاءات الفكرية والثقافية وأسهمت في انتشارها، وألهبت المواهب الجديدة على العطاء والتميز.

4- استنتاج:

وجملة القول إذن إن هذه الكتابات التي أعدها للنشر وقدّم لها الدكتور سي محمد أملح ونضدها في هذا الكتاب، لتجلي بامتياز ميلاد شخصية رصينة، مشتبكة بمختلف القضايا الاجتماعية والثقافية والأدبية والوطنية، مما جعلها تتمرس على الغوص في تلك الأحداث وربطها بسياقاتها التحليلية المختلفة، وهي نظرة ثاقبة ألهبت صاحبها على امتلاك ناصية الإنصات العلمي للنصوص الأدبية، وإنتاج معرفة أدبية ونقدية بعوالمها الفنية والتخييلية من جهة، وبسياقاتها المرجعية والإحالية من جهة أخرى. ويظهر ذلك من خلال المشروع النقدي والإصلاحي الذي اختطه الدكتور عباس الجراري لنفسه، جادلا بذلك مختلف التجارب الفنية في بوتقة متجانسة، وشيدها معرفيا وفلسفيا، قصد تمثل أعمق للنظرية النقدية، ومفاهيمها ومقولاتها الإجرائية، والتي وجدت موئلها في المزج بين الجانب التنظيري الواعي، والممارسة النقدية العلمية، التي تسوغ، علميا، دور المنهج في إنتاج معرفة أدبية ونقدية بالنص والواقع الاجتماعي والحضاري الحاضن له. واستطاع الدكتور عباس الجراري تشييد مشروع نقدي عمل على تخصيب الممارسة النقدية عنده باستبصارات نفاذة، وكشوفات معرفية وقادة، مكنته من تمييز عدة خصوصيات أدبية ونقدية نابعة من طبيعة المنجز النصي والإبداعي المغربي.

وهو المشروع الذي بوأه مكانة مرموقة في الثقافة المغربية، وجعله يحوز عمادة الأدب المغربي بامتياز.

***

د. عادل القريب

- أستاذ باحث، القنيطرة.

- أستاذ عرضي بكلية الآداب، القنيطرة، (2017-2019).

- شارك في العديد من الندوات العلمية والأيام الدراسية، منها:

1- اليوم الدراسي حول كتاب « القصص الشعبي: قضايا وإشكالات » للدكتور مصطفى يعلى، من تنظيم مختبر أرخبيل للأبحاث الأدبية، كلية الآداب، القنيطرة، **2009.**

2- المشاركة في ملتقى الباحثين الشباب، الامارات العربية المتحدة، **2014.**

3- المشاركة في مهرجان المسرح العربي، دورة عز الدين مجوبي، الجزائر، **2017.**

4- المشاركة في أيام الشارقة المسرحية (ندوة: النقد المسرحي بين ما هو أدبي وما هو فني)، **2019.**

5- المشاركة في اللقاء الثقافي « أدباء قادمون »، المعرض الدولي للكتاب، الدار البيضاء، **2018.**

من أعماله المنشورة:

أ- الكتب:

- التناص: من سؤال التنظير إلى الممارسة النقدية، اتحاد كتاب المغرب، **2015.**

- تمثلات النقد الثقافي في المسرح العربي، دائرة الاعلام والثقافة، الامارات العربية المتحدة، **2015.**

ب- ضمن كتاب جماعي:

- دراسات في الأدب العربي بالمغرب الحديث للأستاذ محمد احميدة، كشف من صفحات المجهول، ضمن كتاب « الأدب المغربي الحديث والمعاصر: التاريخ والخطاب »، أبحاث وشهادات مهداة إلى الأستاذ الدكتور محمد احميدة، كلية الآداب، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، **2014.**

- أنياب طويلة في وجه المدينة: المرجع، البطل، اللغة، ضمن (فتنة القص، دراسات في الابداع القصصي لمصطفى يعلى)، الرباط، **2020.**

جـــ- المقالات: نشر عدة مقالات في المجلات، منها:

- النقد ما بعد الكولونيالي، من وهم المركزية الغربية إلى غواية الهجنة، مجلة « مجرة » العدد، **2012/21.**

- المسرح الغربي من إغراءات الشرق إلى تقويض الذات، مجلة المسرح العربي الإماراتية، العدد، **2013/12.**

- النقد الروائي عند يمنى العيد، مجلة العربي، العدد، **669**، الكويت، **2014.**

- رواية العلاّمة لبنسالم حميش، من الايهام بالحوارية إلى استراتيجية التناص، مجلة عالم الفكر، يناير - مارس، **2015.**

- ادوارد سعيد من نقد الاستشراق إلى التأويلية الدنيوية، مجلة الرافد الإماراتية، العدد، **2015/214.**

الجوائز: - جائزة اتحاد كتاب المغرب للأدباء الشباب، **2014.**

- جائزة مهرجان المسرح العربي للباحثين الشباب (الرتبة الثانية) بالجزائر، **2017.**

- جائزة اتحاد كتاب المغرب للأدباء الشباب، **2017.**

***

البدايات: نحو رؤية فكرية ومنهجية.
قراءة في كتاب " طفولة قلم " للدكتور عباس الجراري

د. عادل القريب

لاغرو أن الوقوف عند كتابات العلاّمة الدكتور عباس الجراري، يتطلب عدة منهجية ومعرفية جيدتين، فليس من الهين مساءلة قامة فكرية وأدبية من طينة العلاّمة، غير أن ما يشفع لهذه الورقة الخوض في ذلك، هو أن المتن المنتخب يتعلق بفترة زمنية، كان ما يزال فيها عود الباحث نضرا، يشحذ أدواته من أجل الغوص في بحور المعرفة المتلاطمة أمواجها، ومن أجل ذلك، فإن هذه الورقة، وإن سجلت بعض الملاحظات النقدية على الباحث الشاب، فلأنها تريد أن تكون علمية بحق، ومن ثم قراءة العمل في حل تام عن أي استحضار للعلاّمة وقد استوى علما دانت له المعارف. ومن هذا المنطلق، سنعمد إلى قراءة هذا العمل من خلال نقاط محددة، نجملها فيما يلي:

أ_ أول الشعر.

ب_ البحث العلمي: تنوع في الموضوعات والقضايا.

ج_ في المنحى الأسلوبي.

د_ البعد المنهجي: نحو تقويم جمالي.

أ_ أول الشعر.

استخدم هنا عبارة "أول الشعر" لإبراز حالة من القول الأدبي، الذي شكل لحظة هامة في مسار التجربة الإبداعية للمبدع الراغب لولوج عوالم القول الشعري، بما يحمله من إشكالات وهموم، وما يطرحه من قضايا وموضوعات. والواضح، أنه في اللحظة التي نزيل فيها الحجب على بداية التجربة لدى الشاعر، نلفي استعدادا فطريا لنظم القصيد، ندّت عنه المحاولات المبثوثة في ثنايا الكتاب، التي لم تزد عن كونها مقطوعات معدودة، تعبر في مجملها عن تجربة شعرية يافعة

تتحرى سبيل الانطلاق، ومن ثم جاءت معظم المقطوعات الشعرية مشحونة بدفق عاطفي مرهون بما تعيشه الأمة من ضياع وتيه، لا يملك معه الشاعر إلا الصدح بما يخالج الوجد أملا في استنهاض الهمم، يقول:

بنـــي وطنـــي مـــا لكـــم راكنـــين إلى الجهـــل منـــذ قـــديم الســـنين
نســـــيتم مجـــــدا وعـــــز الأولى أشـــادوا وكـــانوا مـــن الطـــامحين
فصـــانوا كتـــاب الإلـــه الحكـــيم ولاذوا بمبدئـــــه كـــــل حـــــين[1]،

ولأن نفس الشاعر التواقة إلى استعادة الأمجاد أملا في غد أفضل للأمة، لا تستكين لحظة، فإنه يعود في قصيدة "سيروا بنا" مذكرا بالماضي المشرق، وحاثا بني وطنه على السير قدما من أجل الارتقاء والازدهار، يقول:

ســيروا بنـــا نحـــو العـــلى والمفـــاخر وإلى المعـــارف كـــل ذا لنـــا يرفـــع
سيروا اقصدوا بابا إلى المجد مدخل يـــا حبّـــذا هـــذا وعمـــري ضـــائع
ســيروا احفظـــوا مجـــدا بعلـــم نـــافع فبالاجتهـــاد عـــن الجهالـــة نقلـــع[2]،

ونحن في تتبعنا لما قدمه الشاعر من أشعار، نلمس صدقا وارفا في التجربة، وصدقا في معايشة الأحداث والإحساس بالمعاناة التي باتت تحياها الأمة، مما يحتم ضرورة الانخراط الجدي من أجل تغيير الواقع القاتم، وقد كانت تلك المقطوعات الشعرية مما جادت به قريحة الشاعر تعبيرا منه عن الوشيجة العميقة التي تربطه بالوطن.

إن المتأمل في هذه المحاولات الشعرية لا شك يلمس حس البدايات في بعضها، فالشاعر يقدم فيها صورا، ويترجم إحساسا مرهفا، ويعكس تصورا واضحا للحياة. ففي المقطوعات الشعرية حس نضالي عال، عبّر عنه الشاعر بصياغة لغوية متميزة مشحونة بدفق إيقاعي انثالت معه العبارات انثيالا، وإذ نرصد كل هذا، فإنه لا ينبغي أن يغيب عنا أننا بصدد نظم شعري يرتبط بمرحلة الطفولة، وهو ما

---

[1] - عباس الجراري: طفولة قلم، جمع وإعداد وتقديم، محمد أملح، منشورات النادي الجراري رقم 102، ط 1، الرباط، 2020، ص، 79.

[2] - نفسه، ص،82.

يعني أن صاحبه قد امتلك ناصية اللغة بحيث انقادت له في شكل القصيد، الذي يعتبر من أسمى طرائق التعبير.

إن الشعر بتعبير أحد كبار الشعراء الحداثيين "هو همس الإنسان للإنسان"[1]. فهذه الحقيقة الأبدية له، والتي يزكيها الدكتور عباس الجراري بقوله:" تعبير عن ذات صاحبه ووجدانه، وكشف ما يختلج في نفسه من عواطف إنسانية، والشعر كفن وتجربة لا يصدر إلا إراحة لهذه العواطف وإشباعا لنهم هذه النفس وإرضاء لرغبة كامنة فيها"[2]. وهو ما يتوافق معه الشاعر في مواطن متعددة من قصيده، حيث يعكس وبمرارة كبيرة وضع الأمة المتأزم، ويحاول بصدق فني اقتراح البدائل الكفيلة بإخراجها من العتمة، ولعل أبرز تلك لاقتراحات العمل الجدي والتشبث بالعلم سبيلا للخلاص، يقول:

بـــذا وبـــذاك فلـــم يـــذروا ولـــو فرصـــة تجلـــب الطـــامعين
وتـــــاريخ مغربنـــــا حافـــــل ينـــادي ومـــا زلـــتم راقـــدين
ولكـــن حمـــدنا الإلـــه الـــذي هـــدانا فكنـــا مـــن المهتـــدين
بتثقيـــف أرواحنـــا بـــالعلوم فكنـــا جميعـــا مـــن الفـــائزين
لنعمـــل بجـــد وحـــزم لكـــي نكـــون دومـــا مـــن الســـائدين
وعونـــا مـــن اللـــه خالقنـــا نرجّـــى ســـعادة في كـــل حـــين[3].

فالمتأمل في هذه المقطوعات الشعرية، يدرك معها كيف أن الشاعر/ الفتى، يرسم صورة لذات متفردة أدركت المبتغى وسعت إليه، تعرف ما تريد، وفي سبيل ذلك لا تتوانى في إسداء النصيحة إذا ما اقتضت الضرورة ذلك، ولعل ما اشتملت عليه مقطوعة "الرجال الأربعة" يجلي هذا النزوع، يقول:

---

[1] - نزار قباني: الشعر قنديل أخضر، منشورات نزار قباني، بيروت، 1963، ص، 42.

[2] - نقلا عن محمد احميدة: شعراء النادي الجراري، منشورات النادي الجراري، ط1، الرباط، 2016، ص، 116.

[3] - عباس الجراري: طفولة قلم، مرجع سابق، ص، 79.

أربعـــة بهـــم قـــوام الـــدار إن كنـــت جـــاهلا فـــذا قـــراري
فـــالأولان دون مـــا اختبـــار ففـــي الشـــدائد مـــن الكبـــار[1]،

يقدم الشاعر هنا خلاصة تجربته في تعرّف الرجال، واختبار معادنهم، ومبرزا أهم مميزاتهم التي تتراوح بين الفجور والبر والإحسان، وبصرف النظر عن هذا المعنى، فنحن نلفي لعبا على الثنائيات والتقابلات، بحيث نجد مقطوعة من ثمانية أبيات شعرية، تكررت فيها ألفاظ بعينها في أكثر من بيت (الأبرار، الفجار، البر، فاجر، ناشئ، نشأ)، إذ يستتبع تكرار اللفظ انفعال ولذة قرائية، فالتكرار ليس فقط، مجرد إعادة للفظ في السياق، بل هو ما يتركه هذا اللفظ من أثر انفعالي في نفس القارئ/ المتلقي للعمل، وهو ما يرفعه إلى كونه أحد المكونات الجمالية في بناء النص، إنه "جنس عال"[2]. على حد تعبير السجلماسي.

فالتكرار يسهم في تنظيم النسق الإيقاعي لمجموع النص، من خلال قوته الإيحائية التي تمد الخطاب الشعري بدلالات لا نهائية، وهو ما يفسر طغيان هذا العنصر في أكثر من قصيدة شعرية منها على سبيل التمثيل لا الحصر: "صرخة على لغة الضاد " و"سيروا بنا" ثم "يوم العيد" وغيرها، وبمزيد من التأمل في ما قدمه الشاعر في هذا الصدد ندرك أن الأمر عنده يتجاوز تأكيد الشيء وتقريره، إلى "غايات فنية يراد من ورائها من جملة ما يراد إلى إشاعة الجمال الفني لدى المستقبل: متلقيا وقارئا معا"[3]

ولاشك أن قارئ هذه المحاولات الشعرية، يقف عند الحماس الذي تتقد به الذات الشاعرة، والتجاوب الصادق مع طبيعة المرحلة التي يحيا فيها، غير أن كل ذلك لا يكفي لتقديم نص في مستوى فني وجمالي كبيرين. فقد هيمنت على مجمل القصائد الشعرية الواردة في النص النزعة الحماسية، والرغبة النضالية القوية

---

[1] - عباس الجراري: طفولة قلم، مرجع سابق، ص، 81.

[2] - أبو محمد القاسم السجلماسي: المنزع البديع في تحسين أساليب البديع، تحقيق علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط 1980، ص، 476.

[3] - عبد الملك مرتاض: بنية اللغة الشعرية عند سعد حميدي، مجلة علامات في النقد، المجلد 14، الجزء 59، النادي الأدبي الثقافي بجدة، مارس، 2006، ص، 129.

الناتجة عن التحام الشاعر بقضايا وهموم الأمة، ونحن بحكمنا هذا لا نبتعد عما أكده الشاعر نفسه، وقد غدا باحثا له مكانته الخاصة في أدبنا المغربي، عندما عاب على الشعراء الشباب أن الحماس الزائد لقضايا النضال لن يبعد عنهم النقد، يقول:" ويخطئ شبابنا حين يظنون أنهم حتى ولو لم تنضج شاعريتهم أو لم تكتمل لهم الأداة أو لم يتوفر صدق المعاناة، فإن تناولهم لموضوعات حية تصادف هوى في نفوس القراء، وخاصة منها ما يتصل بقضايا النضال، سيغفر لهم كل العيوب وسيحول عنها نظر النقد، وهم في هذا ينسون أن عرض هذه القضايا ــ لكي تكون له قيمة ويكون له تأثير ــ يتطلب من الشاعر معرفة بالتصوير والقدرة عليه"[1].

ولعل هذا ما جعل الدكتور عباس الجراري يرفض نشر قصائده الأولى إيمانا منه بأنها لم تصل إلى مستوى من النضج الفني يخوّل لها حق النشر والذيوع بين القراء، وهو ما ألمع إليه الناقد محمد احميدة في سياق تقديمه لديوان الشاعر، حيث أشار إلى أن الشاعر عباس الجراري، قد أخبره في جلسة خاصة " أنه كتب محاولاته الشعرية الأولى، وهو ما يزال تلميذا في ثانوية مولاي يوسف بمدينة الرباط، وكان والده العلامة عبد الله الجراري يتعهد تجربة التلميذ ويراجعها، وهي كما وصفها الشاعر "كتابة ذات طابع مدرسي"، ومن ثم فإنه لا يعدها إنتاجا شعريا يستحق النشر"[2].

ولكن هذا القول لا يمنعنا من التأكيد بأن الشاعر عباس الجراري في مرحلة البدايات قد امتلك موهبة فذة، واستعدادا فطريا للخوض في هذا الضرب من الإبداع، فقد كان دوما ميّالا للشعر، وما كان "لتسعفه العبارة الشعرية، لولا وجود الاستعداد الفطري الذي يسمح بانبثاق الرغبة في التعبير شعرا عما لا يستطيع المنثور من الكلام استيعابه"[3]. على نحو ما يشدد على ذلك الدكتور محمد احميدة،

---

[1] - عباس الجراري: مقدمة كتاب "الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية 1912- 1956، للدكتور إبراهيم السولامي، منشورات دار الثقافة، الدار البيضاء، 1974، ص، 11.

[2] - من ديوان عباس الجراري: إعداد وتقديم محمد احميدة، منشورات النادي الجراري، رقم 73، ط 1، 2017، ص، 11.

[3] - نفسه، ص، 5-6.

ومن أبرز آمارات هذا الاستعداد التي تؤكد على امتلاك الشاعر لموهبة شعرية يمكن أن تتطور في المستقبل، هو القدرة على النظم بتنويع إيقاعي لافت، فإذا كان البعد التصويري يخونه في التعبير عن مكنونه في بعض ما تقدم من مقطوعات شعرية، فإن الإلمام بالبعد الإيقاعي يكشف لنا عن أذن موسيقية قادرة على العطاء ومتأهبة له، ويكفي أن نؤكد أن عدد بحور الشعر التي نظم عليها هذه المقطوعات قد تراوحت بين بحر الطويل في " في طلب العلم " والكامل في " يوم العيد و"سيروا بنا" ثم مجزوء الرجز في " صرخة على لغة الضاد" فالمتقارب في "بني وطني"، وكل ذلك يعكس قدرة خلاّقة من لدن الشاعر على النظم الشعري، ويبرز ملمحا هاما من ملامح الشباب النابغ على نحو ما أكد ذلك العلاّمة عبد الله الجراري في ترجمة للشاعر[1].

ب_ البحث العلمي: تنوع في الموضوعات والقضايا.

لعل من أهم الخصائص المميزة لهذا العمل هي المراوحة بين مجالات معرفية مختلفة، مما يشكل مناسبة هامة لتعرّف منهجية الباحث في تناول موضوعاته وأشكال طرقه لها، بل ويرغم القارئ على التأمل العميق فيها بغية استنباط آليات الاشتغال لديه، والمرجعيات النقدية المتحكمة فيه، وبتعبير أصح استكناه ما يفصح عليه، ويحجم عنه، ففي تضاعيف الكتابة، غالبا ما يتسلل النسق ليختفي وراء التعبير الجاهز، والعبارة البليغة والقول المحكم.

بالرجوع إلى المؤلف ندرك قيمة المجهود المبذول، تأليفا وجمعا، ومعهما نقف عند التنوع الهائل في طبيعة الموضوعات المطروحة في النص، وإذا كانت الصفة الموضوعية تطغى على جملة من المقالات التي تتخذ بعدا علميا ولاسيما في القسم الثاني من الكتاب الموسوم من قبل الجامع ب " بضحى الكتابة"، فإن القسم الأول تبدو النزعة الذاتية مهيمنة عليه بقوة، سواء أتعلق الأمر بالأحاديث الإذاعية المقدمة أم بفترة المرض التي عاشها، والأنشطة التي شارك بها في المرحلة الثانوية،

[1] - العلامة عبد الله بن العباس الجراري: التأليف ونهضته بالمغرب في القرن العشرين من 1900 إلى 1972، مكتبة المعارف، ط1، الرباط، 1985، ص، 324.

ومن شأن هذا أن يبرز لنا التباين الحاصل في تناول الموضوعات معرفيا وأسلوبيا وهو أمر سنلقي عليه الضوء في ما يأتي من صفحات هذه الورقة.

إن المتأمل في كتاب "طفولة قلم"، لا يجد صعوبة في تصنيف المقالات المبثوثة فيه، فقد تنوعت بين المقالة العلمية الرصينة والخطبة العصماء، والخاطرة، والرحلة، والإبداع، غير ذلك مما جادت به أنامل الباحث الشاب، فجاء الكتاب ترجمة لحصيلة ثقافية مهمة، تعكس نهم الباحث وهو يكرع من حياض المعرفة ويرتوي من نمير ينابيعها.

وإذا ما أردنا المزيد من الدقة في التصنيف، فنحن نقف عند ثلاث مقالات في اللغة وتسع مقالات في تاريخ الأدب والنقد، ثم ثلاث مقالات في الجانب الديني، ومقالة في الرحلة، وتسع مقالات في البعد الوطني، ومقالتين في البعد القومي، بينما توزعت باقي المقالات على ما هو فكري وثقافي واجتماعي، ناهيك عن المحاولات الشعرية التي وقفنا عندها. ومن شأن هذا التعدد الموضوعاتي أن يطرح إشكالات منهجية كثيرة، لولا العناية الفائقة بترتيب مواد الكتاب، التي خففت نوعا ما من حدة السؤال المنهجي، وذلك بالفصل بين مرحلتين هامتين من حياة الباحث في الكتابة والبحث العلميين، إذ ليس من السهل إدراك الرابط المنهجي في كتابات تمتد عبر مساحة زمنية ليست بالقصيرة.

وبصرف النظر عن المناصات الموجودة في الكتاب، بداية بالأقوال المنتخبة عن ثلة من كبار النقاد العرب الذين أشادوا بالقدرات البحثية المتميزة للباحث الشاب، والتقديم الذي خصّ به جامع هذه البحوث المؤلف، ثم الورقة التعريفية التي أراد لها أن تكون مفصلية في الوقوف عند جملة من المسائل المتصلة بجمع الكتاب وترتيبه ثم إخراجه، فإن ما يشغلنا بالأساس ما هو مجموع من نتاج الباحث عباس الجراري، في مرحلتي الطفولة والشباب، لتتقدم بعدئذ جملة من الأسئلة منها: ما هي أهم الموضوعات والقضايا التي عالجها؟ وبم اتسمت؟ وعلام قامت علميا وفنيا؟ وأي المناهج ارتضى لها؟ وما الأسلوب المعتمد فيها؟ وغيرها من الأسئلة الجوهرية.

إن اللافت للانتباه في هذا الكتاب، كما أسلفنا، هو التعدد الموضوعاتي، الذي توزع بين الحس الوطني الذي اكتنف الذات الباحثة في المرحلة الثانوية تحديدا فندت عن أناملها مجموعة من المقالات، وما "الإقبال على عهد جديد" و" أبناء اليوم ...رجال الغد" والكلمات "المحررة عند إعلان الاستقلال" وغيرها إلا قناة لإبراز هذا الحس الوطني، فهو عازم على استنهاض همم الشباب وتحفيزهم للعمل والصبر، من أجل تحقيق الأهداف، ومن أجل ذلك لا يني يذكّر بما مرّ به المغرب من محن وإحن يقول:" من منا يجهل ما قاساه مغربنا العزيز من محن وإحن وراء الاستعمار الغاشم، لحد كاد معه كابوس اليأس يجثم على قلوب الضعفاء، ولكن أبت همّة الأباة من أبنائه إلا أن تستأسد أمام زفراته النارية واضطهاداته الوحشية، التي لم تلبث أوارها أن مس رمز البلاد وقلبها النابض...مأساة كانت غايتها أن استيقظ الشعب من سباته العميق غاضبا غضبته العربية التي أحالت المأساة فيما بعد إلى اطمئنان وانتصار"[1].

وفي السياق ذاته، نجده يستعرض التضحيات الكبرى التي قدمها الملك محمد الخامس من أجل استقلال البلاد، والبرهنة على وفائه لشعبه ووطنه، عازفا عن كل الإغراءات، ومضحيا بكل الامتيازات، فقد كان صادق العهد محتملا في سبيله كل أشكال المعاناة والتضييق بما فيها النفي عن ربوع الوطن. يقول المؤلف مبرزا هذا الوجه الوطني للسلطان الذي يزيد من إذكاء الشعور بالانتماء للوطن والذود عنه فقد:" برهن العاهل الكريم عن إخلاصه لشعبه، ووفائه لمهمته القعساء، وتضحيته من أجلها، بأن زهد في الحياة وجاهها، فضّل الابتعاد إلى الأطراف النائية، فضل النفي والسجن ومرائرهما على التخلي عن مطالب شعبه وحقوقه، في وقت وقف الشعب المغربي الأبي وقفة شاطره فيها زعيمه شدائده وآلامه"[2].

جانب من هذه الروح الوطنية نلفيها في ما تبقى من كلمات ألقاها الباحث في مناسبات مختلفة، فندّت عن حب وتفان في التعلق بالوطن وملكه، ولهذا ظلت

---

[1] - عباس الجراري: طفولة قلم، مرجع سابق، صص، 94-95.

[2] - نفسه، ص، 97.

في معظمها تشيد بالجهود الكبيرة التي بذلها سلطان المغرب في دفاعه عن أرضه وحقوق شعبه، دون إغفال للأدوار التي لعبها أبناء الشعب بمختلف أجناسهم، ومجالاتهم من تضحيات في سبيل تحقيق النهضة والوصول بالبلاد إلى بر الآمان، وكذا الأدوار التي اضطلعت بها الأحزاب السياسية في تلك المرحلة، وخاصة حزب الاستقلال الذي كان لرجالاته أدوار مهمة زمن الاستعمار، يقول الباحث:"هل يا ترى ينسى المغرب أو يتناسى ما قدمه له حزب الاستقلال العتيد من خدمات وما أسداه له من أياد بيضاء أصبح اليوم يتمتع بكرائمها، ويلمس من ورائها ما أنتجته أعماله الحاسمة من سعادة وهيأته له من هناء"[1]. ولابد أن نشير هنا، إلى أن هذه الكلمات أقرب ما تكون إلى أدب الخطابة، وتتوسل أدواته، وتتوشح بأساليبه الفنية، وأهمها الحرص الكبير على التعبير المسجوع واللفظ الجزل، والتكثيف سبيلا للمعنى.

لقد ظل البعد الوطني هاجسا، للباحث طيلة فصول الدراسة، إذ لم ينحصر في التوعية، واستنهاض الهمم، وإنما تجاوز ذلك إلى الغيرة على أدب هذا القطر، معرفا بشخصياته، ومدافعا عن أولئك الذين طالهم النسيان، أو متسائلا عن قيمة هذا الأدب وحدوده وأهم رجالاته، تحرّكه في كل ذلك نزعة وطنية خالصة، ومتجذرة في كيانه، ستحذو به في مراحل لاحقة إلى استثمار كل جهوده العلمية من أجل خدمة الأدب المغربي، بدءا بكتابه الهام " القصيدة، الزجل في المغرب" الذي كان في جوهره جمعا للتراث الشعبي المغربي ومدارسته غيرة منه على هذا التراث، وخوفا عليه من الانقراض "في غمرة التيار الحضاري الجديد الذي بهر الناس بريقه، فجعلهم يدوسون هذا التراث جاهلين أو متجاهلين أنهم يدوسون فيه مقومات ثقافتهم الوطنية وحضارتهم الأصيلة"[2]، إلى يومنا هذا مدّ الله في عمره ومتعه بالصحة والعافية.

---

[1] - عباس الجراري: طفولة قلم، مرجع سابق، ص، 112.

[2] - عبد الله الجراري: التأليف ونهضته بالمغرب، مرجع سابق، ص، 325.

وانطلاقا من هذه الغيرة، سنلفي العديد من المقالات الهامة التي تتصل اتصالا مباشرا بالأدب المغربي، ومنها "رجالاتنا المنسيون" و"هل لنا أدب مغربي؟" ثم "ابن حبوس شاعر الخلافة المهدية"، وغيرها، وهي كلها مقالات شاغلها الرئيس الوقوف عند رواد هذا الأدب والتعريف بهم، وإبراز ما يتفّرد به أدبهم من خصائص ومميزات، فقد شُغِل الباحث بالأدب المغربي، وحزّ في نفسه أن يعزف عنه الباحثون المغاربة يقول:" وإنه لمن المؤسف كذلك أن نذكر رجالات غيرنا ونغفل عن أفذاذ في تاريخ آدابنا هم أحق بالتخليد والذكرى، ولست أنكر ذلك إلا لأني أكره أن نهتم بالغير ونهمل أنفسنا"[1]. أسف سيفصح عنه مرة أخرى عندما يتناول شخصية ابن حبوس الشاعر، الذي أهملت أشعاره، ولم يصلنا إلا القليل عن حياته، التي كان من شأنها أن تضيء العديد من الجوانب المرتبطة بالقول الشعري لديه، ومن ثم سعى الباحث الشاب إلى التنقيب في أمهات كتب الأدب المغربي من أجل تقديم ترجمة وافية عنه، وإن لم يخف تحسره عن الجهل الكبير الذي نحياه عندما يتعلق الأمر بالبحث في شعرنا المغربي، يقول:" وإنه لمن المؤسف حقا أن نجهل الكثير عن هذا الشاعر الكبير الذي ذهب ضحية الإهمال، فضاعت كل تفاصيل حياته من شعر، وضاعت معها أكثر الكتب، التي تناولت أخباره وأدبه بالبسط والتحليل"[2]. ويبدو أن الباحث في هذه المقالات، يبثّر بحثه على كل ما يتصل بالأدب المغربي، وذلك بالكشف عن العوامل المساعدة على ظهوره، ونهضته، وأهم الأدوار التي اطلعت بها منابر ثقافية محددة، ورجالات هذا الأدب.

ولما كان أدبنا المغربي لا يتجزأ عن الأدب العربي ككل، فإن المؤلف سيعمد إلى طرح جملة من القضايا الأدبية والنقدية الموصولة بأدبنا العربي في شموليته، قديمه وحديثه، ومن ذلك الوقوف عند بعض الأدباء، معرفا ومبرزا ما انمازت بهم إنتاجاتهم من خصائص، ومن هذه المقالات نجد "رهين المحبسين أبو العلاء المعري" و"ذكرى أمير الشعراء" ف"تجديد الشابي بين روافد الشرق والغرب" وغيرها، حيث

---

[1] - عباس الجراري: طفولة قلم، مرجع سابق، ص، 158.

[2] - نفسه، ص، 248.

حاول الباحث الإحاطة ببعض آثارهم، وأخبارهم، وما تفرّدت به أشعارهم، فالمعري من منظوره " لا يلبث على شيء من ذلك في عقيدته، وإنما كانت تتوارد عليه الأفكار كما تتوارد على غيره فيعجّل بأسرها، وتقييدها في الشعر خصوصا وهو الذكي الأعمى الذي لا يشغله شاغل، والمتمكن أشد التمكن من لغته في الوقت لذي لا يستطيع غيره حتى أن يتأمل مليا في تلك الأفكار"[1]. ولا ريب عنده في أن الشابي "كان يكثر من قراءة الأدب الحديث، وخاصة ما كان ينتجه شعراء المهجر في الغرب، وشعراء مدرسة التجديد في الشرق، سواء منه ما كان موضوعا أو منقولا"[2].

وإذا كانت العديد من المقالات تروم التعريف ببعض الأعلام، أو إحياء ذكراهم، فإن الكتاب لم يخل من بحوث نقدية علمية رصينة، وإن هيمن فيها العرض النظري، على التحليل العلمي لجملة من المفاهيم النقدية الواردة فيها، فقد سعى الباحث إلى الوقوف عند أهم التحولات التي عرفها النقد الأدبي عبر تاريخه، ومعه أيضا بعض الأغراض الشعرية، وغيرها، ومن أمثلة هذا النزوع ما نجده في المقالات التالية: "أصالة القوافي والأوزان الشعرية عند العرب"، والتي حاول فيها الباحث إبراز أستاذية العرب للغرب فيما يتصل بالأوزان الشعرية، مع ذكر أهم العوامل المساعدة على ابتكارها في الثقافة العربية، ثم "الغزل العربي بين الجاهلية والإسلام"، التي تتبع فيها أنماط الغزل في الشعر العربي من الجاهلية إلى العصر الأموي، وكيف تحول من غزل مصطنع إلى غزل مقصود لذاته، يقول:" وخلاصة القول إن الغزل كان في الجاهلية ماديا مصطنعا، وكان وسيلة لغيره من الأغراض، يستهل الشعراء به قصائدهم تمهيدا للموضوع الأساسي فيها، فأصبح في الإسلام غاية مقصودا لذاته، يفرد الشعراء له قصائد كاملة، ويقصرون فنهم عليه، وأصبح منبعثا عن حب"[3]. ثم مقالة "النقد الأدبي عند العرب: نشأته – تطوره – تحوله إلى بلاغة"، حيث استحضر فيها الباحث أهم التواشجات القائمة بين النقد والبلاغة،

---

[1] - عباس الجراري: طفولة قلم، مرجع سابق، ص، 40.

[2] - نفسه، ص، 267.

[3] - نفسه، ص، 174.

إذ ظلا مترابطين في التحليلات النصية، ولم ينفصلا إلا في حدود القرن الخامس الهجري، متتبعا في السياق ذاته أهم الجهود النقدية التي عرفها النقد العربي القديم، في سبيل إرساء أسس ودعائم نقد أدبي عربي خالص، وهو ما يفسر غلبة العرض على السجال النقدي في الدراسة، حيث سعت المقالة إلى إبراز مجمل الجهود النقدية التي قدمت عبر تاريخ النقد الأدبي.

والواقع أن موضوعات الكتاب متعددة، بحيث يصعب حصرها جميعها، غير أننا لابد لنا من أن نشير إلى مسألة هامة، ففضلا عن المقالات المتعلقة بالبعد اللغوي، والثقافي والفكري والديني والتاريخي، نجد بعض الكتابات التي اتخذت بعدا إنشائيا تميل إلى جنس الرحلة، بحيث ستشكل لبنة أساس لما سيقدمه الدكتور عباس الجراري في رحلات لاحقة، بعضها تم إخراجه، بينما مازال بعضها الآخر مخطوطا ينتظر أن تمتد أيدي الباحثين إليه.

وبالعودة إلى نص "الرحلة" الوارد في الكتاب "اذكروا كيف قضيتم عطلتكم الصيفية"، فإننا نجد الكاتب "الرحالة" يضمن النص أخباره ومشاهداته وتفاصيل اللقاءات العلمية التي حضرها، وكل ما عايشه خلال سفره، ولعل مسوغ إدارج هذا النص ضمن الجنس الرّحلي، أنه امتاز ببعض ما تتميز به الرحلة من أسس تقوم على " فرضية التنقل وحركية الارتحال وتغيير المواضع إن على السمت الواقعي أو المنحى التخييلي، وبتحول هذا الفعل الحدثي إلى معطى لفظي يكتسب شرعية النسب إلى جنس الرحلة ككتابة تؤسس ركائزها على الحديث عن السفر"[1]. وهو ما نجده حاضرا بقوة في هذا النص، فالرحلة تبدأ من الرباط، ففاس ثم وجدة لتمتد إلى مجموعة من المدن الجزائرية كالمنصورة وتلمسان ووهران وغيرها، والكاتب حريص على وصف أدق التفاصيل ومنها قوله:" وإن أعظم ما يبدو لنا عن خواص البلاد الجزائرية الشقيقة هو كثرة المقاهي وكثرة التماثيل حتى إننا نجد في الشارع الواحد خمسة تماثيل أو أزيد، وتشبت الإخوان الجزائريين بالدين الحنيف،

[1] - عباس الجراري: نسيم البوسفور، إعداد ودراسة بديعة الفضايلي، منشورات النادي الجراري، ط1، الرباط، 2020، صص، 4-5.

خصوصا الشباب منهم، حتى إننا ذات صباح، دخلنا إحدى المقاهي في المدينة الأوربية، فلما سألنا عن مكان الوضوء، ذهب بنا أحد القيمين داخل المقهى وفتحها، فإذا بنا نجد مسجدا صغيرا ومكانا واسعا للوضوء والأحذية الخشبية، شيء استغربنا منه غاية"[1].

إن تعدد القضايا والموضوعات في هذا الكتاب، ليس إلا صورة لما هو عليه واقع الدكتور عباس الجراري اليوم، الذي توزعت اهتماماته العلمية بعد مرحلة البدايات إلى حقول معرفية شتى، واستطاع باقتدار كبير أن يعالج مسائل عديدة منها، بعمق فكري واختيار منهجي واضحين. ولعل "طفولة قلم " تعكس جانبا مهما من طبيعة الاشتغال لديه، سواء تعلق الأمر بالأسلوب الذي لمسنا فيه تطورا ملحوظا عبر توالي الصفحات، أو بالاختيار المنهجي، إذ لا نجد ذلك الوعي بأهمية التوثيق العلمي إلا في القسم الثاني من الكتاب، وهو ما يؤكد الحرص الجيد للباحث بضرورة إسناد الجهود لأصحابها في إطار ما تقتضيه الأمانة العلمية.

ج- في المنحى الأسلوبي.

عطفا على البدايات بما هي "لا زمنية عمومية مقيمة، أعني بها أن ما يناسب الحياة المبكرة لا يناسب مراحلها اللاحقة، والعكس بالعكس"[2]، نطرح مرة أخرى إشكالية البداية عند الباحث من الزاوية الأسلوبية، فلاشك أن العلامة عباس الجراري في مرحلة لاحقة من بحثه العلمي قد تميز بأسلوب فريد "لا يعرف الحشو ولا الإطناب"[3]، إلا أنها لم تكن إلا تتويجا لمرحلة مبكرة سعى فيها جاهدا لفرض أسلوبه، عبر مراحل تدرجت من طفولة الكتابة إلى مرحلة الباحث الشاب، فقد أبانت هذه المقالات عن تمكن جيد من آلياته اللغوية والتعبيرية، وكل من ورّق صفحات هذا الكتاب سيقف عند هذه النقطة جلية لا يعلوها غبار، فالألفاظ

---

[1] - عباس الجراري: طفولة قلم، مرجع سابق، صص، 70-71.

[2] - إدوارد سعيد: عن الأسلوب المتأخر، موسيقى وأدب عكس التيار، ترجمة فوّاز طرابلسي، دار الاداب، ط1، بيروت، 2015، ص، 37.

[3] - أحمد الدويري: المنهج في درس الأدب عند الدكتور عباس الجراري، ملاحظات أولى، ضمن كتاب زهرة الآس في فضائل العباس، الجزء 1، دار المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، ط1، 1997، ص241.

متخيّرة بحيث تناسب سياقات القول، والتعبيرات سليمة تقتفي المعاني دون غموض أو إبهام، فكانت ترجمة لطبيعة الوعي المنهجي الذي يحمله الكاتب.

ولعل من أهم الصيغ الأسلوبية التي اهتدى إليها الباحث، نجد الاعتماد على التكرار اللفظي بغاية تأكيد الفكرة، وتكرار الصيغ الصرفية، والجناس، والسجع، وغير ذلك مما يرفع من جمالية الأسلوب لديه وإيقاعيته، ومن أمثلة السجع قوله:" ذلكم هو رسول الإسلام، وحامل لواء الهداية والسلام، ونافح روح اليقظة والوئام، ومبدد الغواية والظلام، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام"[1]، وقوله أيضا:" ومرت أيام وأيام، وهو ناهج في دعوته سبيل الكتمان، يلقن أصدقاءه الشباب من العلوم أنفعها، ومن الأخلاق أكرمها، ومن الآداب أفضلها، ومن التربية أصدقها"[2]. وقوله :"إن المغرب النبيل، لتأبى نفسيته الكريمة ومجده الأثيل أن يسلم للذلة والخضوع أو يساق للاستعباد والخنوع"[3]. ومن أمثلة تكرار اللفظ الواحد ما نجده في قوله:" إذا جاء نصر الله، بطل نصر معقل، حقيقة إنه نصر الله"[4]، وغير ذلك، مما يعكس فرادة الأسلوب الذي لم يقتصر فيه على هذه الخصائص، بل توسع فيه عن طريق التضمين والاقتباس والتناص مع أقوال العديد من المفكرين والأدباء، ومن ثم استشهاده بأقوالهم، وأشعارهم. فقد ورد في غير موضع اقتباسات من الحديث النبوي الشريف، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها"[5]، وقوله عليه أزكى الصلوات" اللهم اهدي قومي فإنهم لا يعلمون"[6]، وقوله عليه أفضل الصلوات"انصر أخاك ظالما أو مظلوما"[7]، وغيرها، كما نجد جملة من الأمثلة التي

---

[1] - عباس الجراري: طفولة قلم، مرجع سابق، ص، 118.

[2] - نفسه، ص، 119.

[3] - نفسه، ص، 109.

[4] - نفسه، ص، 119.

[5] - نفسه، ص، 102.

[6] - نفسه، ص، 94.

[7] - نفسه، ص، 74.

وظفها الباحث في معظم مقالاته، الشيء الذي انعكس على طبيعة هذه الأبحاث. ففضلا عن التمكن الجيد من الآليات اللغوية والتعبيرية، فنحن نجد إدراكا عميقا للفروقات المعرفية الموجودة بين المجالات والحقول التي تطرق إليها، لا من حيث المفاهيم التي نحت نحو العلمية، وبالتالي وظفت في سياقاتها المناسبة لها، أو في ارتباط بنمط اللغة المعتمدة والتي نأت عن توظيف أشكال البديع التي عرفتها بعض المقالات، فقد جاءت لغة أبحاث المرحلة الجامعية، ولاسيما المطولة منها، خالية من الصنعة معتمدة التقريرية والمباشرة في طرح الأفكار.

وكل ذلك يكشف عن تنوع أسلوبي لم يحل دون وصول المعنى ووضوحه. وإن ازداد رفعة وقوة مع تقدم الأبحاث وتواليها، فلا شك أن قارئ الكتاب سيدرك أن مقالات المرحلة الثانوية تختلف عن المرحلة الجامعية، ففي هذه الأخيرة، تعززت قوة الأسلوب لديه، وأضحى أكثر نضجا ونصاعة، ومرد ذلك إلى اتساع المعرفة العلمية للباحث، التي مدته بالعديد من الأمثلة والشواهد من محفوظه فعززت أسلوبه وسمت به.

د_ البعد المنهجي: نحو تقويم جمالي.

شكل سؤال المنهج هاجسا للدكتور عباس الجراري، على امتداد فترة البحث لديه، وقد ألّح عليه بشكل أكبر بعد الكتاب الهام "تطور الشعر العربي الحديث والمعاصر في المغرب من 1830 إلى 1990" حيث طرحت إشكالية المنهج بقوة، وهو ما انبرى للإجابة عنه في كتاب سابق، عالج فيه هذا المستوى المعرفي من الممارسة النقدية لديه، هو كتاب "خطاب المنهج"، الذي بيّن فيه رؤيته الخاصة، حيث شدّد أنه لا وجود للمنهج الذي يمكن أن يقال عنه أنه الصالح والدائم والأصلح والأدوم بالإطلاق[1]. والحاصل أن هذه الرؤية لم تكن في واقع الأمر إلا امتدادا لفترة سابقة من الحياة العلمية لعباس الجراري، فنحن نقف عند هذا التصور في أولى كتاباته، وهذا ما تعكسه المقالات الواردة في "طفولة قلم"، فاللافت فيها، هو الحرص على التعدد المنهجي، وذلك بالإشارة إلى بعض أعلام المناهج، إن تصريحا

[1] - عباس الجراري: خطاب المنهج، منشورات السفير، مطبعة مونتريال، ط1، مكناس، 1990، ص، 85.

كما هو الحال مع رواد المنهج التاريخي في الغرب (بوف، تين، برونتيير) الذين عملوا على تتبع أخبار الأدباء، بحيث وصل الأمر ببعضهم إلى التجسس عليهم كما نجد عند سانت بوف، يقول الباحث " ويرى الكثير من النقاد، وعلى رأسهم الناقد الفرنسي "سانت بوف"، أن حياة الشاعر الخاصة هي وحدها التي تجلي شخصية الشاعر، وقد حاول أن يتتبع حياة معاصريه الخاصة ليكشف عما يخفون ويستترون، ولكنه تعرض لكثير من المشاكل والخصومات"[1]. أو الحديث عن كل من " هيبوليت تين" و"فرديناند برونتيير" حيث حاول الأول إخضاع دراسة الأدب وفنونه لعوامل الجنس والزمن والمكان، بينما ارتأى الثاني أن يطبق عليه قانون النشوء والارتقاء الداروينيي[2].

ولما كان الباحث يدرك جيدا أن تاريخ الأدب ليس إلا جزءا من التاريخ العام[3]. فإنه عمل على التأريخ لأدبنا المغربي محاولا استحضار بداياته، ومتتبعا لأهم مراحله التاريخية، ففي مقالة "هل لنا أدب مغربي؟" نقف عند الطابع التأريخي المحض. يقول متحدثا عن هذا الأدب " ثم أخذ(الأدب المغربي) بعد الفتح يشارك في الحركات العلمية التي تتصل بالشريعة والدين. أما الميادين الفنية والأدبية، فقد كان فيها تابعا ليس غير، يقلد الشرق تارة والأندلس أخرى، تبحث في أدبه عن خصائص مغربية تميزه من آداب الأمم الأخرى، فلا تجد لها أثرا، إذ كثير من الأدباء الذين كانوا يمدحون ملوك المغرب وحكامه، كانوا وافدين من الأندلس"[4].

علاوة على المنهج التاريخي، الذي نجد تصريحا مباشرا برواده، فإننا نجد نوعا من الهجوم على رواد المنهج الاجتماعي، الذين غالوا في ربط العملية الأدبية بالمجتمع، بحيث يصير الأديب مرآة في ظل نظرية الانعكاس، القائلة بضرورة ارتباط الأدب بالواقع، وهو ما يرفضه الباحث الشاب الذي رأى أن " الأدب

---

[1] - عباس الجراري: طفولة قلم، مرجع سابق، ص، 183.

[2] - نفسه، ص، 140.

[3] - نفسه، ص، 140.

[4] - نفسه، ص، 192.

الواقعي ليس ذاك الذي يتخذ حياة الشعب مادة له، وإنما هو أدب تسعى فلسفته إلى الكشف عن أسرار الحياة على نحو خاص، هو تعمق حقيقة هذا الواقع من خلال نظرة تشاؤمية ترى أن الشر هو الأصل في الحياة"[1]. ونحن نلمس هنا نوعا من الدفاع عن نظرية الفن للفن، التي لا يخفي الباحث إعجابه بها، والتي ليست في نظره إلا تصويرا للواقع من منظور إيجابي.

والواقع، أن المتأمل في الكتاب سيقف عند تعددية منهجية ارتبطت بطبيعة الموضوعات والقضايا المطروحة فيه، فكان من البديهي أن تتنوع المقاربة المنهجية بين القديم والحديث، بل وبين الحقول المعرفية ذاتها، التي تناولها الباحث، ولكن ما يشد القارئ هو الوعي المنهجي للباحث، وحرصه على أن يقدم بحوثه في وضوح منهجي حيث تتجاور موضوعات وأجناس مختلفة، وتسندها مرونة معرفية ومنهجية قادرة على أن تسمح بهذا التقاطع الحاصل بين الأدبي، واللغوي، والتاريخي، والديني، والفكري، والوطني، والقومي، بل والمراوحة بين القديم والحديث في سلاسة ويسر تامين، إذ لا تشويش في الانتقال بين موضوعات الكتاب، وهي من المحاسن التي تحسب لجامع الكتاب، الذي آثر الدقة والترتيب الجيد لمواده.

وإذا كان المنهج بما هو آليه من آليات التحليل لا يغيب في هذا العمل، فإن المنهجية بما هو رؤية وطريقة للتنظيم والعرض أيضا لها حضور مكثف، فنحن نلمس حرصا على ضبط المادة المقدمة، وتدرجا في كيفية عرضها، فضلا عن التداخل الحاصل بين الموضوعي والذاتي فيها، مما يساعد على تحقيق الأهداف المرجوة، وكل ذلك يفصح عن بدايات تشكل رؤية منهجية جادة تسعى للإفصاح عن نفسها، وتبرز ملمحا من ملامح الرؤية العلمية الشاملة والرصينة، فالقارئ للكتاب، تجذبه الدقة في صوغ الأحكام وإصدارها، إلى جانب بسط الآراء المختلفة في يسر، دونما رطانة لغوية أو صعوبات معرفية من شأنها أن تعسر عملية الفهم، إنه يعمد إلى

---

[1] - نفسه، ص، 187.

تبسيط الفكرة، دون أن يفقدها زخمها الفكري وعمقها العلمي، وذلك للتمكن الجيد للباحث من أدواته اللغوية والتعبيرية التي لا يتحقق شيء في غيابهما.

لقد أدرك الباحث، أن المنهجية السليمة، هي السبيل لرؤية معرفية واضحة والتنزيل الجيد للوعي الذي يؤطرها، ولذلك ظل متأهبا في بحوثه الجامعية تحديدا، للاستقصاء والفحص، والكشف والتحليل والبرهنة، وغير ذلك مما يثبت رؤيته ويوضحها، في حلّ تام عن أي استطراد أو حشو، إنه حريص على تقديم ما هو ضروري لموضوعه فحسب، ومن ذلك إصداره لبعض الأحكام النقدية، أو القيام بموازنات بين الجهود النقدية التي وقف عندها، كقوله مثلا موازنا بين الصولي و الآمدي "ولئن كان الصولي يتعصب لأبي تمام، فالآمدي يفضل البحتري، ولكن في تستر وخفاء"[1]، أو في موازنته بين الآمدي والقاضي الجرجاني، حيث يقول:"ولئن اتفق مع الآمدي في الحكم على جوهر الشعر ذاته، وتفضيل الشعر المطبوع على الصناعة، فهو أكثر تساهلا منه بل أميل منه إلى السهولة، وتبدو في نقده نزعة نفسية إنسانية، قد تغلب على النزعة الفنية الخالصة وهذا بخلاف الآمدي الذي يغلّب النزعة الأخيرة"[2].

هذا النزوع في الكتابة النقدية لدى الباحث يرتبط بمعظم المقالات النقدية التي قدمها في الفترة الجامعية، بل وبعض من تلك التي سبقتها، إيمانا من لدنه بأن الرؤية المنهجية، ليست إلا طرحا لأفكار بهدف المعالجة والمساءلة والتجديد، وإخراج المادة، ونفض غبار الزمن عنها، ولعل هذا ما نتحسسه في بعض المقالات التي رام فيها التعرض للأدب المغربي، معرفا بأعلامه أو متسائلا حول وجوده، مما يعكس رؤية سيتأسس عليها مشروع نقدي وفكري برمته، وهو المشروع الهادف إلى الذود عن الأدب المغربي والتعريف به، وإخراج المخطوط منه، ومدارسة المطبوع، وغير ذلك مما جعل الدكتور عباس لجراري عميدا للأدب المغربي بلا منازع.

---

[1] - عباس الجراري: طفولة قلم، مرجع سابق، ص، 216.

[2] - نفسه، ص، 218.

إن الاهتمام بالقضايا ذات البعد المحلي/ الإقليمي لم تغب عن الكتاب، بحيث يمكننا القول أن بعض الدراسات التي نحت هذا المنحى في الكتاب، تشكل اللبنة الأولى لمشروع الكاتب المستقبلي، حيث سيعالج العديد من الموضوعات في مختلف المعارف الإنسانية، إيمانا منه بأن الإقليمية التي دعا إليها في مرحلة لاحقة هي المدخل الأساس للعالمية والإنسانية[1]. أما المنهج فتبقى أهدافه متعددة ومنها " إثبات الوقائع وربطها بالأسباب ووصف الظواهر وتعليلها والبحث عن بواعثها الخفية، والظاهرة القريبة والبعيدة واستخلاص العلاقات التفاعلية بينها وبين غيرها"[2].

إن الاهتمام بالجوانب المنهجية في هذا الكتاب، لا يجب أن يحجب عن أعيننا مسألة هامة، وهي المتعلقة بالتوثيق العلمي لما قدمه الباحث في دراساته، فقد توسل بالعديد من الأمثلة والشواهد غابت الإحالة عن بعضها.

وربما لا نجانب الصواب إذا أكدنا على القيمة العلمية لبعض ما ورد في هذا الكتاب، وكذا طبيعة التناول المختلف من دراسة لأخرى، غير أن هذا التأكيد لا يمنعنا من الوقوف عند غياب تصنيف محدد للكتاب، ليبقى السؤال: إلى أي حقل ينتمي هذا الكتاب؟ معلقا.

وفي السياق ذاته، يبدو أن التمحيص الجيد لمحتويات الكتاب قبل نشرها قد غاب عن جامعه، ذلك أن جملة من المقالات المدرجة في القسم الثاني، كان قد سبق للدكتور عباس الجراري نشرها في كتاب مستقل موسوم ب"صفحات دراسية من القديم والحديث"، وهذه الدراسات هي "الغزل العربي بين الجاهلية والإسلام"، و"من النقد إلى البلاغة"، ثم "مناهج الأندلسيين في دراسة النحو"، وأخيرا" تجديد الشابي بين روافد الشرق والغرب"، وهو ما يدفعنا لطرح السؤال حول الغاية من إدراجها مجددا، لاسيما إذا استحضرنا أن المؤلف لم يعمد إلى نشرها إلا بعد أعمال

---

[1] - عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، الجزء 1، مطبعة النجاح الجديدة، ط 2، الدار البيضاء، 1982، ص، 8.

[2] - نفسه، ص، 9.

نقدية هامة سبقت كتاب "صفحات دراسية" منها "القصيدة: الزجل في المغرب"1970، و"من وحي التراث" و"الأدب والحرية" 1971، ثم "الثقافة في معركة التغيير"1972، ف"موشحات أندلسية"1973، و"الأمير أبو الربيع سليمان الموحدي"1974، وغيرها، أي ما يقارب عشرة كتب سابقة عن نشر هذه الدراسات في كتاب مستقل، وهو ما يعني في العمق أن الكاتب قد بلغ حدا من الاقتناع الكبير بها، وصارت تمثل مرحلة من مراحل النضج المعرفي لديه، بل ولم يترك مبررا لإعادة إدراجها ضمن هذا الكتاب عندما أشار في استهلاله ل"صفحات دراسية" بأنها صفحات "تضم محاضرات وأبحاثا ومقالات سبق لي أن ألقيتها ونشرتها منذ زمن غير قصير، وقد جمعتها في هذا الكتاب ليستفيد منها طلاب اللغة العربية وآدابها في فتح نوافذ على الموضوعات المختلفة التي تناولتها"[1]. ولهذا نرى أنه إذا كان يحق لجامع هذه الدراسات أن يدرج ضمنها ما نشر في بعض الجرائد والمجلات، فإنه لا يملك أي مسوغ لإعادة نشر الدراسات السالفة الذكر مرة أخرى في هذا الكتاب.

يبقى أن لنا أن نؤكد من جديد على القيمة العلمية والأدبية لهذا الكتاب، فعلى الرغم من اتصاله ببدايات البحث العلمي والأدبي لدى الباحث، إلا أنه أبان فيه ــ وفي وقت مبكر ــ عن تمكن جيد من أدواته المعرفية والمنهجية، وقدرة خلاّقة على التعبير والصوغ الأدبي، فجاء ترجمة لوعي منهجي عميق، وتحقيقا لرؤية شمولية تنهض على جدلية الذات والمجتمع.

***

[1] - عباس الجراري: صفحات دراسية من القديم والحديث، دار الثقافة ط1، الدار البيضاء، 1976، ص، 5.

د. محمد خيوط

- أستاذ باحث، القنيطرة.

- حاصل على شهادة الدكتوراه من كلية اللغات والآداب والفنون، جامعة ابن طفيل، القنيطرة.

- شهادة الماستر في الأدب المغربي الحديث والمعاصر، كلية اللغات والآداب والفنون، القنيطرة.

- اثنتا عشرة سنة من الخبرة في مجال التدريس بالتعليم الثانوي التأهيلي.

- من مشاركاته في الندوات العلمية:

- الندوة العلمية حول « الرواية والبيوغرافيا »، الدورة السابعة للباحثين في الدكتوراه. عنوان المشاركة: تغريبة أحمد الحجري، من سطوة الواقع إلى رحابة المتخيل الفني. كلية الآداب، ابن مسيك، جامعة الحسن الثاني، الدار البيضاء، 2019.

- **ضمن كتاب جماعي:** نشرت له دراسة بعنوان: لحظة الصفر، ما قبل القصة وما بعدها، ضمن كتاب « فتنة القص: دراسات في الإبداع القصصي لمصطفى يعلى»، إعداد وتنسيق عادل القريب، منشورات المقاهي الثقافية، 2020.

- **في المجلات:**

- المثاقفة النقدية وأسئلة الخصوصية: قراءة في كتاب « الرواية والتحليل النصي » للناقد حسن المودن، مجلة دفاتر الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الانسانية، ابن مسيك، الدار البيضاء، العدد: 8، 2020.

- أسئلة الرواية، حوار نقدي مع سوسيولوجيا النص، مجلة الثقافة الجنوبية، العدد: 17، 2020.

***

فن الكتابة المقالية
في مؤلف "طفولة قلم" للأستاذ عباس الجراري

د. محمد خيوط

تقديم:

يعد فن المقالة من الفنون المستحدثة في أدبنا العربي، فقد ارتبط ظهوره بالانفتاح الثقافي على الحضارة الغربية منذ حملة نابليون على مصر، كما كان لانتشار الطباعة وظهور الصحافة في البلاد العربية دور كبير في نشأة هذا الفن وتطوره، إذ من خلال الصحف والمجلات عرف طريقه إلى المتلقي. وكذلك شأن مقالات الأستاذ عباس الجراري التي سنتخذها متنا لهذا البحث، من خلال الوقوف عند الخصائص المميزة للكتابة المقالية عند الكاتب، استنادا إلى مؤلفه "طفولة قلم"[1] الذي أعده وجمع مقالاته الأستاذ سي محمد أملح.

ولعل مبرر طرقنا هذا الموضوع يتمثل -حسب علمنا- في عدم التفات الباحثين إلى الكتابة المقالية، بوصفها موضوعا مستقلا، في الدراسات والأبحاث التي قدموها عن أعمال الأستاذ عباس الجراري، كما هو الحال في الأجزاء الثلاثة من كتاب "زهرة الآس في فضائل العباس"[2]، رغم حضور الإشارة إلى بعض عناصر ومقومات هذا النوع من الكتابة بشكل متفرق في بحوثهم، كالحديث عن المنهج أو أساليب العرض أو طبيعة اللغة...

وبما أن عميد الأدب المغربي له إسهامات عديدة في مجال التأليف، تشهد عليها دراساته المتنوعة للأدب بشكل عام والأدب المغربي بشكل خاص، فمن شأن هذا المؤلف (طفولة قلم) أن يقربنا أكثر من بدايات الكتابة وتشكلاتها عند

---

[1]- عباس الجراري: طفولة قلم، جمع وإعداد وتقديم د. سي محمد أملح، منشورات النادي الجراري رقم 102، الطبعة الأولى، 2020.

[2]- انظر كتاب: زهرة الآس في فضائل العباس، أبحاث مهداة إلى عميد الأدب المغربي الدكتور عباس الجراري، دار المناهل، الطبعة الأولى، 1997.

الكاتب، وهو يخطو خطواته الأولى ضمن مسار طويل حافل بالإنجازات العلمية والثقافية.

وبما أن هذا المؤلف يضم تنوعا في المواضيع (اجتماعية وسياسية وتاريخية وتربوية وأدبية...)، واختلافا في أنماط النصوص (مقالية وخطابية وشعرية)، فإننا سنركز اهتمامنا في هذا البحث على الكتابة المقالية دون غيرها من أنواع النصوص الأخرى، متخذين من العنوان عتبة أولى لولوج عوالم الكتاب وفك شفراته.

1- العنوان بوصفه عتبة للقراءة:

لا شك أن العنونة تعد لبنة أساسية في الكتابة المقالية بشكل خاص، ومدخلا لا غنى عنه في تحقق عمليتي القراءة والفهم. وفي هذا المؤلف يمكن التمييز بين نوعين من العناوين؛ عنوان الكتاب والقسمين الأول والثاني منه، وعناوين النصوص المقالية الواردة بين دفتيه. فالمتأمل في عناوين المقالات يجد أن بعضها يدل دلالة مباشرة على موضوعها نظرا لما يتضمنه من بعد تقريري لا إيحاء فيه ولا مواربة، حيث ينتقي الكاتب عنوانا دقيقا واضحا لموضوع مقالته مثل: "الأدب والارتزاق"، "الترجمة الذاتية"، "مناهج الأندلسيين في دراسة النحو"... ثم يشرع في دراسة هذا الموضوع وتحليله من جوانبه المختلفة. كما يتضمن البعض الآخر أسئلة تشاكس ذهن المتلقي وفكره، وتستدعيه بكل جرأة إلى اقتحام عالم النص وقراءته، ومثاله مقال: "هل لنا أدب مغربي؟".

أما عنوان الكتاب "طفولة قلم"، ومعه عنوان القسم الأول "فجر الكتابة" وعنوان القسم الثاني "ضحى الكتابة"، فهي عناوين تحمل بعدا جماليا إمتاعيا يتمثل في الصورة الاستعارية الجميلة التي رسمها الأستاذ سي محمد أملح، بأن جعل للقلم مرحلة عمرية هي الطفولة، وجعل للكتابة فجرا وضحى، متوخيا بذلك الإشارة إلى مرحلة "البدايات" التي كتب فيها الأستاذ عباس الجراري هذه المقالات. ورغم القيمة الفنية الجمالية التي يطفح بها عنوان الكتاب خاصة، فإن المتصفح لهذه المقالات يجد أن هذا العنوان لا يعبر تعبيرا دقيقا عن مضمون الكتاب أو عن الفترة العمرية التي كتبت فيها هذه المقالات، إذ لا نجدها ترتبط بشكل خاص بمرحلة

الطفولة، فـ"المقالة الأولى في هذا الكتاب كتبها **فتى** يدعى عباس الجراري بتاريخ **15** يونيو **1954**م، وهو يومئذ ابن نحو سبع عشرة سنة، والمقالة الأخيرة كتبها **شاب** في نحو الرابعة والعشرين بتاريخ **16** أبريل **1961**م"[1].

ولنا أن نتساءل، بعد هذا التحديد الزمني الذي وضعه الأستاذ أملح نفسه، إن كانت المقالات الواردة في الكتاب من إنتاج قلم طفولي كما يؤشر على ذلك العنوان. الراجح لدينا، حسب التقسيم الذي وضعه الأستاذ أملح للكتاب، أن مقالات "فجر الكتابة" ترتبط أكثر بمرحلة الفتوة (الدراسة الثانوية)، بينما ترتبط مقالات "ضحى الكتابة" بمرحلة الشباب (الدراسة الجامعية). فلا مجال إذا لإدراج مقالات أدبية عن الغزل العربي والنقد الأدبي وابن حبوس وأبي القاسم الشابي وغيرها من المقالات الأدبية والنقدية ضمن الكتابات الطفولية، لما تتضمنه من نضج معرفي وحرص على الالتزام بمقتضيات البحث العلمي الرصين.

2- المقالة وأنواعها:

يعرف محمد يوسف نجم المقالة باعتبارها: "قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة خالية من الكلفة والرهق. وشرطها الأول أن تكون تعبيرا صادقا عن شخصية الكاتب"[2]. غير أن هذا التحديد يبقى عاما وغير دقيق، لأن معيار العفوية ومعيار الصدق في التعبير يصعب التحقق منهما، لذلك يرى بعض الباحثين أن المقالة فن يصعب الإحاطة به وتعريفه تعريفا جامعا يحدد خصائصه الفنية والأسلوبية، نظرا لتعدد أنواع المقالات من جهة، واختلاف المرامي والغايات التي تتوخى تحقيقها من جهة أخرى. فـ"بعض المقالات وصفية وبعضها ذات طابع قصصي، وبعضها يقوم على مناقشة الحجج المختلفة، كما أن هناك مقالات مرحة أو ساخرة أو حافلة بالغرائب، بالإضافة إلى أن بعض المقالات تعرض تجارب شخصية أو ذات طابع نقدي أو تاريخي. وقد يكون المقال موضوعيا أو

---

[1]- طفولة قلم، ص:**09**.

2- محمد يوسف نجم: فن المقالة، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ط.**4**، **1966**، ص: **95**.

ذاتيا"[1]. لا شك أن هذا التنوع والاختلاف يجعل من المقالة فنا يتسع لجميع الموضوعات، بل يمكنه مزاحمة أنواع أدبية أخرى كالسيرة الذاتية وأدب الرحلة وغيرهما.

وإن المتصفح لكتاب "طفولة قلم" سيقف -لا محالة- عند طابع التنوع باعتباره سمة مميزة لبدايات الكتابة المقالية عند الأستاذ عباس الجراري، فقد طرق الكاتب وناقش مواضيع وقضايا مختلفة، متخذا من المقالة قالبا شكليا وأسلوبيا أفرغ فيه أفكاره وآراءه ومواقفه. ويمكن تصنيف هذه المقالات، من حيث الشكل والبناء، إلى نوعين: مقالة صحافية ومقالة نقدية.

- تتمثل المقالة الصحافية في تلك النصوص التي كتبها الأستاذ عباس الجراري ونشرها في مجلة "هنا كل شيء"، وجريدة "العلم" وجريدة "العهد الجديد" وجريدة "الفجر". وهي نصوص مقالية عمد فيها صاحبها إلى طرح مواضيع مختلفة، ومناقشة القضايا المرتبطة بها، مع توضيحها وتحليل مكوناتها. ويتميز هذا النوع من المقالة -في الغالب- بالإيجاز والقصر وبساطة المحتوى، ومن نماذجها: "جامعة القرويين" و"في الثقافة". ونستثني من ذلك مقالة الكاتب عن "الغزل العربي بين الجاهلية والإسلامية"، إذ نجدها أقرب إلى المقالة النقدية منه إلى المقالة الصحافية، سواء من حيث حجمها الذي يصل إلى ست عشرة صفحة، أو من حيث محتواها النقدي وطريقة بنائها القائمة على عرض الموضوع وتقسيمه إلى محاور، وتقديم الفكرة والبرهنة على صحتها بالأمثلة والشواهد المناسبة... وعلى العموم، تعد هذه المقالات الصحافية بمثابة إرهاصات أولى مبكرة تنبئ بميلاد أديب متمكن من ناصية التأليف والكتابة.

- أما المقالة النقدية، فتتمثل في تلك البحوث أو العروض المطولة التي كتبها الأستاذ عباس الجراري أثناء دراسته الجامعية بمصر، والتي ترتقي إلى منزلة الدراسات النقدية العلمية الجادة، لا لأنها حظيت بتنويه الأساتذة المشرفين فقط، بل لما توفر فيها من مادة معرفية غزيرة، ومنهج علمي دقيق،

1- ابراهيم فتحي: معجم المصطلحات الأدبية، المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، 1986، ص: 340.

وأسلوب أنيق في الكتابة ونظم الأفكار، فضلا عن بنية حجاجية استدلالية على مستوى البرهنة والإقناع. لذلك يرى محمد يوسف نجم أن هذا النوع من المقالة يعتمد على "قدرة الكاتب على تذوق الأثر الأدبي، ثم تعليل الأحكام وتفسيرها وتقويم الأثر بوجه عام"[1].

وحسبنا شاهدا على ذلك مقالة الأستاذ الجراري عن "النقد الأدبي عند العرب: نشأته- تطوره- تحوله إلى بلاغة"[2]، التي كتبها في خمس وعشرين صفحة، وتتبع من خلالها مراحل تطور النقد الأدبي عند العرب منذ العصر الجاهلي، مرورا بصدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي، وصولا إلى القرن الثامن الهجري. وقد كشف هذا المقال عن سعة علم الكاتب وحسن اطلاعه على أمهات الكتب النقدية والبلاغية عند العرب، فضلا عن أنه لم يكن يتردد في تقديم استنتاجاته النقدية، وتعليل أحكامه بخصوص ما يقدمه من معارف وأفكار. يقول الأستاذ الجراري عن بعض الآراء النقدية لأم جندب والنابغة الذبياني: "من بين هذين المثالين، نستطيع أن نتبين مظهرين للنقد في هذا العصر: أولهما ذاتي، يمثله حكم أم جندب، لا تؤيده حجة ولا يدعمه برهان[...]. والثاني: موضوعي، يمثله حكم النابغة حين يعلل رأيه في شعر حسان، ولكن موضوعيته جزئية، لا تبحث ولا تتعمق[...]. ومع هذا، فالذاتية أهم صفة لهذه الآراء النقدية الساذجة التي ليست وليدة نظرة فاحصة أو دراسة ممعنة"[3].

3- بناء النص المقالي في "طفولة قلم":

لا ريب أن للكتابة المقالية، على غرار باقي الأنواع الأدبية الأخرى، جملة من المقومات والخطوات المنظمة التي يعتبر حضورها وتوافرها من أساسيات هذا الفن، بحيث تكسبه خصوصياته وتضفي عليه طابع التميز والفرادة، كما تسمح للكاتب بوضع بصمة من شخصيته العلمية والأدبية وطابع من أسلوبه الخاص في

---

[1]- فن المقالة، ص:132.

[2]- طفولة قلم، ص: 199.

[3]- نفسه، ص:201.

التعبير وعرض الأفكار ومناقشتها. وقد آن لنا أن نكشف عن بعض الخصائص المميزة للكتابة المقالية عند الأستاذ عباس الجراري، من خلال الوقوف عند مستويين متعالقين: منهج الدراسة، وطرائق العرض وأساليبه.

1.3- المنهج والمنهجية في "طفولة قلم":

لا شك أن المتتبع لدراسات الأستاذ الجراري وأبحاثه المتنوعة، ومنها كتابه "خطاب المنهج"[1]، يلمس مدى وعي الأستاذ وعنايته بمسألة المنهج كمنظومة متكاملة تؤطر دراسات الناقد الأدبي. لذلك ميز في تحديده للمنهج بين التصور النظري (الرؤيا)، والوسائل الإجرائية من فحص وتحليل وبرهنة، والتي يتوسل بها الباحث لتحقيق فاعلية المنهج. وقد اختار الأستاذ وسم منهجه بـ"المنهج الإقليمي"*، الذي اتضحت معالمه الكبرى في كتابه: "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه"، حيث جعل منهج اشتغاله يتمثل في "الإقليمية التي تعتمد البيئة ومقوماتها ومؤثراتها أساسا للدراسة"[2]. وهو بذلك يعتبر أن المحلية وفهم الذات سبيلان لتحقيق الوحدة والتكامل، "إذ عبر معرفتنا بهذه الذات، نتعرف إلى الآخر، وإلا فكيف نعرف هذا الآخر إذا لم تكن لنا مقاييس ذاتية نقارن بها ما لدينا بما لغيرنا. فالوحدة هي الغاية الكبرى. أما الإقليمية، فغاية مرحلية"[3]. وإذا كان هذا هو التصور الفكري المنهجي الذي أعرب عنه عميد الأدب المغربي في دراساته وأبحاثه المتنوعة، فإلى أي حد كان هذا الوعي بالإقليمية والمحلية حاضرا في كتاباته الأولى المتضمنة في مؤلفه "طفولة قلم"؟ وما الأسس المنهجية التي استند إليها الباحث أثناء صياغة مقالاته؟

---

[1]- عباس الجراري: خطاب المنهج، منشورات النادي الجراري رقم 8، الرباط، الطبعة الثانية، 1995.

*- يبدو أن الإقليمية، وفق التصور الذي وضعه الكاتب لها، عبارة عن نزعة فكرية تؤطر مجال اهتمامات الأستاذ عباس الجراري، ولا يمكن اعتبارها منهجا نقديا للدراسة والبحث بالمفهوم الدقيق للمنهج.

[2]- عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه، الجزء الأول، مكتبة المعارف، الرباط، الطبعة الثالثة، 1986، ص:08.

[3]- مصطفى رمضاني: مجالات التأسيس في البحث العلمي عند الأستاذ الدكتور عباس الجراري، ضمن كتاب: زهرة الآس في فضائل العباس، ص:269.

الواقع أن المتصفح لهذا الكتاب يستشعر روحا وطنية جياشة واعتزازا لا نظير له بالهوية المغربية، وميلا واضحا إلى الانتصار لها في مقالات كثيرة. ففي مقالته "رجالاتنا المنسيون"، يتحسر الكاتب على حال علماء المغرب وأدبائه وشعرائه الذين طالهم الإهمال، ولم تقدَّر جهودهم وإنجازاتهم حق قدرها. لينتقل بعد ذلك إلى ذكر أسمائهم وما خلده التاريخ لهم، قبل أن يختم مقاله بالقول: "وإنه لمن المؤسف كذلك أن نذكر رجالات غيرنا ونغفل عن أفذاذ في تاريخ آدابنا هم أحق بالتخليد والذكرى. ولست أنكر ذلك إلا لأني أكره أن نهتم بالغير ونهمل أنفسنا"[1]. فحضور النزعة الإقليمية يبدو واضحا في هذه المقالة وفي غيرها من المقالات التي خصصها الكاتب للحديث عن المغرب والذود عن تاريخه ورجالاته، ومنها: جامعة القرويين، المغرب عند حلول المولى إدريس الأكبر وأثر وجوده به، ستة مقترحات لتقدم الأمة المغربية، هل لنا أدب مغربي؟، ابن حبوس شاعر الخلافة المهدية...

أما عن المنهج النقدي الذي تبناه الأستاذ في مجمل مقالاته ضمن هذا المؤلف، وبخاصة النقدية منها، فنلمس تأثره الواضح بالمنهج التاريخي، ويتضح ذلك من ناحيتين: تتمثل الأولى في استحضاره لأبرز رواد هذا المنهج (سانت بوف، تين، برونتيير) في مقالته: "في الأدب وتاريخه"، مما دفعه إلى اعتبار أن "الوثيقة الأدبية مرآة تنعكس عليها صورتان: صورة الحياة الإنسانية وصورة شخصية صاحبها"[2]. وبهذا تبنى الأستاذ نظرية الناقد الفرنسي "تين" التي تؤكد أثر الجنس والزمن والمكان على الأديب وأدبه.

أما الناحية الثانية، فتتمثل في استلهام الكاتب أبرز مرتكزات المنهج التاريخي في دراسة بعض القضايا والشخصيات الأدبية، مثل مقالته عن "رهين المحبسين أبو العلاء المعري"، التي عرَّف من خلالها بفيلسوف المعرة وشاعرها، معتبرا أن نبوغه مرتبط بعوامل موضوعية وذاتية تتمثل في الوسط العلمي الذي

---

[1]- طفولة قلم، ص:158.

[2]- نفسه، ص:141.

نشأ فيه، وفي إصابته بالجدري الذي أذهب بصره. يقول الأستاذ الجراري عن المعري: "نشأ في بيت نابُه عريق في العلم والفضل والرياسة، بيتٍ لم يكن فيه إلا أديب شاعر، أو عالم قاض. وناهيك بجده قاضي المعرة [...] ولم يبلغ الرابعة من عمره حتى أصيب بالجدري، فذهب بيمنى عينيه، وأصيبت الأخرى بالبياض، ثم عميت؛ فكان لهذا الرزء أثر عميق في حياة المترجم"[1].

وفضلا عن هذه المقالة، نلفي مقالات أخرى يقتفي فيها الكاتب خطوات المنهج نفسه، لعل أهمها مقالته عن "ابن حبوس شاعر الخلافة المهدية"، إذ استهلها بالحديث عن الطابع الحضاري والثقافي والديني في عصر الموحدين، وأثره الكبير في شاعرية ابن حبوس. كما أن التحليل الذي وضعه الكاتب للمقاطع الشعرية المنتقاة من أشعار ابن حبوس، لا يكاد يلتفت فيه إلى الجوانب الفنية أو الجمالية في شعره، بقدر ما كان يبحث فيه عن صور لواقع المجتمع المغربي في تلك الفترة. يقول: "والقصيدة كما يُرى ثورة صريحة ضد الفقهاء، الذين تمسكوا بقشور الفروع، وثورة في نفس الوقت ضد بعض فلاسفة العصور ممن كانوا لا يقولون بغير العقل. وهي في الواقع أثر من آثار الدولة الموحدية"[2]. فالكاتب هنا ينظر إلى العمل الأدبي بوصفه أثرا أو وثيقة تعكس صورة من صور الحياة الاجتماعية على عهد الدولة الموحدية.

وفضلا عن توظيف المنهج التاريخي كإطار نظري وأداة إجرائية لتحليل القضايا والأفكار التي تعرض لها الأستاذ عباس الجراري في هذا الكتاب، يمكن أن نتحدث أيضا عن المنهجية أو طريقة العرض التي استند إليها الكاتب في كتابة هذه المقالات وتحليل مضامينها، "فالمقال ليس حشدا من المعلومات، وليس كل هدفه أن ينقل المعرفة، بل لا بد إلى جانب ذلك أن يكون مشوقا، ولا يكون المقال كذلك حتى يعطينا من شخصية الكاتب بمقدار ما يعطينا من الموضوع ذاته. فشخصية الكاتب لا بد أن تبرز في مقاله، لا في أسلوبه فحسب، بل في

---

[1]- طفولة قلم، ص: 36.

[2]- نفسه، ص: 253.

طريقة تناول الموضوع، وعرضه إياه"[1]. والقصد بطريقة العرض ذلك التصميم المنهجي الذي يضم مجموع الخطوات المنظمة التي تحكم بناء الأفكار واتساقها في النص المقالي من بدايته إلى نهايته. فبناء المقال عند الأستاذ الجراري بناء متدرج، تتلاحم أجزاؤه وأفكاره، ويتوزع بين ثلاث مراحل رئيسية هي: التقديم والعرض والخاتمة، ولكل مرحلة سماتها المميزة وغاياتها المحددة.

في تقديم موضوعه، ينطلق الكاتب عادة من مقدمات تتضمن معارف وأفكارا تكاد تكون بدَهيَّة يسَلِّم بها جمهور المتلقين، ولعله يتوخى من ذلك استمالة القارئ وشد انتباهه إلى الموضوع أو القضية التي يناقشها. وفي مرحلة العرض، يقوم الكاتب بطرح قضيته للنقاش والتحليل، من خلال ترتيب أفكاره وتنظيمها وفق مقصديته التي يستهدف بها إقناع المتلقي بأطروحته. ولتحقيق غاية الإقناع، يوظف الكاتب جملة من الوسائل الاستدلالية والأساليب الحجاجية. أما خاتمة الموضوع، فتكون نتيجة طبيعية لما سبق تناوله في العرض، تدل في الغالب على يقين واقتناع راسخ.

ويمكن أن نتخذ مقالة "الغزل العربي بين الجاهلية والإسلام" نموذجا لما تقدمت الإشارة إليه، إذ نلفي الكاتب يستهلها بمقدمة عامة يتحدث فيها عن مكانة المرأة في الأدب العربي، وشدة تعلق الرجل العربي بها وافتتانه بجمالها ورقتها، ليصل بالقارئ إلى صميم موضوعه المتمثل في تغني الشعراء بالمرأة ووصفها والتغزل بها. وبعد ذلك ينتقل الكاتب صوب العرض، حيث يشد بيد المتلقي ويقوده باتجاه محاور الموضوع الكبرى، فيعرفه بالغزل الصناعي وشيوعه في الجاهلية واستمراره في الإسلام، ثم يمر به إلى الغزل العذري والغزل الإباحي معرفا بكل منهما وبمن مثلهما من الشعراء. ليختم مقالته بخلاصة يقارن من خلالها بين الغزل في الجاهلية والإسلام، حيث يقول: "وخلاصة القول، إن الغزل كان في الجاهلية ماديا مصطنعا، وكان وسيلة لغيره من الأغراض، يستهل الشعراء به

[1]- عز الدين اسماعيل: الأدب وفنونه، دار الفكر العربي، الطبعة السادسة، 1976، ص: 289.

قصائدهم تمهيدا للموضوع الأساسي فيها، فأصبح في الإسلام غاية مقصودا لذاته، يفرد الشعراء له قصائد كاملة، ويقصرون فنهم عليه..."[1].

فالكاتب في هذه المقالة، أو في غيرها، لا يَفْجأُ المتلقي برأيه فيلقيه عليه إلقاءً، بقدر ما يأخذ بيده وينقله من محطة إلى أخرى، فيشركه معه تدريجيا في الموضوع ويحيطه علما بأجزائه وتفاصيله، ليقوده أخيرا إلى استخلاص النتائج المرجوة في تأدب واحتياط، مستعينا في ذلك بجملة من الأساليب الفنية واللغوية والحجاجية.

2.3- المستوى الأسلوبي في الكتاب:

لا يكفي الكاتب، في طرح قضية ما وإيصالها إلى المتلقي، أن يشحذ معارفه ومعلوماته الغزيرة، إذ لا بد له من أسلوب يمتطي صهوته لبلوغ فكر القارئ ووجدانه، لأن الكاتب المتميز لا يكتفي بمعرفة ما يتوجب عليه قوله، بل هو في حاجة أكثر إلى معرفة الكيفية التي يقول بها ذلك، وهذه الكيفية هي أسلوب الكاتب وطريقه المستقيم إلى المتلقي. وعلى هذا الأساس، يشمل الأسلوب مجموع التقنيات والآليات الفنية التي يوظفها الكاتب، والتي تكسب نصوصه طابعها الخاص والمتميز. يقول رولان بارث: "فالأسلوب هو «شيء» الكاتب، هو روعته وسجنه، إنه عزلته"[2]. فما المميزات الأسلوبية والفنية للكتابة المقالية عند الأستاذ عباس الجراري؟

أ- طبيعة اللغة:

تعد اللغة ميزة أسلوبية في كل عمل أدبي، ولذلك قال الناقد رينيه ويليك: "أنا أسلم منذ البداية بأن كل تفكيرنا، وهذا يشمل تفكيرنا حول الأدب من دون شك، يتم بواسطة اللغة وأن العمل الأدبي لا يدرك إلا من خلال لغته"[3]. وبما أن

---

[1]- طفولة قلم، ص: 174.

[2]- رولان بارث: الدرجة الصفر للكتابة، ترجمة محمد برادة، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، دار الطليعة، الطبعة الثانية، 1982، ص: 34.

[3]- رينيه ويليك: مفاهيم نقدية، ترجمة محمد عصفور، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع. 110، فبراير 1987، ص: 364.

لكل عمل أدبي أسلوبه الخاص، فإن له -تبعا لذلك- لغة لها خصائصها المميزة. فلغة النص المقالي تنحو، عادة، نحو الوضوح والبساطة والتقريرية، والبعد عن التكلف اللفظي والحشو المخِلِّ والإطناب الممل... وما دامت كذلك، فهي تروم الإخبار والإبلاغ وتحقيق أحادية المعنى، قصد الوصول إلى ذهن المتلقي ومخاطبة فكره ووجدانه. ولعل القارئ لكتاب "طفولة قلم" يلمس حضور هذه الخصائص المميزة للغة الكاتب، التي تعتمد جملا محكمة السبك والبناء، يطبعها الاتساق تركيبا ودلالة. ويمكن دراسة هذه اللغة من خلال تقسيمها إلى نوعين: لغة ذات بعد علمي (اصطلاحية)، وأخرى ذات بعد أدبي (طبيعية)[1].

فالأولى تشمل بعض المقالات ذات الصبغة العلمية الدقيقة مثل مقالته: "مفاصل الكلام ومواقفه"، والتي تحدث فيها عن علامات الترقيم ووظائفها ومواقعها من النص، ومقالته عن "الشهور العربية" ومعانيها، ومقالته عن "النسب" وما يطرأ على المنسوب إليه من تغييرات. ولا شك أن طبيعة هذه المواضيع تطلبت من الكاتب توظيف لغة علمية تتحرى الدقة ووضوح الدلالة والمقصدية، كما تطلبت منه -في الغالب- توظيف جمل قصيرة دالة على المعنى المطلوب، تفصل بينها علامات الترقيم. يقول الأستاذ عباس الجراري عن شهر ربيع: "الربيع لدى العرب ربيعان: ربيع شهور وربيع زمان؛ فربيع الشهور اثنان، ولا يقال فيهما إلا شهر ربيع الأول، وشهر ربيع الآخِر بزيادة شهر وتنوين ربيع. وجعلِ الأول والآخِر وصفا تابعا في الإعراب، ويجوز فيه الإضافة. والتزمت العرب لفظة شهر قبل ربيع لاشتراكه بين الشهر والفصل؛ فالتزموه في الشهر وحذفوه في الفصل للفصل"[2].

أما الثانية، فهي لغة ذات بعد أدبي نقدي، تجنح إلى السرد التاريخي للأحداث وتتبع الوقائع، وتميل أكثر إلى توظيف الجمل الطويلة، ومن ذلك قول الكاتب في مقالة يصف فيها نشأة الأوزان الشعرية العربية: "وإذا كان

---

[1]- هذا تقسيم إجرائي فقط، ولا يمنع وجود تداخل بين النوعين.

[2]- طفولة قلم، ص: 61.

العربي يقطع الصحاري الشاسعة الأطراف والبوادي المترامية الأرجاء في أسفاره الطويلة ورحلاته البعيدة ممتطيا جواده أو جمله نزع [كذا] إلى التشاغل عن متاعب جسمه بإنشاد الأشعار التي تهيج بها العواطف وتستلذها الآذان [...] فكان خليقا بهذا الأعرابي الرحالة المطبوع بفطرته على الشعر لبداوته وفصاحة لسانه ونقاء تربته وصفاء أديم سمائه وملاءمة بيئته لتربية الخيال أن يخترع أوزانا تزيد من تأثير شعره في النفوس"[1]. حيث نلمس هنا حضور البعد الأدبي من خلال انسيابية اللغة وميل الكاتب إلى التصوير البلاغي لتقديم الموصوف في صورة أبهى وأجمل. والقصد من ذلك هو خلق أثر وجداني في نفس المتلقي من خلال إثارة مشاعره وتحبيب الموضوع إليه. وقد يخاطب الكاتب، في مواضع أخرى، الجانب العقلي المنطقي متوسلا بمهاراته الحجاجية والإقناعية. وبناء عليه، فـ"اللغة التي نتوسل بها في الحجاج هي من جنس اللغة الطبيعية، التي لم يثقفها الإنسان ويهذبها من ضروب الإيحاءات والمعاني الجانبية المواكبة والترادف والاشتراك اللفظي... إلخ. هذه اللغة المعتمدة في الحجاج بعيدة كل البعد عن تلك المعتمدة في العلم"[2].

ب- الأساليب الحجاجية:

يعتبر الحجاج نشاطا استدلاليا إقناعيا يستند إلى تقنيات لغوية وأسلوبية تتوخى الإقناع بفكرة أو دحضها، فالحجة هي "ما يراد به إثبات أمر أو نقضه. ومن هذا الوجه تكون الحجة مرادفة للاستدلال، فيقال إن الحجة هي الاستدلال ظاهرا وباطنا"[3]. لذا يلعب الحجاج دورا كبيرا في التأثير في المتلقي ودفعه إلى القبول والتسليم بما يعرض عليه من قضايا وأفكار ومواقف. وهو الأمر الذي أكده

---

[1]- طفولة قلم، ص: 131.

[2]- محمد الولي: مدخل إلى الحجاج، أفلاطون وأرسطو وشايم بيرلمان، عالم الفكر، ع.2، المجلد 40،2011، ص:13.

[3]- مراد وهبة: المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، ط.5، 2007، ص:266.

الأستاذ محمد الولي بقوله: "إن محاولة التحكم أو التأثير في الإنسان بواسطة اللغة هو ما أدعوه حجاجا"[1].

وبما أن فن المقالة يقوم على الإخبار والإبلاغ، فلا مناص من حاجته إلى الإقناع بما يخبر به، لذا يكون لزاما على الكاتب توظيف أساليب الحجاج والاستدلال لتدعيم أفكاره وتعزيزها والإقناع بها. ومن الأساليب التي وظفها الأستاذ الجراري لهذه الغاية نذكر:

- **السرد والوصف:** وهما من الأساليب التي تحضر بكثافة في الكتابة المقالية للأستاذ الجراري، إذ ساهما بشكل كبير في تقديم ووصف الأحداث والوقائع الأدبية والتاريخية التي تناولها الكاتب بالدراسة والبحث. يقول عن الشاعر أحمد شوقي: "وقبل بضع سنوات من وفاته، وفي عام سبع وعشرين وتسعمائة وألف، كان قد أعاد طبع ديوانه "الشوقيات"؛ وأقيمت له في دار الأوبرا بالقاهرة حفلة فخمة حضرتها وفود من شتى الأقطار العربية، جاءت لتبايعه بالإمارة وتعقد له اللواء. وكان حافظ في المقدمة بين شعراء هذا المهرجان، وأنشد قصيدة أعجبت أمير الشعراء وأطربته، فنهض إليه وقبله في وجهه. وهي التي يقول في أولها:

أمــيرَ القــوافي قــد أتيــت مبايعــا وهذي جموع الشعر قد بايعت معي

وعلى رأي المازني، فقد كان هذا البيت يكفي وحده لمبايعة شوقي بالإمارة"[2].

- **التعريف والمقارنة:** يعمد الكاتب إلى التعريف بفكرة أو مفهوم ما قصد توضيحه للمتلقي وإزالة إبهامه، ويعمد إلى المقارنة من أجل استجلاء عناصر الاختلاف والائتلاف بين طرفين أو أكثر. وهما معا من أساليب التفسير التي تقرب الأفكار والمعاني من فهم المتلقي. ومن نماذجها الكثيرة نذكر تعريف الكاتب بجامعة القرويين وتاريخ تأسيسها على يد فاطمة الفهرية، ثم مقارنته

[1]- مدخل إلى الحجاج، ص:12.

[2]- طفولة قلم، ص: 150.

بينها وبين جامع الزيتونة بتونس، وبين حال القرويين في الماضي وحالها في الحاضر. يقول الكاتب: "غير أن الحياة التي هي عليها اليوم جامعتنا ليست هي سالفة الذكر، والتي أدهشت العالم أجمع، حيث إن الطالب القروي اليوم لم يجد تلك العلوم الرياضية؛ بل حتى الدينية لم تبق مطبوعة بطابعها المعهود. ورغم ذلك، فهي مازالت زاهرة ناهضة، ترفع رأس المغرب عاليا"[1].

- **الاستشهاد:** كثيرا ما يورد الكاتب في مقالاته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعرية والحكم والأمثال وأقوال العلماء والأدباء والمفكرين، يقدمها لتدعيم أفكاره والبرهنة على صحتها. وهي بذلك تخدم بشكل كبير البنية الحجاجية الاستدلالية للنص، وتدفع المتلقي إلى الاقتناع بما يقدم له من معارف وأفكار. غير أن الكاتب، في بعض الأحيان، قد يبالغ في إيراد هذه الشواهد وتوظيفها، من خلال رصفها وضم بعضها إلى بعض من دون مسوغ خطابي أو بلاغي. ومثال ذلك ما جاء في مقاله الموجز عن كيفية اختيار الصديق، حيث أورد الكاتب ما ينيف عن ثلاثين شاهدا من الآيات القرآنية والأحاديث والأمثال والأبيات الشعرية وأقوال العلماء. يقول: "فكان جديرا بكل فرد أن يتخذ الإخوان، فإنهم عدة في الدنيا والآخرة. ألا تسمع لقول أهل النار: "فما لنا من شفعاء ولا صديق حميم". وفي غريب التفسير في قوله عز وجل: "ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله". قال: "يشفعهم في إخوانهم، فيدخلهم الجنة معهم". وكما في الحديث: "من آخى أخا في الله، رفعه الله درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله". وقيل: رب صديق أود من أخ شقيق. وفي المثل الذي أول من نطق به لقمان بن عاد: «رب أخ لك لم تلده أمك»"[2]. لا ريب أن هذا الكم الهائل من الاستشهادات قد أفقد النص المقالي بعضا من أدبيته وبعده الفني، ولو تخفف الكاتب منها لكان أفضل.

---

[1]- طفولة قلم، ص: 51.

[2]- نفسه، صص: 72-73.

- **الدحض والتفنيذ:** ويقوم هذا الأسلوب على نفي فكرة أو أطروحة والسعي إلى إبطالها وإنكارها، بهدف إثبات أطروحة أخرى تختلف عنها أو تناقضها. وهو أسلوب حجاجي يسعى من خلاله الكاتب إلى التأسيس لموقف أو قضية بديلة لما هو شائع. ومن نماذجه قول الأستاذ الجراري: "والأدب الواقعي ليس ذاك الذي يتخذ حياة الشعب مادة له، وإنما هو أدب تسعى فلسفته إلى الكشف عن أسرار الحياة على نحو خاص **[...]**، كما أن الفن للفن ليس معناه الانفصال عن المجتمع والانفراد في الصوامع والأبراج، وإنما هو دعوة إلى أن يبتعد الفنان عن ذاته ومشاعر نفسه الخاصة لينظر في الفن وحقيقته الجمالية الصرفة"[1]. فالكاتب هنا يدحض ما علق بذهن المتلقي من أفكار عن واقعية الأدب وعن نظرية الفن للفن، مقدما تصورا بديلا عن كل مفهوم.

خلاصة:

وصفوة القول، إن البحث في مقومات وخصائص الكتابة المقالية متشعب ولا حدود له، وإن ما تقدم ذكره لا يعدو أن يكون محاولة لالتماس بعض ما تتميز به كتابات الأستاذ عباس الجراري استنادا إلى كتابه "طفولة قلم". وقد أسعفنا التركيز على عناصر تشكل النص المقالي، من خلال المنهج وطريقة العرض واللغة والأساليب الموظفة، في إبراز المعالم الكبرى للكتابة المقالية لدى عميد الأدب المغربي. ويتضح ذلك في تبنيه منهجية علمية في التحليل، سواء من خلال توظيف المنهج التاريخي أو في طريقة عرضه للقضايا والأفكار، كما تميزت لغة الكتابة بانسيابيتها ودقة ألفاظها في أداء المعنى، فضلا عن توظيف بنية حجاجية استدلالية متنوعة ساهمت في تعزيز أفكار الكاتب من جهة، ودفع المتلقي إلى الاقتناع بما يعرض عليه من قضايا فكرية وأدبية من جهة أخرى.

[1]- طفولة قلم، ص: 187.

وعلى العموم، يمكن التأكيد أن ملكة الإبداع والكتابة عند السيد العميد قد تشكلت منذ وقت مبكر من عمره -أطال الله بقاءه-، وهي خاضعة لمبدأ التطور والنماء. ويشهد على ذلك الاختلاف الحاصل، في ملكة التعبير والنقد، بين مقالات القسم الأول "فجر الكتابة" والقسم الثاني "ضحى الكتابة"، إذ يبدو جليا أن المقالات التي تضمنها القسم الثاني من الكتاب تظهر أن الكاتب قد تملك ناصية الفن وزمامه، وشق طريق الكتابة المقالية عن جدارة واقتدار، وصار بإمكانه أن يجيل قلمه في شتى الموضوعات والقضايا.

***

د. حسن اليملاحي

- أستاذ باحث، تطوان.

-حاصل على الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، تخصص: البلاغة وتحليل الخطاب.

- عضو اتحاد كتاب المغرب.

- عضو مؤسس ورئيس فرع اتحاد كتاب المغرب بالقصر الكبير، من سنة 2006 إلى 2012.

- عضو مكتب اتحاد كتاب المغرب (فرع تطوان) من 2012-2018.

- شارك في العديد من الندوات واللقاءات الثقافية.

- الأستاذ حسن اليملاحي من الكتاب المغاربة الذين لهم مساهمات في مجال الكتابة السردية.

ومما صدر له في هذا الباب:

1- أصوات من الشمال... قصص من المغرب.

صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر، 2007.

2- مرايا صغيرة، قصص قصيرة جداً، دار الأمان، 2012.

3- « اختفاء » في الطريق إلى لابيد ريرا، قصص قصيرة جداً، صدرت عن اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 2014.

وفي مجال الدراسات، صدر له « خطاب الرواية النسائية بالمغرب، نماذج تحليلية»، مطبعة الخليج، تطوان، 2020.

- وله تحت الطبع: 1- عناق في برشلونة، (رواية).

2- عناق في لشبونة، (رواية).

- ومن إنتاجه الذي صدر ضمن كتاب جماعي:

1- فتنة الإبداع والسؤال النقدي (حول أعمال الكاتبة والروائية زهور كرام)، مؤسسة مقاربات للنشر المغربية، 2018.

2- ارتحال الذات بين الواقعي والحلمي، **(**كتاب نقدي حول تجربة الكاتب المغربي الراحل محسن أخريف**)**، منشورات رابطة أدباء الشمال، **2018.**

- ومن مقالاته المنشورة في المجلات:

مقال ضمن ملف عن الكاتب المغربي محمد شكري، مجلة « مجرة »، القنيطرة، ع، **17**، يوليوز **2003.**

قراءات نقدية في الاصدارات القصصية التسعينية، مجلة « مجرة »، القنيطرة، ع، **8**، **2005.**

الوعي المديني في كتابات محمد شكري **(**ملف نقدي حول تجربة الكاتب محمد شكري**)**، مجلة الإمارات الثقافية، ع، **12**، **2013.**

***

ملامح نقدية في كتاب: طفولة قلم
للأستاذ عباس الجراري

د. حسن اليملاحي

تقديم:

طفولة قلم، عنوان الكتاب الذي جمعه وأعده وقدمه الدكتور سي محمد أملح. يقع الكتاب في ثلاث مئة وأربع صفحات، وقد صدر- في طبعته الأولى - ضمن منشورات النادي الجراري رقم 102، برسم سنة 2020، وذلك تخليدا للذكرى التسعين لتأسيس النادي. وعلى غرار المتون العلمية الجادة والرصينة، فإن طفولة قلم يثير لدى القارئ جملة من الأسئلة سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار القيمة العلمية لهذا المتن، إضافة إلى طابع التنويع الذي يميز مادته. وهكذا، وللاقتراب من هذا المتن، فإن قراءتنا هاته إلى جانب التقديم، ستنصرف إلى التركيز على العنوان والبناء، مرورا بالبعد النقدي في الكتاب وانتهاء بالخاتمة.

- في مسألة العنوان:

يلاحظ أن عباس الجراري قد اختار لمتنه عنوان "طفولة قلم" وككل العناوين، فإن هذه العتبة تثير لدى القارئ جملة من الأسئلة من حيث الدلالات والغايات التي ينطوي عليها. وهكذا فعنوان هذا المتن يتكون من قسمين جاءا كالتالي: طفولة ثم قلم، والطفولة كما لا يخفى مرحلة عمرية من حياة الإنسان، أما قلم فهي مفرد أقلام، والقلم أداة للكتابة. وغني عن البيان أن لفظة قلم قد ورد ذكرها في القرآن الكريم وتحديدا في سورة القلم، الآية: 52 التي تقول:" ن والقلم وما يسطرون(1)". ومن المعلوم فإن هذه العتبة من شأنها أن تثير بعض الأسئلة لدى القارئ من حيث هذا الاختيار والغاية منه. وإذا كان القلم يرمز دلاليا إلى شخصية الكاتب ككل أو على الأقل إلى مرحلة البدايات، فإن لفظة طفولة تنطوي على عنصرين دلاليين:

- الأول : تعلق المؤلف بتجربة الكتابة الأولى

- الثاني : حنينه إلى الطفولة البعيدة.

- في بناء الكتاب:

إلى جانب التقديم الذي خصه به سي محمد أملح، فالكتاب ينقسم من حيث البناء إلى قسمين، الأول معنون بفجر الكتابة (كتابات المرحلة الثانوية) بينما الثاني يحمل عنوان ضحى الكتابة (كتابات المرحلة الجامعية). ومن المعلوم فالعنوانان يدخلان في تناص مع فجر الإسلام وضحى الإسلام لأحمد أمين. وعلى الرغم من الاختلاف الذي يميز الكتابين الأخيرين وكتاب طفولة قلم، فإن ما يجمعهما هو القراءة والبحث عن المعنى الغائب في الخطاب أوالمادة المدروسة. وبالعودة إلى التقسيم الذي اعتمده سي محمد أملح معد ومقدم الكتاب، نشير إلى أنه تقسيم كرونولوجي دال، يفصل بين تجربتين مختلفتين في مجال الحياة والكتابة الشعرية والنقدية لدى عباس الجراري، والأمر هنا يتعلق ب:

- المرحلة الثانوية (فجر الكتابة)
- المرحلة الجامعية (ضحى الكتابة)

فبخصوص مرحلة فجر الكتابة أو مرحلة البحث عن الذات، فالقارئ لهذا القسم الأول، سيلاحظ أن الكتابة عند عباس الجراري تتخذ الكثير من الملامح، ويتعلق الأمر هنا بالملمح النقدي والتاريخي والوطني والقومي. أما القسم الثاني ضحى الكتابة أو مرحلة النضج والعطاء أكثر، فبخلاف المقالين "لماذا تطوعنا في جيش التحرير" و"في الثقافة"، فإن باقي المقالات الأخرى قد جاءت تصب في الأدب والنقد ونقد الشعر.

والقارئ للمرحلتين معا سيجد نفسه أمام موضوعات متنوعة ومختلفة من حيث القيمة والأبعاد والسمات. ولما كان المجال لا يسمح بتناول وعرض جميع الملامح السالفة الذكر، فإنه ولأسباب منهجية ستنصرف قراءتنا هذه إلى الاهتمام في هذا المتن بالملمح النقدي. وعلاقة بهذا الملمح، يلاحظ الاهتمام المبكر للكاتب بالشعر مقالة وإبداعا، ويبدو ذلك واضحا من خلال مقالته المعنونة ب" رهين المحبسين أبو العلاء المعري " التي وردت في القسم الأول من الكتاب والتي يحتفي

من خلالها بهذا الكاتب المتعدد الذي سطع نجمه في مجال الشعر والفكر والنحو والأدب. في هذه المقالة تحديدا، يرسم الجراري سيرة هذا الرجل، وهي سيرة تكشف لنا عن عبقرية وذكاء أبي العلاء كما تكشف لنا عن سيرته الفكرية والإبداعية. وإلى جانب الاهتمام النقدي بالمعري، يطالعنا الكاتب في القسم الثاني ببحث نوعي يحتفي بالشاعر المغربي ابن حبوس شاعر المهدية المخضرم الذي عاصر الدولة المرابطية والموحدية، وهو شاعر مختلف بالنظر إلى مواقفه وما يتميز به من وعي خلاق، إضافة إلى أبي القاسم الشابي الشاعر التونسي المحبوب لدى القراء. وللاقتراب من العوالم النقدية للكاتب عباس الجراري، سنبدأ أولا بتلقي قراءته للمعري من خلال مقالته "رهين المحبسين أبو العلاء المعري"[1]، لننتقل في مرحلة ثانية إلى تلقي قراءته ابن حبوس المعنونة بـ "ابن حبوس شاعر الخلافة المهدية"[2] وكذا "تجديد الشابي بين روافد الشرق والغرب".[3]

- في نقد الشعر:

أولا : الإنساني والإبداعي في سيرة المعري:

- المعري الإنسان:

فبخصوص ذكاء المعري وإنسانيته، يسرد لنا الكاتب حكاية طريفة حدثت له مع جاره السمان الذي تعرض إلى الخيانة من لدن شركائه بعدأن نسي تقاييد الحسابات. ولما علم المعري بمشكلة جاره، تدخل في الوقت المناسب لكي يذكره بما نسيه. هكذا يكون هذا الشاعر قد أنقذ الموقف، وهو الذي حفظ حديث جاره مع شركائه لما كان يقضي بعض الوقت فوق سطح بيته طلبا للراحة.عن هذه النادرة نقرأ: " قامت قيامته. فعلم أبو العلاء بحاله، فسأله عن السبب، فحكاه له، فقال له:" هات دواة وقلما وقرطاسا ". فأتى بها وجعل يملي عليه أبو العلاء كل ما راج بينه وبين شركائه ليلة المحاسبة، فذهب التاجر إلى أصحابه بما قيده عن أبي

---

[1] ــ طفولة قلم، ص 36.

[2] ــ نفسه، ص 245.

[3] ــ نفسه، ص 265.

العلاء مدعيا لهم أنه قد عثر على التقاييد.."[1] وعن نفس ذكاء وإنسانية المعري، يطالعنا الجراري بحكاية أخرى لا تختلف من حيث القيمة عن الحكاية السالفة ويتعلق الأمر بما حصل للمعري مع الجار الأعجمي الذي اختفى لمدة طويلة، وحدث أن زاره أحد أبناء بلدته فصادف المعري الذي أخبره عن غيابه. وبعد حديث قصير بينهما سيترك الرجل رسالة شفوية بغير العربية لابن بلدته. والطريف أن المعري حفظ كل هذه الرسالة من دون أي عناء يذكر. عن هذه النادرة نقرأ في نفس الصفحة:" أنا أعجمي لا أعرف العربية، فكيف أستطيع أن أوصيك لتبلغه ذلك عني؟. فقال له أبو العلاء:" قل ما تشاء، ولو بغير العربية، فإني سأحفظ الكلمات كيفما كانت وأمليها عليه". يبدو من خلال هاتين القرينتين مدى ذكاء المعري الذي أهله لأن يكون وافر العلم والمعرفة ونابغة في الشعر والفلسفة، وهو الذي قال: "ما سمعتُ شيئًا إلَّا حفظته". وإلى جانب ما سلف، تظهر النزعة الإنسانية التي تميز شخصيته والمتمثلة أساسا في خدمة الناس والانفتاح عليهم وتقديم العون لهم في الأوقات المناسبة. وأعتقد أن اختيار الكاتب عباس الجراري لهذه النوادر لم يكن وليد الصدفة بقدر ما كانت من ورائه العديد من الرسائل التي تروم أنسنة علاقاتنا الاجتماعية ومد يد العون للإنسان مهما كان موقعه (التاجر) أو جنسيته (الأعجمي).

-المعري الشاعر :

إلى جانب ما هو إنساني، فالإبداع سمة مميزة لشخصية المعري، فالرجل خاض في الكثير من أنواع القول والكلام. ولما كان السياق لا يسمح بالحديث عن كل هذا التعدد، فإننا سنتوقف هنا عند ما هو إبداعي كما ورد في مقالة الجراري المعنونة برهين المحبسين. والأمر هنا يتعلق بالشعر الذي تألق فيه في عصره، وهو الذي ترك شعرا ينبض بالحكمة والفلسفة. يقول الكاتب أن شعر المعري على نوعين:

[1] ــ طفولة قلم، ص 38.

"1 – شعر الشباب: وهو ما حواه سقط الزند، كله تكلف وتقليد واستعمال الألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة.

2 - شعر الكهولة: وهو ما حوته اللزوميات، التي تعد من أنفس الدواوين العربية، فهو خال من التكلف والتقليد، إلا أنه استعمل فيه القوافي الصعبة.."."[1]

والحديث عن شعر المعري، يدفعنا إلى التأكيد أن هذا الأخير قد وظف الشعر في رسالة الغفران وجعل من حضوره مكونا أساسيا في بناء النص من حيث المعنى والمبنى، كما استدعى كوكبة من شعراء الجاهلية والإسلام خاصة في القسم الأول من الغفران.

–المعري الشارح:

والكاتب في هذه المقالة لايكتفي بتقسيم وشرح تجربته الشعرية الغنية، بل يؤكد على أن المعري كان قارئا نهما للشعر، ونشير هنا إلى تجربتي المتنبي وأبي تمام، بحيث يقول الجراري: "كما أنه اعتنى بشعر غيره، فشرح شعر المتنبي وسماه"معجز أحمد".. واختصر ديوان أبي تمام وشرحه وسماه "ذكرى حبيب"، وديوان البحتري وسماه "عبث الوليد".[2] في حال تأمل مقالة عباس الجراري، سيكتشف القارئ أن الكاتب أكثر إلماما بالمتنبي وهو يبسط سيرته الإنسانية والشعرية والنقدية، وهي سيرة من شأنها تقريب المتلقي من عوالم هذا المبدع المتعدد الذي كثيرا ما شغل الدارسين والباحثين والقراء بمختلف انتماءاتهم وأنواعهم. والطريف في مقالة الجراري هاته أنها كتبت بلغة واصفة وأسلوب جميل ما زال يحافظ على رونقه وطراوته مما قد يذهب بظن القارئ بأنها قد كتبت اليوم حديثا، وهي الصادرة في مجلة "هنا كل شيء" بتاريخ 15 يوليوز1945م، ويمكن أن نضيف إلى هذه السمات سمات بلاغية أخرى، فالجراري لايكتفي ببسط وعرض المعلومة فحسب بل يستخدم بعض الحجج لإضفاء البعد الإقناعي على

---

[1] ــ طفولة قلم، ص 42.

[2] ــ نفسه، ص 42.

النص ودفع القارئ إلى التسليم بنتائجه فاستعمل الكاتب بعض الصيغ الحجاجية ومن تجلياتها: يحكى، مما يحكى، فقد حكي،[1] وهذه الصيغة تضعنا أمام راويين:

- الأول: مجهول

- الثاني: معلوم (الكاتب)

وغني عن البيان أن توظيف هذا الضرب من الرواية يزيد من قوة الحكاية وأجواء الثقة لدى القارئ. ولما كان الأمر يتعلق بمقالة نقدية، فإن الكاتب قد اعتمد العديد من الأمثلة الشعرية المدعمة من أجل تعزيز وتوكيد رأيه.

- ثانيا : الثوري والتشاؤمي في شعر ابن حبوس:

في القسم الثاني من الكتاب المعنون بفجر الكتابة أو مرحلة البحث عن الذات يطالعنا الكاتب عباس الجراري بمقال نقدي عن الشاعر المغربي ابن حبوس وهو من مواليد فاس المغربية زمن الدولة المرابطية، وهو من الشعراء المغاربة الذي أغنوا مدونة الشعر المغربي بشعر يجمع بين المدح والهجاء، وحسب الكثير من الدراسات فإن شعره تغلب عليه أغراض الوصف والغزل والحكمة والمدح والرثاء. ووعيا منه بأهميته وحضوره الضائع، فقد خصه الجراري ببحث نقدي مهم سليم من حيث المنهج والدقة في الأفكار كما يرى ذلك الدكتور يوسف خليف.

–ابن حبوس الثوري:

يلاحظ القارئ أن الشاعر ابن حبوس عاش في ظرفية سياسية حساسة تميزت بالاختلاف والصراع السياسي والديني بين المرابطين والموحدين. وهذه الظرفية أملت عليه اتخاذ بعض المواقف للحفاظ على حياته ومصالحه. بداية يخبرنا الكاتب عباس الجراري أن سيرة ابن حبوس كثيرا ما ارتبطت ببعض الأحداث التي أثرت على شخصيته. فبداية اتصل الرجل بالمرابطين وتقرب إليهم بعد أن حظي بمكانة خاصة، لكنه سرعان ما انقلب عليهم لأنه لم يألف وينسجم مع الجمود الذي كان يسود المناخ العام وكذا هيمنة فقهاء التقليد، ومن ثم جاءت

[1] ــ انظر، طفولة قلم، ص 38.

هذه القصيدة بمثابة صرخة وإدانة لهذا الواقع، صرخة ينتقد فيها عقلية فقهاء وجمود الفكر المرابطي. تقول القصيدة:

"الـدين ديـن اللـه لـم يعبـأ بمـب تـدع ولـم يحفـل بضـلة ملحـد
قـالوا بنـور العقـل يـدرك مـا ورا ء الغيب قلت قدى من الدعوى قد
بالشـرع يـدرك كـل شيء غائـب والعقـل ينكـر كـل مـا لـم يشـهد"[1]

يقول عباس الجراي في تحليله لهذه القصيدة: "والقصيدة كما يرى ثورة صريحة ضد الفقهاء، الذين تمسكوا بقشور الفروع، وثورة في نفس الوقت ضد بعض فلاسفة العصور ممن كانوا لا يقولون بغير العقل. وهي في الواقع من آثار الدولة الموحدية، يدعو فيها إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة. والذي يتضح من أبياتها أن ابن حبوس كان وسطا في تفكيره يأخذ بالمنقول في غير جمود وفي غير معاداة للتأويل والاستنباط تضيء عقله نظرة فلسفية لا غلو فيها ولا مبالغة".[2] تكشف لنا هذه القرينة أن ابن حبوس كان:

- شاعرا ثوريا يجهر بالحق ويدافع عنه، وهذا يكشف دلاليا فهمه للشعر ورسالته
- معتدلا ويتخذ من الاعتدال منهجا في الفكر والحياة، والاعتدال سمة من سمات الدين الإسلامي
- مناصرا للتجديد في الفكر الديني، والمقصود هنا هم فقهاء زمنه الذين يكتفون فقط بالفروع وبالظاهر
- مستخدما العقل مثلما كان محبا للفلسفة، وهذه تحسب لابن حبوس الشاعر.

-ابن حبوس المتشائم :

إلى جانب البعد الثوري الذي يميز شخصية ابن حبوس، يكشف لنا الكاتب عباس الجراري عن حجم التشاؤم الذي اعترى نفسية الشاعر المغربي. نقرأ عن هذا الحال:

" أعـد لنـا بحيـك عصـا وأقضـم ماضـغيك حصـا

---

[1] ــ طفولة قلم، ص 252.

[2] ــ نفسه، ص 253.

وعامـــــل بالخديعـــــة مـــــن مـــن لقيـــت وبـــادر الفرصـــا
وهـــــز لمعـــــشر ســـــيفا وهـــــز لآخـــــرين عصـــــا
وســـــؤ ظنـــــا بكـــــل أخ يقاســـــمك الثنـــــا حصصـــــا"[1]

وحسب الجراري، فمصدر هذا التشاؤم يعود بالدرجة الأولى إلى نفسية الشاعر ونظرته إلى محيطه. يقول الكاتب عن هذه السمة:"لم يكن شيء من هذا سببا في تشاؤم ابن حبوس، وإنما كان سببه كره موقت للناس وضيق صدر بمن حوله، اعتراه في هذه الفترة التي بدأ يضطرب فيها زمام اللمتونيين، وأخذت تتفشى بعض تعاليم الدعوة الموحدية.[2] والكاتب لا يكتفي بعرض مقطع من قصيدته التي تبين تدثره بالتشاؤم بل يسائل النص ويستجلي الأسباب ويضع فرضيات ذلك. يقول الكاتب: " ونخشى أن يكون ما ساقه في قصيدته موجها ضد أولئك الذين أبعدوه عن البلاط.."[3] والغريب أن هذه الحالة النفسية من السمات التي كثيرا ما ميزت بعض المبدعين، فالمعري مثلا كان متشائما بفعل فقدانه لبصره ولوالديه وهوما أدى به إلى العزلة (عزلة الناس)، ويمكن أن نضيف لهؤلاء ابن الرومي إلى غيرها من القامات الشعرية التي كثيرا ما عانت من هذه الظاهرة. واستدعاء عباس الجراري لهذه الموضوعة يدفعنا إلى التأكيد على ندرة الدراسات والبحوث (في حدود علمنا) العلمية لهذه الظاهرة النفسية التي كثيرا ما عانى منها الإنسان بما في ذلك رجالات الإبداع والفكر والفلسفة.

– ابن حبوس شاعر البلاط:

بعد تجربة السفر إلى الأندلس التي لم تنصفه إبداعيا واجتماعيا، سيعود ابن حبوس إلى المغرب بعد أن أيقن أن الحياة لا تنصف المبدعين، وسيتحول بعدها من شاعر متدمر ومتشائم إلى شاعر البلاط يحظى ببعض الامتيازات التي حرم منها في السابق. وشاعر الخلافة المهدية الذي كثيرا ما كان يلازم الأمير ويصاحبه. ولكي

---

[1] ــ طفولة قلم، ص 254.

[2] ــ نفسه، ص 255.

[3] ــ نفسه، ص 255.

يقربنا الكاتب منه يسوق لنا نموذجا من شعر المدح الذي كان يخص به الخليفة. نقرأ:

"مـن القـوم بـالغرب تصـغي إلى إلى حـــديثهم اذن المـــشرق
بـــأ يـــديهم النـــار مشـــبوبة فمهمـــا تصـــب بـــاطلا تحـــرق
يقـــــودهم ملـــــك أروع تفـــرد بالســـؤدد المطلـــق
إلى الناصريـــة سرنـــا معـــا ولمـــا تفتنـــا ولـــم تلحـــق"[1]

وعلى الرغم من تقرب جعفر ابن عطية القضاعي من محيط الخليفة وتعيينه وزيرا بعد أن أعجب به هذا الأخير، فقد ظل ابن حبوس مقربا من البلاط معتمدا في ذلك على المدح وما يملكه من طاقات شعرية مبهرة لقيت استحسانا من لدن الخليفة.إن تناول عباس الجراري لسيرة وشعر الشاعر ابن حبوس، لم يكن له أن يستقيم لولا الاطلاع الواسع للكاتب على شعره وعلى جملة من المصادر والمراجع الأدبية والتاريخية المتنوعة والمختلفة. من جانب آخر، يلاحظ توسله بأسلوب التعريف (التعريف بالكاتب) والشرح (الظروف الاجتماعية والسياسية التي عاصرها ابن حبوس، وكذا شرح وتحليل شعره)، كما استعمل أسلوب المقارنة (بين الشاعرين ابن حبوس وابن هاني). يقول الكاتب:" فهو دون شعر ابن هانئ الذي يفيض عن عبقرية جياشة، وشخصية قوية..".[2] ولاستخلاص الأغراض التي تميز تجربة ابن حبوس خاصة غرض المدح، وظف الجراري المنهج الموضوعاتي إلى جانب المنهج البلاغي الذي أظهر لنا بيان شعره وما ينطوي عليه من تصوير واستعارات وتشبيهات زادت من قيمة وجمالية النص الشعري لدى ابن حبوس ورفعت من قدراته التواصلية والتداولية. يقول الكاتب في معرض تحليله لمقطع شعري لهذا الشاعر :"...نستكشف من بين استعاراتها وتشبيهاتها أساس المبادئ الموحدية، ولم يكن الشاعر قد صرح بها من قبل".[3] ويضيف في موضع آخر: ".. وهي

---

[1] ــ طفولة قلم، ص 258.
[2] ــ نفسه، ص 263.
[3] ــ نفسه، ص 260.

صورة غريبة لم يكن منتظرا من الشاعر أن يستلهمها من مظهر البحر".[1] إن هذه القراءة المتواضعة لمقاربة الجراري لشعر ابن حبوس تكشف لنا عن الوعي النقدي المبكر الذي اكتسبه عباس الجراري، وهو وعي تنامى لديه بشكل كبير وواضح، ويبدو ذلك من خلال عقد مقارنة بسيطة بين المقالين الخاصين بالمعري وابن حبوس.

إن الأمر هنا يتعلق بمرحلتين : مرحلة البحث عن الذات ومرحلة العطاء والنضج، وفيهما يجد القارئ نفسه أمام ناقد يعرف كيفية العبور إلى مجاهل النص الشعري ووضع اليد على معانيه الغائبة..

- ثالثا : الذاتي والشعري في تجربة أبي القاسم الشابي:

إلى جانب تلقي الجراري للشاعرين المعري وابن حبوس، يطالعنا الكاتب بمقال عن أبي القاسم الشابي. ولما كان هذا الشاعر من الشعراء المعروفين في أوساط القراء بفعل إحساسه المرهف وإسهامه الكبير في تجديد الشعر من خلال تجربته الشعرية الرومانسية، وللاقتراب من قراءة الجراري لتجربة هذا الشاعر، فإننا سنعمل هنا على الإنصات إلى هذه القراء ة ويكمن من وراء هذا الاختيار عاملين لا غير:

- الأول: كون الشابي من الأصوات الشعرية التي جددت القصيدة الرومانسية وانتشلتها من طور التقليد

- الثاني: كون قراءة الجراري للشابي قراءة علمية ورصينة، ناهيك عما انتهت إليه من نتائج وإضافات.

- الشابي وسؤال الذات:

يذهب الكثير من الدارسين للشعر الوجداني أو الرومانسي إلى القول : إن هذا الشعر منح أهمية كبيرة للذات الشاعرة، باعتبارها مركز هذا العالم، وأنه من واجب الشاعر أن يحتفي بها ويرسمها ويرسم علاقتها بنفسها وبالعالم. وقراءة الجراري لتجربة الشابي وما انتهت إليه من نتائج تزيد من صحة هذه الفرضية. في هذا

[1] ــ طفولة قلم، ص 262.

الإطار يرى صاحب "طفولة قلم" أن تجربة الشابي الشعرية اصطبغت بالذات، ويبدو ذلك بشكل واضح من خلال بعض الموضوعات التي استخلصها الكاتب، ومن بينها موضوعات: الحب الحزن والألم والغربة والحب. وهي موضوعات ذاتية يغلب عليها البعد النفسي

الشاعر المتيم بالحب والإنسانية:

يرى الجراري أن الشابي كان محبا للمرأة ومقدسا لها، ويبدو ذلك في جملة من أشعاره، ويرجع الباحث أسباب هذا الحب إلى تأثره المفرط بشعراء المهجر بحيث يقول:" تم نصل إلى مضمون، فنلاحظ ظهور نزعة إنسانية تسمو به في أغراض الحس ونزوات النفس، وتتجلى في كثير من موضوعات الشعر المشتركة بين الشابي وأساتذته المهجريين".[1] وعن تقديس المرأة يضيف قائلا:" تقديس المرأة التي لم تعد جسدا يكشف فيه الشاعر عن مواطن الحس والغريزة، وإنما أصبحت سر الوجود وسحره وباعثة الحياة فيه".[2] وإلى جانب المكانة التي خص بها الشابي المرأة (بفعل تأثره بالمهجريين) فإن الشابي لا يخفي ارتباطه وشغفه بالحب الذي يقول عنه:

"لولاه ما سمعت في الكون أغنيـة ولا تـآلف في الـدنيا بنـو أفـق
الحـب جـدول خمـر مـن تذوقـه خاض الجحيم ولم يشفق مـن الحـرق"[3]

حسب هذه القرينة الشعرية، فإن الشابي ينظر إلى الحب باعتباره قيمة، فهو وسيلة لتأكيد الذات والارتقاء بالنفس إلى الصفاء والطهرانية والسمو بها إلى عوالم روحية. ودائما في سياق البحث وتفكيك شعر هذا الشاعر الجميل الذي رحل مبكرا، يطالعنا الجراري بأن قيم الحب وما تعتريها من نزعة إنسانية جاءت وليدة التأثر ببعض شعراء المهجر، وهو التأثر الذي أدى إلى التشابه من حيث الموضوعات.

---

[1] ــ طفولة قلم، ص 272.

[2] ــ نفسه، ص 272.

[3] ــ نفسه، ص 273.

- من الغربة والألم إلى اليأس:

ومن تجليات هذا التأثر، يمكن الحديث - حسب الجراري - عن الغربة والألم. يقول صاحب طفولة قلم : "وإذا كان الشعور بالغربة والحنين إلى الوطن الذي كان يرزح تحت نير الطغيان قد دفع الشعراء المهجريين إلى السير في هذا النحو، فكذلك كان الشابي، ككل العباقرة الموهوبين الذين يسبقون جيلهم فلا يعترف بهم لأنه لم يألف ما يدعون إليه، غريبا في وطنه ووحيدا بين قومه الذين كانوا لا يفهمون فنه".[1] لقد كان الشابي - الشاعر الرومانسي المتشبع بقيم هذه المدرسة التي تعلي من الوجدان والخيال - حساسا تجاه محيطه وحياته الشخصية، ولذلك لا غرابة أن يجد القارئ امتدادا لهذه الحساسية التي أوقعت به في الغربة والألم. وعن تجليات هذه السمات نقرأ ما أورده الجراري نقلا عن الشابي في كتاب طفولة قلم:

" أيها الشعب ليتني كنت حطا با فأهوي على الجذوع بفأسي "[2]

ونقرأ أيضا في نفس الصفحة :

ها أنا ذاهب إلى الغاب يا شعـ بي لأقضي الحياة وحدي بيأسي

على أي، فحياة الشاعر الشابي جديرة بالدراسة والمواكبة في ظل التقلبات التي عاشها هذا الرجل وظروف المرض التي عانى منها أشد المعاناة وقد انعكست على حياته وشعره. وهذه الحياة الهشة والمليئة بالألم والمرض يرجعها الجراري إلى جملة من الأسباب أهمها تأثر الشابي بالمعري والشعراء الرومانسيين خاصة عبد الرحمن شكري. يقول الجراري: "فالشاعر كما لاحظ دارسوه، كان شغوفا بقراءة المعري ولزومياته بصفة خاصة، مما غذى، لاشك نفسه الكئيبة ووجدانه المتوجع، بل ربما كان تأثره بأبي العلاء سابقا لتأثره بالمهجريين لاحتمال تعرفه عليه قبل أن يتعرف عليهم، كذلك لا نريد أن نغفل تأثر الشابي في هذا اللحن بشعراء طليعة المدرسة الرومانتيكية في مصر، أمثال عبد الرحمن شكري، الذي ملأت شعره نغمات

---

[1] ــ طفولة قلم، ص **276-277.**

[2] ــ نفسه، ص **277.**

حزينة، كانت عصارة عنائه النفسي وشؤمه من الحياة والأحياء.." [1] أعتقد أن القارئ للتجربة الشابي وشعراء المهجر - خاصة جماعة أبولو التي كان ينتمي إليها الشابي إلى جانب الرواد من قبيل: أحمد زكي أبو شادي وإبراهيم ناجي وحسن كامل الصيرفي ومحمد عبد المعطي الهمشري وعلي محمود طه - أقول، على الرغم من التقائه مع هذه المدرسة في المبادئ والأفكار التي ترى أن ذات الشاعر مصدر الإلهام الشعري وكذا الهروب إلى الطبيعة، فإن مشاعر وأحاسيس حياة الشابي تبقى مختلفة بعد أن ارتمى في أحضان الانطوائية والاستلام للمرض ضدا على الحياة، وهو ما كشفت عنه الدراسة الرصينة لعباس الجراري التي ركزت على التحليل والمقارنة واستخلاص الموضوعات من خلال اعتماد المنهج الموضوعاتي.

وعلى الرغم من مرور مدة طويلة على هذه القراءة أو البحث الذي ظهر في الستينيات، فإنه ما زال يحافظ على طراوته وقيمته العلمية التي لا تبلى، وهنا تكمن عبقرية قلم الجراي الذي يقف ضد الزمن ويعرف كيفية الحفاظ على رشاقته النقدية

خاتمة :

لقد سعينا من وراء هذه القراءة الكشف عن الملمح النقدي في كتاب "طفولة قلم" للكاتب المغربي عباس الجراري من خلال التركيز على المعري وابن حبوس والشابي، وهم شعراء ينتمون إلى أجيال وحساسيات مختلفة، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تركوه من إرث شعري ما زال يستأثر باهتمام الباحثين والقراء على حد سواء بالنظر لما يتميزون به من رؤيا شعرية وخيال كبير وظروف نفسية واجتماعية مشابهة.

لقد بدا لنا من خلال مقاربتنا لهذا الموضوع أن عباس الجراري كان قارئا نهما للشعر، ويبدو ذلك واضحا من خلال مساحة الكتاب التي خصصت جزءا مهما منها إلى الشعر إبداعا ونقدا. والحديث عن النقد، يدفعنا للإشارة إلى أن الجراري

[1] ــ طفولة قلم، ص 280.

كان ممارسا للنقد منذ نعومة أظافره، متمكنا من أدواته النقدية، ومن لغته الواصفة وقدرته على تشريح النص الشعري وتأويله وتقديمه إلى القارئ، وذلك احتفاء بالشعر وتعميما للفائدة.

إلى جانب ما سلف، هناك مسألة مهمة يكشفها لنا هذا الكتاب، وتتمثل في كون الجراري قارئا عربيا بامتياز، وهذا الثالوث الشعري الذي استدعيناه من خلال هذه القراءة واحتفى به الكاتب (المعري، ابن حبوس، الشابي) يزيد من صحة هذه الفرضية، وهو ما يضمن للقارئ المغربي السفر في أزمنة شعرية متنوعة ومختلفة.

***

تخليدا للذكرى التسعين لتأسيس النادي الجراري

2020-1930

عباس الجراري

طفولة قلم

جمع وإعداد وتقديم:

د. سي محمد أملح

منشورات النادي الجراري رقم 102

فهرس الموضوعات

تقديم

د. محمد احميدة 9

«طفولة قلم»... بوادر الاهتمام بالأدب المغربي وأعلامه

د. جميلة حيدة 17

«طفولة قلم»... إرهاصات النبوغ وتفتق الإبداع

د. ربيعة بنويس 33

الوعي الاستباقي بقضايا الاصلاح وتحدياته في «طفولة قلم»

د. خديجة مروازي 61

الصبابة المغربية في التحبيرات الجرارية لبواكيره الأدبية

د. بديعة لفضايلي 69

«طفولة قلم» بين هاجس الابداع وصدى الفكر

د. سعاد مسكين 91

الارهاصات الشعرية الأولى للشاعر عباس الجراري

د. ادريس الشراوطي 111

كتابات الشباب في الحماية وفجر الاستقلال

«طفولة قلم» لعباس الجراري أنموذجاً

د. أسماء الريسوني 125

كتابة الذات وذات الكتابة في «طفولة قلم»

د. سعاد الناصر 145

«طفولة قلم» وبدايات تشكل المشروع الفكري عند عباس الجراري

د. أمل بنويس 155

الدكتور عباس الجراري بين هواجس البدايات واستنارة القصد
دراسة نقدية في كتاب «طفولة قلم» للدكتور عباس الجراري
د. عبد الله لحميمة 169

البدايات: نحو رؤية فكرية ومنهجية.
قراءة في كتاب «طفولة قلم» للدكتور عباس الجراري
د. عادل القريب 183

فن الكتابة المقالية في مؤلف «طفولة قلم» للأستاذ عباس الجراري
د. محمد خيوط 205

ملامح نقدية في كتاب «طفولة قلم» للأستاذ عباس الجراري
د. حسن اليملاحي 223

***